ماجدة المؤمن

بنو إسرائيل والحضارة المصرية

دراسة مقارنة بين تاريخ بني إسرائيل
والحركة الصهيونية المعاصرة



بنو إسرائيل
والحضارة المصرية

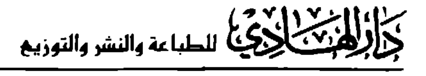
الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

دار الهادي

ISBN
9953-484-54-6





للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٥/٢٨٦ غبيري - بيروت - لبنان

Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

بنو إسرائيل والحضارة المصرية

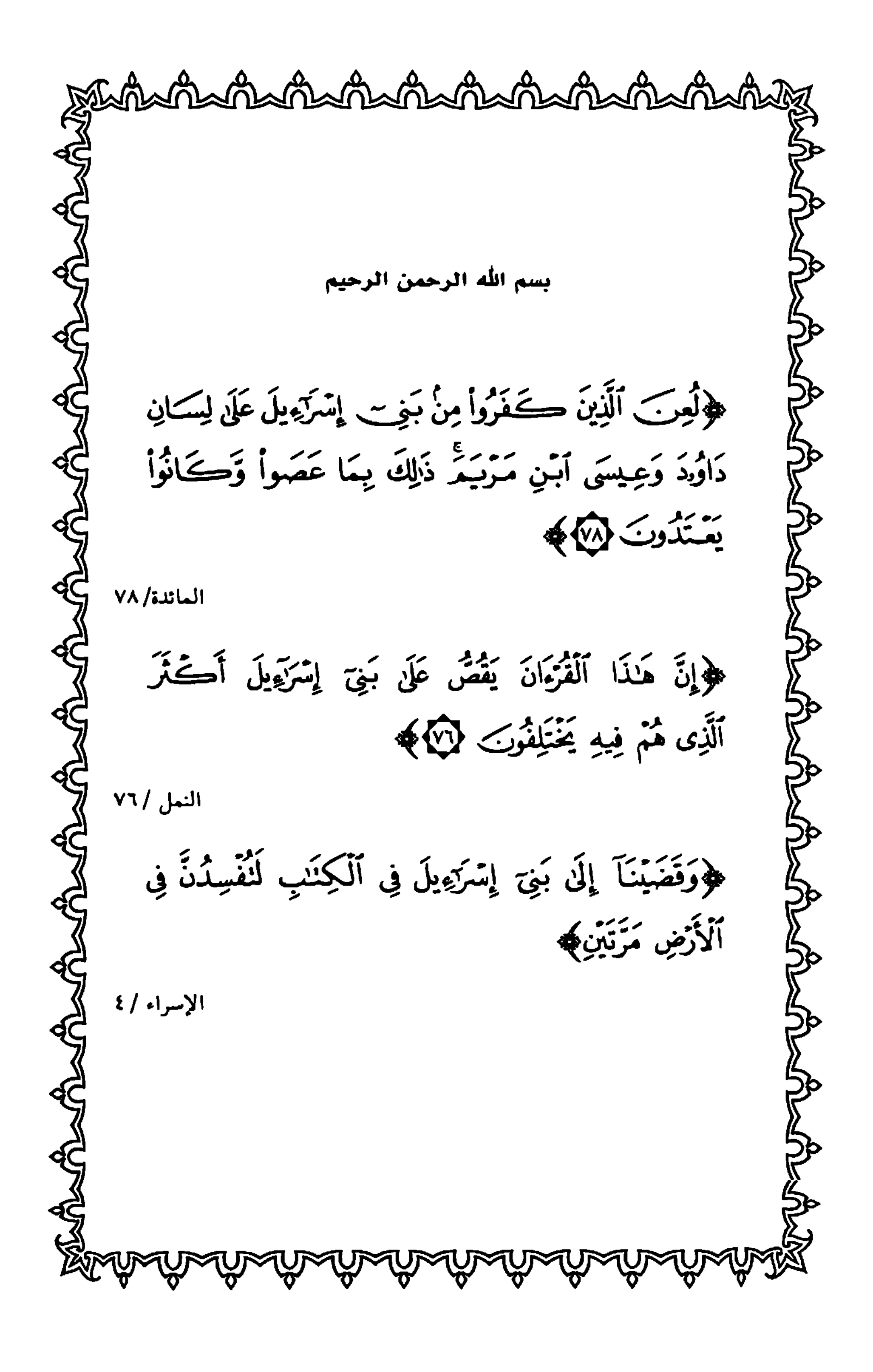
دراسة مقارنة بين تاريخ بني إسرائيل والحركة الصهيوبية المعاصرة

ماجدة المؤمن



للطباعة والنشر والتوزيع





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾

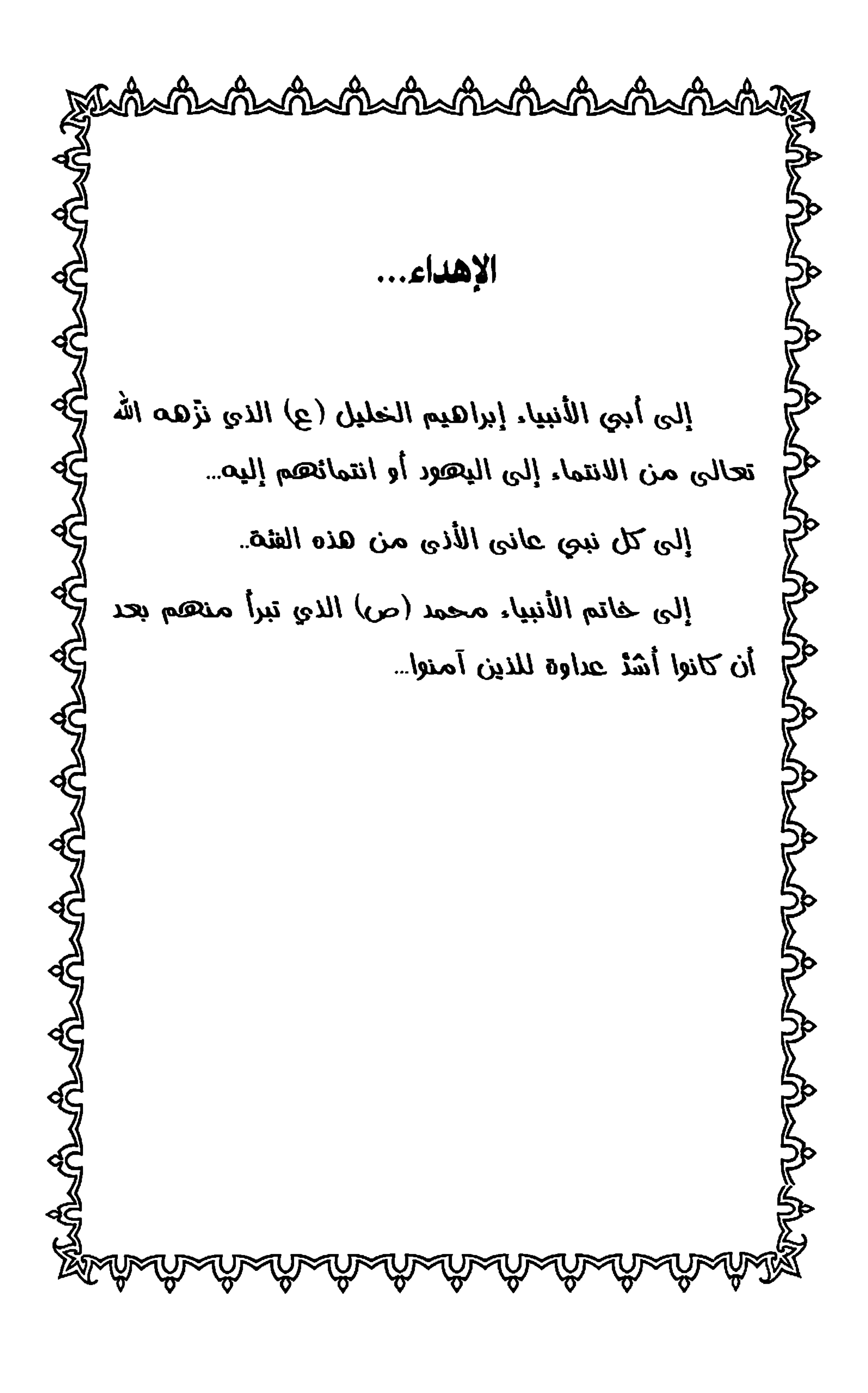
المائدة/ ٧٨

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦﴾

النمل / ٧٦

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾

الإسراء / ٤



الإهداء...

إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل (ع) الذي نزّهه الله تعالى من الانتماء إلى اليهود أو انتمائهم إليه...

إلى كل نبي عانى الأذى من هذه الفئة..

إلى خاتم الأنبياء محمد (ص) الذي تبرأ منهم بعد أن كانوا أشدّ عداوة للذين آمنوا...

المقدمة

اليهود هذه الفئة، هذا الشعب يبحث عن مجد!!، يبحث عن مكانة له أكثر مما يستحق، يريد أن يتطاول على الحضارة وعلى الإنسانية جمعاء بوصفه نفسه (شعب الله المختار).

فمنذ السبي البابلي واليهود يتخبطون ويحاولون إثبات نسب لهم يشرفهم ويرفعهم إلى مصاف الأمم المتقدمة، فكتبوا (التوراة) لتجعل لهم تاريخاً عريقاً ولتفضلهم على سائر الأمم ولتصفهم بأبناء الله أو الشعب المختار، وتمادوا أكثر من ذلك ليقولوا بوراثة الأرض، وأن أرضهم تمتد من الفرات إلى النيل، هبة وهبها الله تعالى لهم، ووعد بها أباهم إبراهيم الخليل ﷺ وتجاوزوا ذلك ليسترخصوا دماء الآخرين، فدمهم هو الوحيد الطاهر وفوق كل الدماء!!

منذ ذلك الوقت، منذ السبي البابلي فهم يتخبطون بالأسماء والمصطلحات يمطرونها كالمطر على أسماع الناس كافة فهم: (بنو إسرائيل) وهم: (اليهود) وهم: (قوم موسى) وهم: (الشعب المختار) و(العائلة المقدسة) و(الموسويون) وأسماء أخرى لا مجال لذكرها في هذه المقدمة المختصرة.

وتخبطوا أكثر وأكثر فنسبوا أنفسهم إلى النبي إبراهيم خليل الله، وقالوا إنه يهودي، ونسبوا الأب إلى حفيده وقالوا إن إبراهيم الخليل هو من بني إسرائيل.

ونسبوا أنفسهم إلى العائلة المقدسة التي دخلت مصر بقيادة النبي يعقوب ﷺ بعد استدعاء يوسف الوزير لهم، وادعوا أن لهم دوراً في بناء الحضارة المصرية لكونهم عاشوا فيها فترة من الزمن (عدة قرون) وكتبوا في توراتهم أنهم بنوا مدينة (رعمسيس) ومدينة (مخازن فيتوم) وساهموا في بناء الأهرامات ومساهمات أخرى في الحضارة المصرية لم يُنـزِل الله تعالى بها من سلطان.

وقد كشف القرآن الكريم ذلك وأحاديث الرسول الأعظم، بمزيد من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية إضافة إلى ما وفرته المعطيات الأركيولوجية والتنقيبات الأثرية التي جاء بها العصر الحديث، فمن خلال بعض برديات الفراعنة المكتشفة تبيّن أن الأقليات التي سكنت مصر القديمة استُخدمت خدماً وعمالاً، مارست دور المنفذ لا المخطط، وبذلك سقط التباهي والكبرياء الذي كانوا يدّعونه في أنهم بناة حضارة.

إن التاريخ يكشف التاريخ وخاصة هذا الذي كتبوه بأيديهم، فلا كرامة ولا مميزات لهم على الأقوام والحضارات الأخرى، وإن المجد هو السلوك السوي للفرد والجماعة، والادعاءات والأكاذيب لا بد أن تظهر وإن بعد أمد.

وبين أيدي القارىء الكريم كتاب عن تاريخهم أو بعض تاريخهم، دارساً ومتابعاً الأحداث التاريخية التي حدثت للأنبياء الذين حاول اليهود الانتماء إليهم. هادفاً إلى كشف زيف ادعاءاتهم ومزاعمهم الكثيرة، بدءاً بإبراهيم الخليل ﷺ، فإسحاق، فيعقوب، فيوسف، وموسى وهارون ثم مواقفهم مع من جاء بعد ذلك من الأنبياء. والكتاب يحتوي على عشرة فصول: يحتوي كل فصل على عدد من المواضيع بشكل مختصر دون الدخول في التفاصيل.

وفيما يلي خلاصة موجزة لهذه الفصول العشرة التي ابتدأتها بمدخل تحت عنوان (أهمية الحضارة المصرية في التاريخ): ويحتوي على المظاهر

العلمية للحضارة المصرية، وعقائد المصريين القدماء، عصر الملوك والفراعنة وما اقترن بزمن إبراهيم الخليل من أمور حتى زمن موسى ﷺ، وسبب اعتقادهم بالآخرة والحساب، وتوحيد إخناتون للآلهة وسر بناء الأهرامات وسر تحنيط الموتى والعلوم التي اختص بها المصريون في ذلك الوقت وما إلى ذلك..

أما محتويات الفصول العشرة فهي:

الفصل الأول: تحت عنوان: (إبراهيم الخليل ﷺ والحضارة المصرية) ويحتوي على: ذكر علاقة إبراهيم ﷺ بالعبرانيين ورحلاته إلى أور الكلدانية وحرّان، وإلى أور سالم (فلسطين الحالية) وإلى مصر الفرعونية وظروفها الاقتصادية والسياسية والدينية ثم مغادرته إياها، ثم علاقته ﷺ باليهود وببني إسرائيل ودعوته للتوحيد في مصر.

الفصل الثاني: تحت عنوان: (إسرائيل والعبرانيون والحضارة المصرية) ويحتوي على: ماهية إسرائيل ومن هم الإسرائيليون ومن هم العبرانيون، ورأي التوراة في هذا المجال، ثم بيان اسطورة الشعب المختار وأسطورة الأرض الموعودة لهم، ثم التمييز بين إسرائيل التاريخ وإسرائيل الجغرافية، وبنو إسرائيل الذين جاءوا في خطاب القرآن الكريم؟. ثم دخول أولاد النبي يعقوب ﷺ وأحفاده وأتباعه مصر واستقبالها لهم.

الفصل الثالث: تحت عنوان: (يوسف ﷺ وزيراً عند المصريين) ذكرتُ فيه أن يوسف ﷺ إسرائيلي عبري الأصل أثير عند أبيه بيع للمصريين بعد خيانة إخوته له بسبب الغيرة والحسد، وسيرة حياته في مصر بدءاً بموقف امرأة العزيز وشغفها به وأيام السجن وتأويله الأحلام حتى تسلمه مهام وزارة المالية في مصر ودعوته للتوحيد بعد بعثه نبياً.

الفصل الرابع: تحت عنوان: (دخول بني إسرائيل) ويحتوي على:

حالة الجفاف والجوع التي عمت الأرض آنذاك، وبتدبير من الوزير يوسف الصدّيق عليه السلام وزير مالية مصر يُخرج مصر من هذه المجاعة ويجعل أفئدة الناس تهوي إليها لشراء القمح وغيره وسفر إخوته إليها كباقي الناس، ثم لقاؤه بهم بعد فراقٍ طويل، ثم الخطة التي اتبعها يوسف لإبقائهم في مصر مع أبيه يعقوب عليه السلام ثم وفاة يعقوب عليه السلام ووفاة يوسف عليه السلام ونهاية عز بني إسرائيل بوفاتهما، ثم الأوضاع الاجتماعية والسياسية قبل ظهور النبي موسى عليه السلام.

الفصل الخامس: تحت عنوان: (أين عاش بنو إسرائيل داخل مصر وكم لبثوا فيها؟) ويحتوي على: ذكر مكان سكن يوسف عليه السلام في مصر ونزول يعقوب وأتباعه في جاسان وعلاقتهم بمدينتي بررعمسيس وفيتوم، ثم فترة بقائهم في مصر وأسباب التنكيل بهم، ثم تحدثتُ عن الأعمال التي اشتغلوا بها، وطقوسهم الدينية التي كانوا يمارسونها وعلاقتهم بالمصريين من جهة، وبالهكسوس المحتلين من جهة أخرى، والمدن التي تجمعوا فيها وغير ذلك..

الفصل السادس: تحت عنوان: (موسى عليه السلام والفراعنة) ويحتوي على: ذكر الحكم الفرعوني والوضع الاجتماعي المقارن لولادة موسى عليه السلام ثم نشأته عليه السلام وهويته والعناية الإلهية التي أحاطت به منذ انعقاد نطفته حتى بلغ الأشد، وقد حاولت عرض صورة مختصرة عن سيرته الذاتية من خلال شرح المفردات التي صادفته كقذفه في اليم ثم التقاط فرعون له والنشأة في بيت فرعون ووكز المصري وهروبه إلى مدين وزواجه، ثم التصميم للرجوع إلى مسقط رأسه حيث الأهل، فبعثته، فدعوته للتوحيد، فالحوار الساخن بين موسى عليه السلام نفسه والفرعون، ثم معاجزه عليه السلام واستهزاء الفرعون وأتباعه، حتى الأمر الإلهي بالخروج من مصر مع من آمن به، ونجاته معهم وغرق الفرعون وأتباعه وما يتعلق بذلك..

الفصل السابع: تحت عنوان: (الموسويون واليهود والصهاينة) وقد ذكرتُ أصل الموسويين ونسبهم وجذور كلمة يهودي، وعلاقة موسى ﷺ بالديانة اليهودية، والكتاب الذي نزل على موسى ﷺ، والتهوّد في التاريخ، ولماذا ذم القرآن الكريم الذين هادوا، ثم ذكرتُ الانقسام الذي حصل بين مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل، وعلاقة اليهود بفلسطين، ووعد بلفور لهم بجمعهم بعد الشتات ـ على حد قوله ـ في بلدهم المقدس.

الفصل الثامن: تحت عنوان: (خروج بني إسرائيل من مصر) وقد جاء فيه: أسباب الخروج منها، وموسى ﷺ يتحدى الفرعون الطاغي وأتباعه، والخوارق الكونية التي أحاطت بموسى ﷺ واتباعه لتكون كلمة الحق هي العُليا، ثم هلاك الفرعون وجنوده في اليم ونجاة بدن الفرعون ليكون آية لمن خلفه من الطغاة، ثم ذكرتُ في طريق الخروج ما لاقوه من العناية الإلهية رغم إيذائهم لنبيهم، والحلي التي سرقوها من المصريين، وكذبهم على المصريين بإرجاعها بعد ثلاثة أيام، وتاريخ خروجهم من مصر ثم ختمتُ الفصل بعلاقة موسى ﷺ بمجمع البحرين..

الفصل التاسع: تحت عنوان: (تيه قوم موسى ﷺ في سيناء) ويحتوي على: كيفية لصوق الوثنية بقوم موسى ﷺ والحنين إليها، وطلبهم من موسى ﷺ أن يصنع لهم إلهاً كما للأقوام آلهة، ثم عبادتهم العجل بغيابه عنهم وذهابه لميقات ربه، ثم طلب موسى ﷺ رؤية ربه وصعوبة الموقف وغيابه عن الوعي، ورجوعه إلى قومه بالرسالة السماوية فيجدهم عاكفين على عجلٍ يعبدونه بإغراءات من السامري، والعقاب الإلهي لمن عبد العجل، ثم جزعهم على الطعام السماوي وحبهم وحنينهم لما كانوا يأكلون في أرض مصر، بعد ذلك ذكرت الأمر الإلهي على لسان موسى ﷺ لدخول الأرض المقدسة، وتقاعسهم عن الجهاد خوفاً من أهلها واقتراحهم على موسى ﷺ بأن يدخل هو وربه يقاتلان حتى ينتصر فيدخلوها معززين مكرمين، فحرّمها عليهم، وتاهوا في صحراء سيناء

أربعين عاماً، بعد ذلك ذكرتُ أسباب عدم الثقة بالنفس ولماذا أبت نفوسهم القتال للدخول إلى الأرض المقدسة، وختمتُ الفصل بعلاقة موسى عليه السلام بقارون وهل هو من قومه؟

الفصل العاشر: بعنوان: (غضب الله الدائم على اليهود) وذكرتُ فيه صفة الفسوق في قوم موسى ومن تهود بعدهم، وأهم أسباب الغضب الإلهي عليهم وذلك من خلال عرض آيات من القرآن الكريم وبعض ما كتبته أيديهم في التوراة وما كتبه النصارى عنهم في الإنجيل من اللعن الإلهي، وذكرتُ أيضاً موقفهم من الأنبياء بدءاً بموسى عليه السلام حتى نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وجذور العداء المعاصر، وختمتُ الفصل بأسباب تكرار الحديث عن بني إسرائيل أو اليهود أو قوم موسى عليه السلام في القرآن الكريم...

وختمتُ الكتاب بكلمة أخيرة تحت عنوان (خاتمة).

سائلةً الله تعالى أن يتقبله مني إنه وليُّ التوفيق، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

ماجدة آل مرتضى المؤمن
النجف الأشرف
١٥/٧/٢٠٠٥م

مدخل

أهمية الحضارة المصرية في التاريخ

١ ـ المظاهر العامة للحضارة المصرية

٢ ـ عقائد المصريين القدماء

٣ ـ الاعتقاد بحساب الآخرة

٤ ـ التوحيد في مصر

٥ ـ توحيد إخناتون للإله

٦ ـ هل بعث الله أنبياء في مصر؟

٧ ـ حفيد نوح يملك مصر

٨ ـ علوم المصريين القدماء

٩ ـ سرّ بناء الأهرام

١٠ ـ سرّ تحنيط الموتى

١١ ـ الاعتداد بالنفس والعزلة الحضارية

أهمية الحضارة المصرية في التاريخ

تعددت الحضارات في التاريخ القديم وتعددت معها اتجاهاتها وأفكارها ومزاياها، فكل حضارة لها سماتها وخصوصياتها وأفكارها المختلفة عن الاخرى.

فمن الحضارات القديمة من آمن باليوم الآخر والحساب، ومنها من لم تؤمن بذلك ومنها من آمنت بالله ووحّدته، ومنها من عدّدت الآلهة فأصبح لكل شيء أو حالة إله، ومنها من حققت أموراً لم تحققها حضارات أخرى، وبهذا اختلفت الحضارات من واحدة إلى أخرى، ولكل حضارة ظروفها ومشاكلها وأسباب تقدمها أو تخلفها.

ومن أشهر الحضارات في التاريخ القديم، حضارة وادي الرافدين التي ضمت السومريين والبابليين والآشوريين والكلدانيين.. وحضارة وادي النيل والحضارة الفارسية والهندية والصينية واليونانية.

فالحضارة المصرية القديمة، (التي هي محل بحثنا)، والتي نامت تحت التراب فترة طويلة من الزمن وضاعت في متاهات الصحارى آلافاً من السنين، لم تَضْحُ إلّا في عصر النهضة والثورة العلمية الحديثة، وظهور العلماء والباحثين في مجال الآثار والتاريخ، فمن خلال هذا العصر أسفرت جهود العلماء عن العثور على حضارة عريقة استمرت زهاء ٣٥٠٠ سنة، كشفتها النقوش والبرديات، وإذا بهم أمام حضارة تاريخية متميزة تفوق عدداً من الحضارات الأخرى في الجوانب العلمية والفكرية.

أما في الجانب الديني والروحي، فهي كباقي الحضارات القديمة،

ظلت تتخبط بالأوهام والخيالات والخرافات، باستثناء فترة التوحيد التي جمعت فيها الآلهة المتعددة في إله واحد، على أنها بين الحضارات القديمة آمنت أيماناً راسخاً باليوم الآخر والحساب، ومن أجل ذلك بنت المقابر المحكمة والأهرامات وحنَّطت الأجساد لتقوم للحساب في اليوم الآخر.

إن ما تخلل ديانة المصريين من التوحيد والإيمان بالآخرة والحساب يمكن أن يكون من تأثير الأنبياء الذين دخلوا مصر على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة دخول النبي إبراهيم الخليل ﷺ نحو سنة ١٩٠٠ق.م مع أسرته وابن أخيه النبي لوط ﷺ.

المرحلة الثانية: فترة النبي يوسف الصدّيق وأبيه النبي يعقوب ﷺ نحو سنة ١٧٠٠ ـ ١٦٠٠ قبل الميلاد.

المرحلة الثالثة: مرحلة النبي موسى ﷺ وأخيه النبي هارون ﷺ نحو ١٣٠٠ قبل الميلاد.

وليست هذه المراحل الثلاث والأنبياء المذكورون الذين دخلوا مصر، هي العوامل الوحيدة والأنبياء الوحيدون الذين أثّروا في عقائد المصريين، وإنما هناك أنبياء آخرون نذكر منهم على سبيل المثال وليس الحصر هجرة النبي داود ﷺ وسيطرة ولده سليمان ﷺ، ودخول النبي عيسى ﷺ مبشراً فيها، وكذلك دخول المسلمين والولاة الذين حكموها.

إن من زار مصر ودخلها أو مرّ بها من الأنبياء والرسل ﷺ وَمَنْ جاء بعد مرحلة النبي موسى ﷺ (المرحلة الثالثة) لا يدخل في بحثنا هذا.

إن دراستنا تتعلق أساساً ببني إسرائيل وكل ما يتعلق بهم عند دخولهم مصر، والذي يهمنا بشكل خاص تأثيرهم وتأثرهم بهذا البلد (مصر).

إن أهمية هذه الحضارة تأتي من كونها أرضاً احتضنت أحداثاً سياسية ودينية كثيرة، وخاصة ضيافتها لعدة من الأنبياء والأحداث التي رافقتهم.

إضافة إلى كونها حضارة علمية وثقافية قدمت للعالم إنجازات جمة. .

المظاهر العامة للحضارة المصرية:

أهم مظاهر الحضارة المصرية تقدمهم في العلوم والفنون والبناء والعمران. يقول لبيب عبد الساتر: «وزاد في تفوق المصريين ازدهار بلدهم الاقتصادي، وإشعاعها الحضاري، وتوسع دولتهم في الخارج. ففرضوا تأثيراتهم على فينيقيا. ولم يجد ملوك جبيل وصيدون غضاضة في التشبه بحياة الفراعنة والتقرب منهم، ومثلهم فعل سكان أمورّو (سوريا) وفلسطين. وأدرك المصريون مدى نفوذهم في بلدان الجوار ففرضوا أنفسهم بسهولة.

بل وصل بهم الأمر إلى الاحتفاظ بأبناء ملوك سوريا رهائن لديهم، يلقنونهم التربية المصرية ليشبّوا عليها حتى إذا عادوا إلى ديارهم كانت الروح المصرية متأصلة فيهم»[1].

وفي المجال العلمي يقول وِل ديورانت: «إن العلوم الرياضية متقدمة أعظم تقدم منذ بداية تاريخ مصر المدّون وشاهد ذلك أن تصميم الأهرام وتشييدها يتطلبان دقة في القياس لا يستطيع الوصول إليها بغير معرفة واسعة في العلوم الرياضية. . . وما من شك في أن القياس كان منشأ من الهندسة. وشهد ذلك اسمه الأجنبي: (gsometru) مشتق من كلمتين معناهما قياس الارض»[2].

وفي علم الطب والتشريح ووظائف الأعضاء والجراحة والتحنيط أكدت النقوش والكتابات ـ الهيروغليفية ـ والآثار الباقية أنه «كان من المصريين أخصائيون في التوليد وفي أمراض النساء، ومنهم من لم يعالج إلّا اضطرابات المعدة. ومنهم أطباء عيون. . . . وقد وصلت إلينا عدة برديات

(١) الحضارات، لبيب عبد الساتر، ص١٦.
(٢) قصة الحضارة، مج١،ج٢، ص١١٩.

تبحث عن الشؤون الطبية. وأعظمها قيمة بردية (أدون سمث) وسميت كذلك نسبة إلى مكتشفها، وهي ملف طوله خمس عشرة قدماً، ويرجع تاريخها إلى عام (١٦٠٠ق.م)... وتحدثت بردياتهم وأجسامهم المحنطة عن تدرن النخاع الشوكي وتصلب الشرايين، والحصوات الصفراوية، والجدري وشلل الأطفال وفقر الدم والتهاب المفاصل والصرع والنقرس والتهاب النتوء الحلمي والتهاب الزائدة الدودية وبعض الأمراض العجيبة... وذلك دليل تقدم الحضارة في تلك العهود. وكان لديهم عدة وافية من القراب ذينات (دساتير الأدوية) لمقاومة هذه الأمراض كلها، ففي بردية (إيبرز) ثبت بأسماء سبعمائة دواء لكل الأدوية المعروفة، من عضة الأفعى إلى حمى النفاس، وتصف بردية كاهون (ويرجع عهدها إلى حوالى عام ١٨٥٠ق.م) أقماع اللبوس ولعلها كانت تستخدم لمنع الحمل....»[١].

ومن علاجاتهم الملفتة للنظر والتي توحي انها من تعاليم الأنبياء الذين دخلوا مصر كإبراهيم ولوط ويوسف ويعقوب وموسى وهارون ﷺ جميعاً، يقول وِل ديورانت: «لقد حاول المصريون أن يحافظوا على صحة أجسامهم باتباع الوسائل الصحية العامة. وبختان الذكور وبتعويد الناس أن يكثروا من استخدام الحقن الشرجية. ويقول ديودور الصقلي في هذا المعنى: وهم يتقون الأمراض بالمحافظة على صحة أجسامهم وذلك باستخدام الملينات وبالصوم وبالمقيئات، كل يوم في بعض الأحيان وكل ثلاثة أيام أو أربعة في البعض الآخر، وذلك لأنهم يقولون إن الجزء الأكبر مما يدخل في الجسم من الطعام يزيد على حاجته، وإن الأمراض إنما تنشأ من هذا القدر الزائد..»[٢].

وأما الفنون التي تمثلت في بناء المدن والهياكل والمقابر والرسم والنحت والزخرفة والنقوش، فقد كانت على صلة وثيقة بالدين عند

---

(١) قصة الحضارة، المصدر السابق، ص١٢٣ ـ ١٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٦.

المصريين القدماء: «بل كان الدين سبباً في انطلاقة الفنون وكانت الأبنية الدينية، كالمقابر والهياكل من أعظم الآثار المصرية، أما قصور الفراعنة فلم تكن إلّا من الطين والآجر، فاندثرت معالمها باكراً وسبب الاهتمام بالأبنية الدينية هو أن الفرعون كان يهيئ نفسه دائماً للحياة الآخرة»[١].

عقائد المصريين القدماء:

عبد المصريون زمن الفراعنة آلهة متعددة ويرجع تعدد الآلهة إلى الفترة التي سبقت وحدة شطري مصر، أي منذ الدولة القديمة قبل حكم (نارمر) أو (ميناس) الذي وحّد مصر عام (٣٢٠٠ق.م) وفرض الوحدة بالقوة... واستمرت هذه الاعتقادات حتى مجيء (إخناتون) الذي نادى بالإله الواحد.

فالمصريون كما يقول سيرولس بدْج: «اعتقدوا بعدد كبير من الآلهة، وربطوا بين هذه الآلهة والأمور الحياتية الكثيرة، فلكل مظهر أو شيء إله، ومن ذلك، مظاهر الطبيعة الكبيرة، فللإرض إله، وللقمر إله، وللشمس إله، وللهواء إله، وللجبال إله، و... الخ»[٢].

وعلى رأس هذه الآلهة الكثيرة يقف الإله (رع) إله الشمس فهو (أبو الآلهة) و(ملك الآلهة) و(ملك البشر). أما سبب تبوّء الشمس هذه المكانة المرموقة، فلمزاياها الكثيرة، فهي في حضور دائم حيث تشرق يومياً، لتبدأ رحلة طويلة من الصباح حتى المساء، وهي على هذه الحال منذ أمد طويل، وما زالت وسوف تبقى للأجيال القادمة وهي مصدر خير كبير، مصدر الضوء العام، ومصدر الدفء والحرارة، ومصدر نمو المحاصيل الزراعية... وفي رحلتها اليومية، تخيلها المصريون حيث تشرق طفلاً أسموه (خبري) وعند الظهر أسموه (رع)، وعند المساء تخيلوها شيخاً وقوراً أسموه (أتوم).

ولكن كيف تتحرك يومياً من الشرق إلى الغرب؟ لا بد من مركب،

---

(١) الحضارات، لبيب عبد الساتر، ص٢٦.

(٢) الديانة الفرعونية، السير ولس بَدْج، ترجمة: يوسف سامي اليوسف، ص١١٩.

فتصوروا لها مركباً لتعبر به السماء، كما يعبر المصري النيل بالقارب من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية. وهي في ذلك مصوّرة على شكل إنسان قادر قدير خلق نفسه بنفسه، وخلق الكون كله. فهو الذي أوجد السماء، وأوجد الأجرام السماوية المنتشرة فيها. وقد حفظت لنا المقابر والبرديات أكثر من صورة للسماء، ومن أشهر الصور المصرية صورة (البقرة السماوية) المنحوتة على الجدران الحجرية في عدد من المقابر الملكية، والصورة تمثل السماء على شكل بقرة قائمة يسندها عدد من الآلهة. فالإله (شو) إله الهواء تحت البقرة يسند بطنها. وحول كل رجل من أرجلها إلهان يسندانها وفي بطن البقرة صف من النجوم إضافة إلى زورقين يبحران في طول بطنها وفي أحدهما رجل يتخذ من قرص الشمس لباساً لرأسه[1].

«والقمر إله جميل أنزلوه منْزلة قريبة من الشمس، فعبدوه وقدسوه وفي نفس الوقت لفتت أنظارهم حركته المستمرة وتغيّره التدريجي الدائم من هلال إلى بدر إلى هلال وحركته في المواقع المختلفة طوال الشهر، فاستغلوه لتنظيم الزمن فحسبوا الزمن بالتقويم الشمسي...»[2].

هذه الاعتقادات، وهذا النوع من التأليه والتقديس لبعض الظواهر الكونية والكواكب بالخصوص كانت موجودة في حضارة وادي الرافدين أيضاً وعموم الحضارات القديمة وقد أنكر القرآن الكريم هذا النوع من العبادة بقوله: ﴿...لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾[3].

إذن كانت عبادة الكواكب مألوفة في ذلك الزمن وقد سخر النبي

---

(١) راجع: تاريخ الحضارات العام، ج١، ص٤٩، وأساطير العالم القديم، جماعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م. ص١٥ فما بعدها ونقلتها كتب أخرى كثيرة يطول ذكرها. لأن الأسطورة مذكورة على جدران آثارهم.

(٢) الفلك والفضاء، عبد الامير المؤمن، ص٢٨.

(٣) سورة فُصّلَت: ٣٧.

إبراهيم عليه السلام من عقليات ذلك المجتمع ونبههم كيف يجب أن يفكر العاقل بخالقه وبارئه فألقى الحجة على أهل حضارة وادي الرافدين وبيَّن لهم أن الإله واحد هو الخالق المصور والبارئ لهذه المخلوقات الكونية وقد ذكر القرآن هذا الايمان من خلال الآيات التالية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

ثم ذهب إلى أبناء حضارة وادي النيل ليلقي الحجة عليهم، كما فعل مع أبناء الرافدين من قبل، على كل حال فالمصريون على كثرة آلهتهم «آثروا عبادة اثنين كان لهما السبق على جميع الآلهة الأخرى أحدهما: (أوزريس) الذي لم يقهره الموت، والآخر هو الشمس التي تبهر البصر بضيائها في سماء مصر الصافية، هي الإله (رع) الذي كان اعظم الآلهة المصرية كإله للأحياء والذي أقام المصريون لعبادته أفخم معابدهم. ولم يكن الهرم إلّا رمزاً مقدساً له»[2].

وأما ما بذله المصريون في عمليات التحنيط فهو نتيجة طبيعية لاعتقادهم بالحياة الأبدية، فقد حاولوا الاحتفاظ بالجسد لترتاح الروح في الحياة الآخرة. . .«ولم يقف بهم الأمر عند بذل الجهد لإيواء وحماية الجسد بعد الموت بل بدأوا أيضاً في تحنيط تلك الاجساد وحفظها كموميات. وكانوا يهدفون من وراء ذلك أن يظل ذلك الجسد محنطاً محتفظاً بشكله في حجرة صغيرة عميقة داخل القبر تحت بناء عظيم من الحجر. وهذه العقيدة هي السبب الذي جعل كل حاكم من الحكام ينفق الموارد الطائلة على بناء قبر يكون مقراً لجسده ليأمن سلامته بعد

---

(١) سورة الأنعام: ٧٦-٧٩.

(٢) انصار الحضارة، جيمس هنري برستد، نقلهُ إلى العربية د.أحمد فخري، ص٩٤.

الموت. وحذا أقارب الملك والموظفون حذو سيدهم في الاستعداد للحياة بعد الموت. وكثيراً ما كانوا يرتبون الأوقاف للصرف منها على صيانة مقابرهم.»[1].

واعتقاد المصريين القدماء بالحياة الآخرة جعلهم يستعملون الطلاسم والعزائم وغيرها «ومن ثم تضاعفت الأخطار التي تكتنف الدار الآخرة، وكان في وسع الكاهن أن يمد الموتى في كل موقف من المواقف الخطرة برقى قوية تنقذه منه لا محالة. أو كان لديهم، فضلاً عن الرقى الكثيرة التي يستطيع بها الموتى أن يصلوا إلى الدار الآخرة، وفى أخرى تمنع الميت أن يفقد فمه أو رأسه أو قلبه، ورقى غيرها يستطيع بها أن يذكر اسمه، وأن يتنفس ويأكل ويشرب ويتّقي أكل فضلاته، ومنها ما تمنع الماء الذي يشربه ان يستحيل لهباً ومنها ما تحيل الظلام نوراً ومنها ما ترد عنه الأفاعي وغيرها من الأهوال المعادية، وما إلى ذلك»[2].

الاعتقاد بحساب الآخرة:

ورد عن إسكندر موريه في كتاب (تاريخ الشرق) أنه قال: «برزت لدى المصريين إحدى النقاط الأساسية التي شغلت فيما بعد الديانات الموحدة، ألا وهي قضية الحساب أو الدينونة فقد وضع الأغنياء على جثة ميتهم كتاباً دعوه (كتاب الموتى)، يستعين به على مواجهة الإله أوزريس. وبفضل ما يشتمل هذا الكتاب من عبارات، يستطيع الميت أن يُبرِّىء نفسه ويكسب الحياة الأبدية. ويردد ساعة الحساب: لم أعنف الفقراء ولم أجوّعهم. لم أسئ إلى معاملة الناس، ولم أُحمّل نفساً فوق طاقتها ولم أقتل. لم أسرق. لم أعذب. لم أعترض للحيوانات المقدسة. لم أُسئ إلى مليكي أو إلى أبي. لم أقسم بالباطل. لم أتلف زرعاً. لم ألوث مياهاً. لم

---

(١) المصدر السابق، ص٩٠.

(٢) قصة الحضارة، مج١، ج٢، ص١٦٦.

أغش في مسح الحقول. لم أنزع من عيار الموازين. بل أقمت على احترام الآلهة. فأنا طاهر، أنا طاهر...

وتمايل كفتا الميزان. وعلى أحدهما قلب الميت. وعلى الثانية تمثال (الحقيقة ـ العدل) (مَعاتْ) ومخافة أن يكذّب القلب صاحبه يردد الميت. . «يا قلب لا تقم شاهداً ضدي ولا ترجح الكف عليّ أمام سيد الميزان».

ويتحقق من وضعية الميزان (٤٢) قاضياً. كل منهم يمثل إحدى مقاطعات مصر فإذا توازنت كفتا الميزان. معنى ذلك ان المتوفى قد عاش بموجب القانون والعدالة فيصدر عليه الحكم التالي. .

«فليخرج (فلان) مُبرأ ؛ ليذهب حيث شاء بالقرب من الأرواح (والآلهة) وإذا رجحت كفة السيئات ابتلعه مسخ اسمه (الملتهمة). .»[1]
، ومن اعتقاداتهم أن أوزير هو الذي يحاسب ويعاقب، والمفروض أن يأتوه مبرئين من الذنوب والمعاصي لكي يعيشوا الحياة الآخرة سعداء، يذكر وِل ديورانت: «قد كان المصريون يعتقدون أن الجسم تسكنه صورة أخرى مصغرة منه تسمى القرينة ـ الكا ـ كما تسكنه أيضاً روح تقيم فيه إقامة الطائر الذي يرفرف بين الأشجار. وهذه الثلاثة مجتمعة ـ الجسم والقرينة والروح ـ تبقى بعد ظاهرة الموت، وكان في استطاعتها أن تنجو منه وقتاً يطول أو يقصر بقدر ما يحتفظون بالجسم سليماً من البلى، ولكنهم إذا جاءوا إلى أوزير مبرئين من جميع الذنوب سمح لهم أن يعيشوا مخلدين في (حقل الفيضان السعيد) أي في الحقائق السماوية حيث توجد الوفرة والأمن على الدوام»[2].

وجاء أيضاً عن اعتقادهم بحساب الآخرة على يد أوزير:

---

(١) الحضارات، لبيب عبد الساتر، ص٢٥.

(٢) قصة الحضارة، مج١، ج٢، ص١٢٦.

«وكان أوزير يحاسب الموتى ويزن قلب كل من يريد الركوب في كفة ميزان تقابله في الكفة الأخرى ريشة ليتأكد بذلك من صدق قوله. والذين لا ينجحون في هذا الاختبار في النهاية يحكم عليهم بأن يبقوا أبد الدهر في قبورهم يجوعون ويظمأون ويطعمون للتماسيح البشعة ولا يخرجون منها أبداً ليروا الشمس»[1].

واعتقادهم بالحساب والعقاب في الآخرة جعلتهم يتبعون بعض الخطط للتخلص من العقاب إذا بقوا في قبورهم، وكان هذا من اختصاص كهنتهم فهم يخلصونهم من خلال الطلاسم والعزائم التي تحبها آلهتهم؟ «وكان الكهنة يقولون إن ثمة طرقاً ماهرة لاجتياز هذه الاختبارات، وكانوا على استعداد لتعريف الناس بهذه الطرق نظير ثمن يؤدونه لهم. ومن هذه الطرق أن يهيأ القبر بما يحتاجه الميت لغذائه من الطعام والشراب، وبمن يستطيع الاستعانة بهم من الخدم. ومن تلك الطرق أيضاً أن يملأ القبر بالطلاسم التي تحبها الآلهة: من أسماك، ونسور، وأفاع وبما هو خير في هذه كلها هو الجعران ـ والجعران ضرب من الخنافس كانت في رأيهم رمزاً لبعث الروح لأنها تتولد كما كان يبدو لهم بعملية التلقيح»[2].

التوحيد في مصر:

ما من نقطة في الدنيا إلّا وأرسل الله تعالى لها الحجج والبراهين والآيات البينات الدالّة على وجود الله تعالى لكي لا يبقى للبشر ذريعة في عدم معرفتهم خالقهم واليوم الآخر والحساب والجزاء، ولكي تبقى قاعدة قبح العقاب بلا بيان سارية المفعول في دنيا الإنسان وآخرته.

ومصر بقعة من أرض الله تعالى الواسعة أرسل الله إليها عدة أنبياء

---

(١) قصة الحضارة، ج٢، ص١٦٣.

(٢) قصة الحضارة، ج٢، ١٦٣.

لهداية أهلها إلى طريق النور، فمنهم من كان مقيماً ومنهم من كان زائراً أو لاجئاً أو فاتحاً، إلا أن الهدف واحد هو هداية أهلها وزرع الإيمان في قلوبهم. فقد وطأها نوح وأولاده ثم صارت محل إقامة أحفاده من ابنه (حام) وسيأتي التفصيل لاحقاً.

ثم دخلها الخليل إبراهيم ﷺ ليخرج أهلها من الظلمات إلى النور وليدعوهم إلى الإله الواحد فقد غادرت قافلة الإيمان أرض كنعان في طريقها إلى مصر. يحملون معهم الهداية والسلام ودين الوحدانية لله، تحف بهم الملائكة، ويقود زمامهم خليل الله إبراهيم. كانوا نحوا أربعين شخصاً إلا قليلاً... امتطوا رواحلهم، وحملوا أمتعتهم على الإبل والحمير، واصطحبوا بعض أغنامهم... كان نبي الله إبراهيم يتقدمهم ويحيط به رجاله... تتبعهم هوادج النساء والأطفال. وخلفهم العبيد. يهشون على أغنام لهم، ربما كانت الطريق شاقة... لكن إبراهيم استطاع بحديثه العذب أن يهوّن عليهم ويشجعهم ويمنحهم الأمل في غد أكثر إشراقاً، وفي مناطق أكثر عمراناً وحضارة يجدون فيها مناخاً مناسباً لنشر دعوة الوحدانية)[1].

ولعل أهم حدث نبّه الملك في مصر إلى وحدانية الله، المعجزة التي وقعت لسارة حينما أراد الملك أن يمسها بسوء، فقد التصقت يداه بصدره وأمسكتا عن الحركة، كأنما شلّتا وأصابت عينيه غشاوة حجبت عن ناظريه كل ما حوله، فطلب منها أن تدعو إلهها ليخلصه، وتكررت الحالة ثلاث مرات حتى أحسَّ أن هناك قوّة تحميها، أخبرته أنها قوة الإيمان بالله الواحد الأحد. حتى التقى بإبراهيم ﷺ وسأله عن أمرها، وقال إبراهيم ﷺ: لقد حفظها الذي آمنت به وهو الله الواحد، هنالك أمر الملك بإكرام إبراهيم ﷺ وزوجه سارة ووهب لها هاجر لتخدمها، نظر الكهنة إلى الملك وقد ظهرت سُحب الشك على وجوههم... لعلهم

---

(١) انظر أنبياء عاشوا في مصر، ص٢٠.

أحسوا أن الملك قد آمن بإله إبراهيم. وإن صحت رواية إيمانه فالناس على دين ملوكهم. وهناك من رجح أن الآية الكريمة من سورة البقرة وقعت أحداثها في مصر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾[1].

والمعروف أن أحداثها وقعت في العراق والمحاجة كانت مع النمرود، إلّا أن هناك تشابهاً بين أفعال ملك العراق وملك مصر كادعائهم الربوبية والإحياء والإماتة والإيمان بألوهية الشمس، والاستكبار والطغيان وغيرها من الصفات المتماثلة والمعروف أن «الملك في مصر منذ أن بدأ الملكية فيها، كان إلهاً»[2] والمعروف أيضاً ايمانهم بتعدد الآلهة (وعلى رأس هذه الآلهة الكثيرة الإله (رع) إله الشمس فهو (أبو الآلهة) و(ملك البشر) أما سبب تبوء الشمس هذه المكانة المرموقة فلمزاياها الكثيرة فهي في حضور دائم تشرق يومياً... الخ»[3].

ولذلك حاججه إبراهيم ﷺ بالإحياء والإماتة والشمس وكشف ضعفه أمام الخالق تعالى.

ثم جاء دور يوسف ﷺ وبُعث في مصر نبياً بعد أن بلغ أشده ليدعو الناس إلى دين الله الحق وسيأتي التفصيل عن دعوته لاحقاً.

ثم دخلها يعقوب ﷺ مع بنيه في زمن يوسف ﷺ ليثبتوا قواعد الإيمان التي ركزها يوسف ﷺ.

وجاء دور موسى ﷺ ليُبعث فيهم رسولاً نبياً وقواه الله تعالى بأخيه هارون نبياً لأنه كان أفصح لساناً، وأخذ بالدعوة إلى توحيد الله.

---

(١) سورة البَقَرَة: ٢٥٨.

(٢) تاريخ الحضارات العام، ص٤٦ (الملك الإله).

(٣) الديانة الفرعونية، السير ولس بدج، ص١١٩.

أما لوط عليه السلام فقد كان دخوله مصر مع خليل الله إبراهيم عليه السلام وكان نبياً يدعو الناس إلى التوحيد والدين الحق.

وهكذا توالت دعوات التوحيد في مصر، وكانت مصر بلاد التوحيد قبل إخناتون.

توحيد إخناتون للإله

في عام (١٣٨٠ ـ ١٣٧٥ق.م) مات آمنحوتب الثالث الذي بلغت مصر في عصره أزهى عصورها الحضارية، وتربع على عرشه من بعده ابنه أمنحوتب الرابع المعروف بـ(إخناتون)، فكان أول من قاد في تاريخ مصر ـ بل الإمبراطورية المصرية في زمانه التي شملت سوريا وفلسطين وسيناء وغيرها من البلاد المجاورة في الجنوب والغرب ـ ثورة شملت كل جوانب الثقافة والحياة الروحية، وحارب الشرك وتعدد الآلهة وأفكار من سبقه من الفراعنة، وما كان «هدف إخناتون إلّا تمجيد ذاته، بل لقد ضحّى في سبيل دوافعه الروحية البحتة بامبراطورية عظيمة الأرجاء شيّدها أجداده، ولم يأبه للانقسام الذي هدَّ كيان مصر الاجتماعي. فلقد سيطرت في ذهنه فكرة واحدة مدارها أن الإله الحق قد اختاره للتبشير بوحدانيته»[١].

وقد ذكر وِل ديورانت في قصة الحضارة: «ومن مآسي التاريخ أن إخناتون بعد أن حقق حلمه العظيم حلم بالوحدانية العامة التي سمت بالبشرية إلى الدرجات العُلى، لم يترك ما في دينه الجديد من صفات نبيلة تسري في قلوب الناس ويستميلها إليه على مهل، بل عجز عن أن يفكر في الحقائق التي جاء بها تفكيراً يتناسب مع الواقع، لقد خال أن كل دين وكل عبادة عدا عقيدته وعبادته فحش وضلال لا يطاق. فأصدر أمره على حين غفلة بأن تمحى من جميع النقوش العامة أسماء الآلهة

---

(١) إخناتون رائد الثورة الثقافية، فؤاد محمد شبل، ص١٠.

كلها إلّا (آتون) وشوّه اسم أبيه بأن محا (كلمه آمون) من مئات الآثار، وحرّم كل دين غير دينه، وأمر أن تغلق جميع الهياكل القديمة، وغادر طيبة لأنها مدينة نجسة، وأنشأ له عاصمة جديدة جميلة في إخناتون (مدينة أفق أتون). . . .»[1].

إذن آتون هو إله إخناتون: «فالآتونية لم تكن مجرد نظرية طبيعية، لكنها كانت توحيداً أصيلاً، وإن العظمة الحقيقة لهذا المصلح العظيم تكمن في شجاعته الخلقية وفي جهاده حتى آخر لحظة من حياته ليزيح عن كل كاهل المجتمع المصري تلك النفايات الأسطورية التي تراكمت على عقله ووجدانه حتى أوشكت أن تطمس معالم تفكيره السليم»[2].

الجدير بالذكر أن الفراعنة ادّعوا أنهم (آلهة) وأن لكل شيء إله فللخير إله وللشر إله وللزرع إله وللهواء إله وللنيل إله و. . .الخ. أما إخناتون فقد جعل نفسهُ مخلوقاً للإله الواحد، أو نبياً للإله الذي خلق كل شيء وهو (أتون): «فإخناتون إذاً نبي للإله، ولم يدّع أنه الإله مثلما ادّعى الفراعنة من قبله ومن بعده ـ وكما ادّعى ذلك ملوك آخرون في بلاد أخرى وعصور مختلفة ـ أنهم آلهة أو أبناء آلهة»[3].

وآتون: يعني قرص الشمس، فإخناتون دعا إلى عبادة الطاقة الكامنة في الشمس التي هي مصدر النعم ومصدر الحياة: «لا تعني عبادة آتون مجرد عبادة الشمس. فإنه يقصد منها عبادة خواص الشمس التي تهب الحياة. . .»[4].

وقد ألف إخناتون قصائد حماسية في مدح أتون، أحسنها وأطولها في الأدب المصري القديم قصيدة التوحيد، نأخذ هذين المقطعين منها:

(١) قصة الحضارة، مصدر سابق، ص١٧٦.
(٢) إخناتون، مصدر سابق، ص٦٤.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق، ص٦٧.

ما أجمل مطلعك في أفق السماء!

أي آتون الحي، مبدأ الحياة،

فإذا ما أشرقت في الأفق الشرقي

ملأت الأرض كلها بجمالك.

والمقطع الآخر الذي يبين وحدانية الإله وانه يفعلُ ما يشاء:

أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه.

يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك

حين كنت وحيداً(١).

ولو أردنا الحديث عن إخناتون لطال بنا الكلام لأنه لم يحظ حاكم مصري ـ قديماً أو حديثاً ـ مثلما حظي به إخناتون هذا الملك المصري من عناية الباحثين فقد كتبوا كثيراً ونسبوا إليه الغث والسمين، فمنهم من رفعه إلى صف أصحاب الرسالات الدينية العظمى ومنهم من وصفهُ بالعبقرية الدينية الفذة وآخرون اتهموه بشتى التهم النكراء، ومنهم من وصفه عابداً للشمس وهكذا....

لكننا نتساءل: من أين أتت لإخناتون فكرة التوحيد، هل ابتدعها صدفة أم قلّد أحد معاصريه من حكّام الحضارات الأخرى أم ماذا؟

لا شك أن لدعوات الأنبياء للهداية في مصر دوراً مهماً في هذه الفكرة في بعض عقول المصريين القدامى، والفترة التي عاشها (إخناتون) ليست بعيدة عن زمن يوسف ﷺ وتقدر بنحو (٢٠٠ ـ ٣٠٠) سنة ومن قبله كان إبراهيم ﷺ لكن فكرة التوحيد تشوهت بعض الشيء حين دخلت عقل (إخناتون)...

فهو يؤمن بالإله الواحد الذي لا شريك له، ويؤمن بعدم ادراكه بالعين

---

(١) انظر قصة الحضارة، مج١، ج٢، ص١٦٩ ـ ١٧٥. القصيدة طويلة وجميلة.

المادية، بل يدركه من خلال ضوء الشمس وحرارتها ويعطي تلك الطاقة الخارقة صفة الخالقية والرحمة والمحبة و. . .الخ

لكنه حذف الحساب والعقاب والثواب في اليوم الآخر، المعتقد الذي كان متمكناً من عقول المصريين منذ أمدٍ بعيد، منذ أن ظهرت عبادة (آمون) (الإله رع) (أبو الآلهة) في الأسر الفرعونية الأولى في الدولة القديمة:

يقول فؤاد محمد شبل: «بيد أن خلو عقيدة إخناتون من فكرة الثواب والعقاب في حياة أخرى سبب جوهري ـ في رأينا ـ لعزوف الشعب المصري عن اعتناقها، فان الطبيعة المصرية توحي إلى المصري بالبعث»[1].

هل بعث الله أنبياء في مصر:

في كل زمان كان وفي كل مكان لم يترك الله تعالى أرضه دون حجة على ساكنها، ومصداقاً لذلك بعث الله الأنبياء يبشرون وينذرون ويهدون الناس إلى الصواب والخير، ومصر واحدة من أرض الله تعالى الواسعة لم يتركها تتخبط في ظلام دامس وأوهام قاتلة، لقد كانت تتلقفها يد الرحمة الإلهية واللطف الرباني بين الفينة والأخرى، فإبراهيم الخليل ولوط ويعقوب ويوسف وموسى وهارون (عليهم السلام جميعاً) كانوا يدعون للهداية ودين الحق ومعرفة الواحد الأحد الذي لا شريك له وقد أدّوا وظائفهم على أكمل وجه.

لكن السؤال المطروح هو: هل بعث الله في الحاميين والأقباط نبياً للمصريين يدعوهم إلى دين الحق؟ لم يذكر القرآن الكريم شيئاً من هذا القبيل، فالتسلسل النبوي في الظاهر (سامي) على ما يبدو. . . بيد أن هناك روايات وأحاديث نبوية عن الرسول محمد ﷺ تبين أن الله تعالى بعث من النبيين ما شاء الله. بل لكل قرية أو لكل اسرة في بعض الأحيان نبي لكي لا تخلو الأرض من حجة. . .

(١) إخناتون رائد الثورة الفكرية، ص ٦٥ ـ ٦٦.

قال النبي ﷺ: «خلق الله تعالى مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي، وأنا أكرمهم على الله ولا فخر، وخلق الله عز وجل مائة ألف وصي وأربعة وعشرين ألف وصي فعليٌّ أكرمهم على الله»[1].

وقد جاء في كتاب (أنبياء عاشوا في مصر) أن هناك أنبياء عاشوا فترة في مصر طالت أو قصرت. وهناك أنبياء مروا فيها وآخرون هربوا إليها وحين يفصّل يذكر أنهم من الساميين وجاءوا بعد نوح عليه السلام.

ويذكر أن نوحاً عليه السلام مرَّ بها لكنه لم يُبعث فيها. ولعل الله تعالى بعث فيها أنبياء محليين وليسوا عالميين بعثهم على مستوى قرية أو قبيلة أو أسرة وما إلى ذلك، لكن التاريخ لم يذكر لنا ذلك صراحة ولا الكتب السماوية.

حفيد نوح يملك مصر:

إن أحد أبناء حام بن نوح سكن مصر مهاجراً من أرض العراق هو وأسرته وأولاده الأربعة ويبدو أن التاريخ لم يذكر لنا إن كان نبياً أو ولياً أو وصياً أو حتى أحد من أولاده الأربعة... والظاهر أن ابنه كوّن امبراطورية عظمى سمّاها باسمه (مصر): قال المسعودي: «وقد ذكر جماعة من الشرعيين أن بيصر بن حام بن نوح لما انفصل عن أرض بابل بولده وكثير من أهل بيته غرَّب نحو مصر، وكان له أربعة أولاد: (مصر بن بيصر، وفارق، وماح، وياح) فنزل بموضع يقال له منف، وبذلك يسمى إلى وقتنا هذا، وكان عددهم ثلاثين فسميت ثلاثين بهم،.... وكان (بيصر بن حام) قد كبر سنهُ، فأوصى إلى الأكبر من ولده، وهو مصر، واجتمع الناس إليه وانضافوا إلى جماعتهم، وأخصبت البلاد، فتملك عليهم (مصر بن بيصر)، وملك من حد رفح من أرض فلسطين من بلاد الشام، وقيل: من العريش، وقيل من الموضع المعروف

---

(1) سعد السعود، لابن طاوس، ص٣٥، ط١، الحيدرية. ومناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب، ج٣، ص٤٧، دار الأضواء - بيروت. وشرح الزيارة الجامعة، عبد الله شبر، ص١٠١، ط١.

بالشجرة، وهو آخر أرض مصر والفرق بينها وبين الشام وهو الموضع المشهور بين العريش ورفح ـ إلى بلاد أسوان من أرض الصعيد طولاً، ومن أيلة ـ وهو تخوم الحجاز إلى برقة عرضاً، وكان لمصر أولاد أربعة، وهم (قبط، وأشمون، وإتريب، وصا) فقسم مصر بين أولاده الأربعة أرباعاً وعهد إلى الأكبر من ولده ـ وهو قبط ـ وأقباط مصر يضافون في النسب إلى أبيهم ـ وهو (قبط بن مصر)، وأضيفت المواضع إلى ساكنيها، وعرفت بأسمائهم، فمنها أشمون وقبط، وصا، وإتريب، وهذه أسماء هذه المواضع إلى هذه الغاية، واختلطت الأنساب، وكثر ولد قبط، وهم الأقباط، فغلبوا على سائر الأرض، ودخل غيرهم في أنسابهم، لما ذكرنا من الكثرة، فقيل لكل قبط مصر وكل فريق منهم يعرف نسبه واتصاله بمصر بن بيصر بن حام بن نوح إلى هذه الغاية»[1].

كان هذا في التاريخ القديم لمصر قبل الأسر الفرعونية، والسبب في تسمية أرض مصر بهذا الاسم (مصر) هو (مصر بن بيصر) بن حام حفيد النبي نوح عليه السلام.

سر بناء الأهرام:

لبناء الأهرام سرٌّ عقائدي حملته عقول المصريين قبل تاريخ الأسر الفرعونية بأمد بعيد، وما الأهرامات إلّا قبور الملوك والامثل فالامثل من حيث الحجم والسعة وفن العمارة وغيرها..

وقد «بذل المصريون كثيراً من مالهم ووقتهم ومهارتهم وجهودهم في بناء مقابرهم وتأثيثها، وذلك لعقائد خاصة بالحياة بعد الموت، إذ اعتادوا على دفن موتاهم قبل أن يكون لهم ملوك أو مملكة بآلاف السنين، ومع هؤلاء الموتى وضعوا الأدوات التي كانوا يستعملونها أثناء الحياة حتى في الوقت الذي كان يعيش فيه سكان وادي النيل كصيادين بدائيين.

(١) مروج الذهب، المسعودي، ج١، ص٣٧٣.

ودفنوا موتاهم ومعهم أسلحتهم وأوان فيها المآكل والمشارب، فلما تقدم الزمن وصار لهم ملوك وحضارة زاد ما كانوا يدفنونه مع موتاهم، وبنوا المقابر الضخمة ووضعوا فيها الأثاث الجنائزي الكثير. وبالرغم من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموتى سيحيون حياة أخرى في مكان بعيد عن القبر وبعيد عن الجسد الموسد فيه فإنهم لم يستطيعوا يوماً من الأيام أن يفصلوا فصلاً تاماً بين الجسد الذي في القبر وبين تلك الحياة الأخرى، ولم يتصوروا الخلود للموتى دون أن يكون للجسد نصيب فيه، ولهذا كانوا يحرصون على سلامته وكانوا يتفننون في المحافظة عليه حتى وصل بهم الأمر إلى إقامة تلك المقابر العظيمة المبنية بالحجر...)[1].

وحرص المصريون في ذلك العهد على أن يبنوا لكل مقبرة هيكلاً يقيمونه فوق سطح الأرض بينما يدفنون الميت تحتها، وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن روح صاحب القبر تخرج من حجرة الدفن لتزور الهيكل، ولهذا كان أقارب الميت يتركون المآكل والمشروبات في الهيكل ويضعونها على مائدة في الحجرة لتجدها الروح، وكانوا يحرصون أيضاً على أن ترى الروح حولها على رؤيته أثناء الحياة، ولذلك اهتموا بنفس مناظر الحياة اليومية على جدران الهيكل من السقف إلى الأرض وتفننوا في اتقان رسمها وتلوينها، وهي توضح لنا نوع الحياة التي عاشوها.

إذن حقيقة الأهرامات هي من صميم عقيدتهم الراسخة بحياة أبدية وأن الميت سيقوم بعدها ويعيش حياته الثانية، فلذلك تفننوا في بناء قبورهم واهتموا بها أكثر من بيوتهم لعلمهم أن الحياة الدنيا فانية وقصيرة والحياة الآخرة أبدية خالدة وعلى هذا يجب أن يعمروها ويزينوها ويأخذوا كل ما جمعوا في الدنيا إلى آخرتهم الأبدية التي سيقضونها في قبورهم.

(١) انتصار الحضارة، مصدر سابق، ص٩١.

لقد اهتموا ببناء الأهرامات بشكل ملفت للنظر، فالاغنياء والملوك والأمراء حاولوا بذل كل ما بوسعهم لتشييد أضخم وأفخم الصخور والمواد لبناء أهراماتهم وبذل الأموال الطائلة لتزيين البناء الداخلي للهرم، فاهتموا بالنقوش والزخارف والهياكل والتماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمرصعة بالأحجار الكريمة ليزينوا بها قبورهم وليسعدوا في حياتهم الثانية «وقد سعى الأفراد دائماً في نطاق ثروتهم، ولو متأخرين، إلى تقليد العادات الملكية، معتمدين الهرم وحده أو الهرم والمصطبة معاً، وحافرين الخلايا في الأسوار الصخرية الغربية في مناطق أبيدوس وطيبة. أما الفقراء فلا غرابة في أن يكتفوا دائماً بالحفر الوضعية أو أن ينتهزوا ظروف الفوضى والإهمال وانقراض السلالات كي يملأوا بمومياءاتهم القبور المحفورة لسواهم من الأموات»[1].

ومن زار الأهرامات ونظر اليها نظرة تأمل من خارجها ثم دخلها وتجول في مطباتها ورأى ما ذخره أصحابها لحياتهم الثانية لقال كما قال وِل ديورانت: «ألا ما أعظم ما كان يتمتع به أولئك المصريون الأقدمون من ثراء. وما أقوى سلطانهم وأعظم حذقهم في طفولة التاريخ نفسهُ. لقد استطاعوا بثرائهم وقوتهم وحذقهم أن ينقلوا هذه الحجارة الضخمة ستمائة ميل أو أكثر وأن يرفعوها وهي تزن عدة أطنان إلى علو خمسمائة قدم، وأن يطعموا المائة ألف من العمال الذين ظلوا يكدحون عشرين عاماً كاملة في تشييد هذه الأهرام إذا لم يكونوا قد أدّوا لهم أجورهم على عملهم هذا وقد احتفظ لنا هيرودوت بنقش وجده على هرم منها يسجل مقدار ما استهلكه العمال الذين شاهدوه من فجل وثوم وبصل وعدس. كأن هذه أيضاً أشياء لابد لها أن تخلد»[2].

أما عناصر هذه المقابر الهرمية الشكل، فقد ورد أن «عناصر المدفن

(١) تاريخ الحضارات العام، مج١، ص١٢١.

(٢) قصة الحضارة ، مج١، ص٥١.

الأساسية تبرز بكل وضوح في الأبنية المدفنية الأولى التي خلفت، في عهد الإمبراطورية القديمة، الحفر العادية. فالقبر نفسه محفور على بعض العمق في الأرض، ينزل إليه الناووس في بئر مستقيمة الزوايا. وبعد الدفن، تؤخذ الاحتياطات القمينة بالمحافظة على سلامة القبر أثناء ردم البئر. وترتفع فوق الأرض اكمة صغيرة ما لبثت أن أصبحت نجفاً من الآجر من الحجر المنحوت وعرفت، بسبب شكلها العام، بالمصطلح العربي (مصطبة)، يدخل من جهتها الشرقية إلى غرفة أولى هي مكان عبادة الميت، يتوسطها فوق الناووس، منضدة التقادم إلى جانب نصب مدفني. وتقوم وراء هذا النصب غرفة أخرى في المصطبة نفسها وهي (الممر) أو السرداب الذي يضعون تماثيل الميت فيه، فالنصب اذن حدّ فاصل بين عالمين: عالم الأحياء، وعالم الاموات، لا يتصل أحدهما بالآخر سوى بواسطة فرجة ضيقة لا يتجاوز علوها طول الإنسان. وينحت هذا النصب بحيث يرمز إلى باب ـ لذلك دعي (باباً مُضلاً) ـ كما ينقش أحياناً في إطاره تمثال يرمز إلى الميت العائد إلى عالم الأحياء. وقد يطل أحياناً، من كوة فوق مصراعي الباب، تمثال نصفي يرمز إلى الميت مترقباً زائريه»[١].

إذن كل هرم يحتوي على ثلاثة أقسام «قبر ومستودع تماثيل ومعبد، هذه هي الأقسام الثلاثة الرئيسية في المدفن. وقد أضيفت إليها، في (مصاطب) الأغنياء، غرف أخرى تقل أو تكثر وفاء لمكانة الميت. ومن الطبيعي أن يصبح عددها كبيراً في المدافن الملكية»[٢].

سر تحنيط الموتى:

والتحنيط عند المصريين القدامى لم يأت اعتباطاً، وإنما جاء بدافع إيمانهم بالخلود والحياة المستمرة بعد الموت، الذي شغل تفكيرهم، لإيمانهم بأن الموت ليس هو النهاية ولكنه بداية لعالم آخر أفضل

(١) تاريخ الحضارات العام، مج١، ص١١٨.
(٢) المصدر السابق، ص١١٩.

وأبقى.. ولهذا كان همهم الوحيد هو كيفية المحافظة على الجسد بعد خروج الروح وانتهاء الحركة فيه وتوقف القلب، ولهذا برعوا في فن التحنيط الذي فشل العلم القديم والحديث في اكتشاف أسراره وفك طلاسمه: «فقد كانوا يعتقدون بأن (زيس) إله الشر قتل أخاه (أوزيريس) إله الخير وقطّع جثته قطعاً، رماها في نهر النيل فجاءت (ايزيس) زوجته وخادمة الآلهة وغاصت في مياه النيل وقامت بتجميع قطع جثته، فعادت إليه الحياة ولم يعد يعرف الموت بعد ذلك...ومن هنا اعتبروا الموت مجرد رحلة عبور لوصولهم إلى الخلود الأبدي»[١].

وقد تقلب فن التحنيط بين مراحل متعددة ليصل أدق ما يكون النجاح في علم من العلوم، ويبدو أن سر التحنيط مات مع الفراعنة دون أن يطّلع على سره أحد غيرهم إلى يومنا هذا. يقول د. أحمد شفيق استاذ ورئيس قسم الجراحة بجامعة القاهرة: «إيمان المصريين بالبعث جعلهم يتقدمون جداً في علم التحنيط ويرجع ذلك إلى إباحة التشريح الذي ساعد بدوره الطب المصري في معرفة حقائق التكوين الجسماني، والدورة الدموية ونبض القلب، وقد ساعد ذلك بدوره في تقدم فنون الصيدلة والتداوي واستخدام العقاقير التي تستخلص في الغالب من النباتات والأعشاب... ولم يبدأ المصريون في تحنيط الموتى إلّا بعد أن جرّبوا التحنيط في الحيوان والنباتات وقد وجد بالفعل في بعض الأهرامات حبوب قمح لا تزال في حالة جيدة»[٢].

ثم يضيف د. أحمد شفيق: «اتخذ القائمون على التحنيط داراً

---

(١) انظر قصة الحضارة، ص١٥٩ ـ ١٦٧، مصدر سابق، وانتصار الحضارة، جيمس هنري برستر، ترجمة د. أحمد فخري، ص٩٤، واستطلاع سليمان مظهر في مجلة العربي، ص١٤٢ ـ ١٤٣. وتحقيق أمل عريان فؤاد، جريدة الأيام العدد(٢٥٤٥٠) عام ١٩٩٦ق القصة المكتوبة على باب معبد (اوزيريس) نقلتها أغلب الكتب المعنية بالموضوع وهنا اختصرنا تفصيلها في كتابنا (الحج عبر الحضارات والأمم).

(٢) سر التحنيط هل مات مع الفراعنة، مقال، جريدة الأيام، العدد (٢٥٤٥٠) عام ١٩٩٢م.

مخصوصة تسمى بيت التطهير ولوحاً مخصوصاً توضع عليه الجثة... حيث تبدأ العملية بنزع المخ واخراجه بآلة دقيقة من فتحتي الأنف ثم شق الجانب الأيسر من البطن وتستخرج من خلاله جميع الأحشاء.... ويتم تطهير تجويف البطن بنبيذ الخل والبهارات ويحشّى بلفائف من كتّان يحتوي على مسحوق النطرون، ومواد صمغية معطرة... تعجّل من تجفيف الأنسجة وتساعد في إزالة رائحة التعفن طوال فترة التجفيف، وتدوم مدة التجفيف أربعين يوماً وهي مدة الحزن التي ظلت قائمة حتى الآن»[1].

ومع كل التقدم العلمي والفكري الذي عاشته الحضارة المصرية إلّا أن هناك مظهراً مهماً جداً اتسمت به هذه الحضارة وهو السحر والشعوذة، وانتشار السحرة في أرجاء مصر القديمة، ولعلَّ المعاجز التي جاء بها موسى عليه السلام كالعصى واليد والآيات التسع وغيرها، جاءت لتبين للمصريين أن هناك قوة أقوى وأبلغ من قوة السحر والشعوذة التي يعرفونها ويمارسونها وأنّ حجتهم واهية تجاه تلك القوة.

وقد قال وِل ديورانت في قصة الحضارة: «وكانت الآلهة نفسها تستخدم السحر والرقى ليؤذي بعضها بعضاً. وأدب مصر القديم نفسه يفيض بذكر السحرة ـ السحرة الذين يجففون البحيرات بكلمة ينطقون بها، أو يجعلون الأطراف المقطوعة تقفز إلى أماكنها، أو يحيون الموتى ـ وكان للملك سحرة يعينونهُ ويرشدونهُ. وكان الاعتقاد السائد أن له هو نفسهُ قوة سحرية يُنْزل بها المطر، أو يرفع بها الماء في النهر»[2].

وقال أيضاً «وكانت الحياة مملوءة بالطلاسم والعزائم، والرجم بالغيب، وكان لابد لكل باب من إله يخيف الأرواح الخبيثة، أو يطرد ما عساه يقترب منه من أسباب الشؤم، وكانوا يعتقدون اعتقاداً ثابتاً أن الاطفال الذين يولدون في اليوم الثالث والعشرين من شهر (توت)

---

(١) المصدر السابق نفسه، سر التحنيط، مقال جريدة الأيام.

(٢) قصة الحضارة، ج٢، ص١٦٦.

سيموتون لا محال وهم صغار، وأن الذي يولدون في اليوم العشرين من شهر باغ سيفقدون أبصارهم في مستقبل أيامهم، ويقول هيرودوت إن كل يوم وكل شهر وكل سنة مخصص لإله من الآلهة»[1].

الاعتداد بالنفس والعزلة الحضارية:

عُرف المصريون القُدامى ـ زمن الأسر الفرعونية ـ في أغلب أدوار دولهم سواء القديمة أو الوسطى أو الحديثة، عرفوا بالاعتداد بالنفس والعزلة الحضارية، فقد سجلت بردياتهم وجدرانهم ما افتخروا به، وسجلت أيضاً عزلة حضارتهم عن الحضارات المعاصرة لهم كحضارة وادي الرافدين مثلاً التي تفوقت عليهم بالفلك والتنجيم وظلوا هم أقل مستوى مما حقق العلماء في حضارة وادي الرافدين من تطور في المجالين المذكورين. . . فكان كبرياؤهم لا يسمح لهم بالتعلم من غيرهم فانغلقوا على أنفسهم اعتزازاً وفخراً بما حققوهُ من تطور وتقدم في مجالات لم يَرقَ لها الآخرون.

وقد جاء في تاريخ الحضارات العام: «ألا يجوز لنا الجد في كشف أسرار سيكولوجية الشعوب؟ وهل يجوز لنا، على الأقل، أن نعتقد بأن هذه الوقائع تفسر جزئياً تلك المشاعر التي أشار الاغريق إليها عند المصريين وتثبتها أدلة كاشفة كثيرة في مراحل التاريخ القديم: تمسكهم المستميت بالتقاليد القومية وفخارهم الفطري بصفات حضارتهم ورسوخها في القِدم وشعورهم بتفوقهم الأدبي والديني على الشعوب الأخرى ومقاومتهم كل اندماج بالغير واحتقارهم الأجنبي حتى وكراهيتهم له. فيمكننا دون تهوّر ودون عناء إثبات حقيقة التبادل بين فعل وتفاعل الأحداث والمشاعر في هذين النطاقين»[2].

---

(١) قصة الحضارة، ج٢، ص١٦٦.

(٢) تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص٧٢.

فيبدو والحالة هذه أن مصر القديمة نزعت إلى العيش بنفسها ولنفسها خاضعة في ذلك لمثل أعلى في الاستقلال الاقتصادي. . . عاشت مصر داخل اطار مقفل، كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. . .

فالحضارة المصرية عُرفت قديماً بانكماشها البالغ على نفسها وحتى اتصالها بالأجنبي كان أما من أجل الاستعمار وتوسع الإمبراطورية نفسها وضم الأقاليم إليها أو الدفاع عن نفسها في حالة شن عدوان عليها.

الفصل الأول

إبراهيم الخليل (ع) والحضارة المصرية

١ ـ إبراهيم (ع) والعبرانيون
٢ ـ رحلته (ع) إلى أور الكلدانية
٣ ـ رحلته إلى حاران
٤ ـ رحلته إلى أور سالم (فلسطين)
٥ ـ رحلته إلى مصر الفرعونية
٦ ـ ظروف مصر زمن إبراهيم (ع)
٧ ـ مغادرة النبي إبراهيم (ع) مصر
٨ ـ علاقة إبراهيم (ع) باليهود
٩ ـ علاقته (ع) ببني إسرائيل
١٠ ـ إبراهيم (ع) يدعو للتوحيد في مصر

إبراهيم الخليل (ع) والحضارة المصرية

الغرض من الدخول في تفاصيل حياة خليل الله النبي إبراهيم ﷺ: هو تفنيد مزاعم اليهود أنه منهم وأنهم منه أولاً، وبالتالي دوره في نشر كلمة التوحيد في مصر الفرعونية التي كانت تؤمن بفكرة تعدد الآلهة البعيدة عن فكرة الله الواحد الأحد ثانياً، ثم الحديث عن مدى علاقته بالعبرانيين واليهود والإسرائيليين، والقاسم المشترك بين هذه المصطلحات والاتجاهات، وهل القاسم بينهم ديني أم سياسي أم عقائدي وضعي أم ماذا؟!

ذكرت التوراة بعض التفاصيل عن حياة إبراهيم ﷺ ولا يمكن الاعتماد عليها، لأن مدوّنيها اعتمدوا على ما سمعوا من الحكايات دون دقة ولا مراعاة للأزمان والأعمار والأحداث، فأدخلوا فيها الغث والسمين، الخطأ والصواب، وحذفوا بعض الأحداث والمهمات وزادوا عليها حسب ما اقتضت الحاجة السياسية والاجتماعية والاعتقادية وما إلى ذلك، في وقت كانوا مستعمرين ومضطهدين من قبل الملك البابلي (نبوخذ نصر) وأعوانه...

والقرآن الكريم في سرده لقصة إبراهيم الخليل ﷺ لا يقدم سوى لمحات واشارات لأنه ليس كتاب تاريخ دنيوياً متخصصاً، انه دستور لحياة الإنسان، وحتى ذكره لقصص الأنبياء لا يقصُد بها سوى جانب الهداية والعبر والدروس.

لا يبقى لدينا سوى علم الآثار وما وفرته التنقيبات الحديثة من آثار

الاولين، والمعلومات التي وفرتها الآثار والتنقيبات لا تسعف الكاتب في الوصول إلى معرفة الحقيقة، لأنها محدودة أيضاً، ولعل العلم في المستقبل يكشف لنا الحقيقة يوماً ما...

وسنحاول هنا جهد الامكان وضع النقاط على الحروف حسبما توفر لنا المصادر والمراجع المتاحة...

إبراهيم (ع) والعبرانيون:

هو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن اوفكشاد بن سام بن نوح عليه السلام، هذا هو نسبه حسب ما ذكرته التوراة، والمؤرخون مصدرهم التوراة في نسب إبراهيم خليل الله عليه السلام لا غير..

لقد توصل علماء الآثار في أحدث بحوثهم إلى أن إبراهيم الخليل عليه السلام ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي قبل حوالى أربعة آلاف عام في بلاد الرافدين وعاش في زمن النمرود، الملك الذي دفعته أحلامه المزعجة إلى مراقبة الحوامل وقتل الذكور من المواليد.

وزار عُملاؤه والدة إبراهيم عليه السلام ليكشفوا ما في بطنها قبل أن يأتيها المخاض، وجسّوا جانبها الأيمن، فاختفى الجنين في الجانب الأيسر، وجسّوا الأيسر، فاختفى في الجانب الأيمن، فانصرفوا دون أن يظفروا بما ستلد، الأمر الذي اضطر أم إبراهيم عليه السلام أن تلجأ إلى كهفٍ بالقرب من (كوثا) ـ وكوثا: مدينة في العراق بالقرب من مدينة بابل الحالية، وكانت مركزاً للساميين ـ وهناك رأى إبراهيم الخليل نور الحياة للمرة الأولى.

ولما بلغ رشده ـ كما ورد في القرآن الكريم في محاورته لأبيه وقومه من عبدة الأوثان، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟

﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٦﴾[(١)].

ثم صمم إبراهيم عليه السلام على تحطيم أصنامهم وأقسم بالله على ذلك ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾[(٢)].

وكانت هذه القضية سبباً لمحاكمته العلنية أمام الأشهاد، وانتصر إبراهيم عليه السلام من خلال محاججته المنطقية والموضوعية: ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾[(٣)].

وبهذا فشل القوم مع إبراهيم عليه السلام وزادتهم العزة بالإثم عناداً وعداءً لإبراهيم عليه السلام، وأصرّوا على التخلص منه: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾[(٤)].

والجدير بالذكر أن «عشيرة إبراهيم الخليل عليه السلام كانت تسكن في منطقة (كوثا) التي كانت تعتبر مركزاً مهماً للساميين في العراق منذ أقدم العصور بعد أن هاجروا من الجزيرة العربية وأخذوا يؤسسون مستوطناتهم على ضفاف الفرات في سورية وفي العراق»[(٥)].

---

(١) سورة الأنبياء: ٥١-٥٦.
(٢) سورة الأنبياء: ٥٧-٦٠.
(٣) سورة الأنبياء: ٦١-٦٥.
(٤) سورة الأنبياء: ٦٨-٧١.
(٥) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، ص٢٥٢.

وحسب رواية التوراة فإن إبراهيم الخليل ﷺ ينتمي إلى القبائل الآرامية: «فاستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض أن لا تأخذ بني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم، بل إلى أرضي وعشيرتي ـ القبائل الآرامية ـ تذهب وتأخذ زوجة لابني إسحاق»[1]. والقبائل الآرامية: قبائل عربية نزحت من وطنها الأصلي في جزيرة العرب واستقرت على ضفاف الفرات في شمال سورية، ثم نزل بعض أسرها إلى العراق ومن جملتهم أسرة إبراهيم الخليل وإذا أخذنا بما توصل إليه العلماء حول تعيين تاريخ هجرة الآراميين فتكون اسرة إبراهيم الخليل قد جاءت إلى منطقة بابل في حوالى أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. وهكذا يمكن القول إن إبراهيم الخليل كان عراقياً بالولادة عربياً في قوميته التي ترجع إلى وطنه الأصلي الجزيرة العربية»[2].

أما ادّعاء اليهود أنه عبريٌّ وأنهم عبريّون لعله من مقتضيات أحلامهم أن يرجعوا نسبهم إلى أعظم شخصية دينية تاريخية لكن الحقيقة غير ذلك.

«لذلك فإن نعت إبراهيم الخليل بـ(العبراني) كما ورد في التوراة إنما أريد به معنى العبريين (العبيرو) وهم القبائل البدوية العربية، ومنها القبائل الآرامية العربية التي ينتمي إليها إبراهيم الخليل نفسه، وبهذا المعنى وردت كلمة (عبري) و(عبيرو) و(خبيرو) في الكتابات القديمة التي اكتشفت مؤخراً»[3].

فالقبائل البدوية تعبر المدن والصحارى والأنهر حينما يحصل الجفاف في المناطق التي يختارونها لسكانهم، فكلمة (عبري) أصلها (عبر) أي قطع مسافة. وسيتوضح المعنى بالتفصيل في الفصل القادم.

بينما المصطلح الذي أطلقه اليهود على إبراهيم ﷺ وعلى الأنبياء من

(١) سفر التكوين، الاصحاح ٢٤، العدد ٣-٤.
(٢) العرب واليهود في التاريخ، مصدر سابق، ص٢٥٢.
(٣) المصدر السابق، المقدمة.

بني إسرائيل من بعده وعلى أنفسهم بالخصوص، أريد به الهوية اليهودية والمرجع القومي والعقيدي والفكري..

فإبراهيم عليه السلام خليل الرحمن عبري بحكم الوضع الاجتماعي المعاش في القبائل البدوية التي ينتمي إليها والتي استمر على منوالها بحكم الظروف السياسية والعقائدية التي أحاطت به والظروف الاقتصادية كذلك، فكان كثير الهجرة والترحل من مكان إلى آخر للاسباب نفسها، ولسبب آخر مهم جداً وهو نشر التوحيد في أرض الله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

ولكن هل اليهود ينتمون اليه كعبرانين بالاسم؟

الجواب هو ما صرح به اللورد (موين) المعتمد البريطاني في القاهرة، في جلسة لمجلس اللوردات في ٩يونيو/حزيران عام ١٩٤٢م: حيث قال «إن اليهود المعاصرين لا ينحدرون من نسل العبرانيين القدامى، وليس لهم أي حق مشروع في الأراضي المقدسة. كما كان (موين) من المطالبين بالحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ولهذا اتُهم بأنه عدو حاقد للاستقلال العبري»[2].

أي إن هناك حداً فاصلاً بين إبراهيم الخليل عليه السلام العبراني وبين اليهود العبرانيين.

فاليهود العبرانيون سجّلوا تاريخهم في التوراة ونسبوا أنفسهم بدون أي دليل علمي وواقعي إلى إبراهيم عليه السلام فقالوا إنه عبري وانهم عبريّون، ثم أكّدوا انه إسرائيلي وأنهم إسرائيليون، وثالثة زعموا أنه يهودي وانهم يهود، وذلك لأغراض سياسية واستعمارية توسعية، وكذلك لأغراض

---

(١) سورة العَنكبوت: ٢٦.

(٢) الاساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، روجيه غارودي، ص٢٣١.

عرقية تعصبية لجعل أنفسهم (الشعب المختار) المفضل عند الله من بين شعوب العرقيات الأخرى.

ومما لا شك فيه أن نبوّة إبراهيم الخليل أبو الأنبياء، قد انتشرت في الآفاق حتى خلد اسمه في جميع البقاع التي هاجر اليها أو مرّ بها فمزاراتُه اليوم في العراق وسوريا وتركيا والأردن ومصر وسيناء والسعودية وغيرها من البلدان، فالذي ينتمي لهذه الشخصية العظيمة سيكتسب عظمة ورفعة، فصنعوا لأنفسهم من هذا الانتماء وهذه التسميات (جنساً مميزاً).

إذن علاقة إبراهيم الخليل ﷺ بالعبريين اليهود لا أصل لها سوى أنه عبري بالترحال والتجوال، وقيل إنه عبري لانتسابه إلى (عابر بن شالح). هذا كل ما في الأمر.. واليهود صنعوا لأنفسهم هويات وهمية «وتاريخ الهويات اليهودية طويل ومركب ويغطي عدة أزمنة لا يربطها رابط في كثير من الأحيان. وأولى الهويات هو ما نسميه (الهوية العبرانية) أي هوية العبرانيين قبل أن يتم تهجيرهم إلى آشور بابل. وكانت الهوية العبرانية تستند إلى تعريف ديني قومي»[1].

رحلته (ع) إلى أور الكلدانية:

ولد إبراهيم الخليل ﷺ على قولٍ في مدينة (كوثا) التي كانت بالقرب من مدينة بابل الحالية حيث كانت اسرته وعشيرته إلى حين تنفيذ جريمة الإعدام في حقهِ حرقاً بالنار وانقلابها من (الله تعالى) برداً وسلاماً عليه. ولم تمسه بل نجّاه ربه منها، وتبرأ إبراهيم ﷺ من المشركين عبدة الأوثان، نمرود وقومه، بل من أبيه الرجل الذي ربّاه لأن إبراهيم ولد يتيماً وتزوجت أمه من عمه أو من شخص آخر كما قيل ـ وآمنت بإبراهيم ثلة قليلة جداً، قرّر الرحيل بهم وزوجه ولوط وزوجه إلى (اور)، لينطلق منها إلى خارج بلاد الرافدين فارين بدينهم آملين أرضاً اخصب من أرض

---

(١) من هو اليهودي؟!، د. عبد الوهاب المسيري، ص١٩.

الرافدين، بعد أن أدرك إبراهيم ﷺ أنه وضع بذور دعوته في أرض مقفرة لا تنبت.

وهناك روايات أخرى عن مكان مولده ومنطلق هجرته، ويتفق المؤرخون على أن مولد إبراهيم الخليل كان في العراق، إلا أن الروايات اختلفت في تعيين مكان ولادته من العراق بالضبط، فبعضهم ذكر أن مولده في أور الكلدانية، والبعض الآخر قال في بلدة (أوروك) (الوركاء)، وفي نقول أخرى أن مدينة (كوثا) كانت مسقط رأسه وبها ألقي في النار، وأطلال مدينة كوثا ما زالت حتى يومنا هذا تسمى (تل إبراهيم) وإلى جانب التل مزار يعرف بمقام إبراهيم[1].

وهناك قول آخر حول مولد إبراهيم ﷺ، يقول ابن بطوطة: إن مولده كان في البرس (برس نمرود)، وقد ورد ذكر محاولة النمرود لحرق إبراهيم هناك. وفي البرس تل مرتفع يقوم عليه اليوم مزار حديث يعزى إلى كونه مقام إبراهيم الخليل أو قبره[2].

بينما نجد د. أحمد سوسة يقول: «إلّا أن أكثرية المراجع الإسلامية تؤكد ولادته في كوثا»[3].

إذن من المكان الذي بيتوا له نية التخلص منه بعد أن أدهشهم ما رأوا من عدم مساس النار لإبراهيم ﷺ، أوحى الله إلى خليله أن يهاجر إلى أرضٍ، عله يجد فيها متسعاً لنشر دعوته، فإن كان مكانه (كوثا) فقد هاجر إلى أور الكلدانية ولم تعد به طاقة على احتمال ضلال قومه وغيّهم وانصرافهم عنه وإيذاء من آمن به.

ثم انطلق من أور مهاجراً إلى حاران أو حرّان، وهنا تذكر التوراة أن

---

(١) انظر العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٥١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

(تارح) أبو إبراهيم هو الذي حملهم على السفر أو خرج معهم في سفرهم: «وأخذ تارح ابرام ابنه ولوطاً ابن هاران ابن ابنه وساراي كنته امرأة ابرام ابنه. فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان. فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك»[1].

بينما النصوص القرآنية توحي إلى أن إبراهيم عليه السلام قد تبرأ من أبيه بعد أن تأكد من كفره وعدم ايمانه قبل سفره وقد طلب الأب من إبراهيم أن يهاجر إن لم يترك دعوته: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾[2] وآية أخرى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[3].

بينما نجد أغلب المؤرخين يؤكدون سفر (آزر) مع إبراهيم مع عدم ايمانه به «ولازمهم آزر أبو إبراهيم... لم يكن آزر قد آمن بدعوة ابنه، لكنه أراد الفرار من كراهية القوم الذين كانوا يلاحقونه.. ينظرون إليه نظرات السخرية والاستهزاء كسياط تلهب جسده.. تدمي مشاعره...»[4].

وبعد وصولهم حاران وجدوا معبداً فيه آلهة (كآلهتهم)، افتقد إبراهيم عليه السلام أباه لكنه (شعر بالحزن)، حين رأى أباه آزر وسط هذا الحشد... يناشد الآلهة ويقدسها، كأنما وجد فيما يفعله حنيناً إلى آلهته، ووفاءً لها، كان آزر قد وعد إبراهيم عليه السلام أن يؤمن بإلهه.. لكنه اخلف وعده.. ما زال مصرّاً على فكره، وما يملك إبراهيم عليه السلام وهو في حزنه إلّا أن يكف عن الاستغفار لأبيه ويتبرأ مما يفعل. أي إنه تبرأ منه في حاران «فما مضى غير قليل، حتى مات آزر، فدفنه ابنه في حاران... حزيناً من أجله»[5].

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ١١، العدد ٣١.
(٢) سورة مَريَم: ٤٦.
(٣) سورة التّوبَة: ١١٤.
(٤) أنبياء عاشوا في مصر، فتحي فوزي، ص ١٦ ـ ١٧.
(٥) المصدر نفسه.

إلّا أن أغلب من كتب في هذا المجال كان مصدره التوراة لأن التوراة ذكرت أن آزر هو الأب الحقيقي لإبراهيم، وانه خرج معه في سفره لينجو من نظرات الاستهزاء الموجهة إليه وأنه اختلف مع ابنه في حاران ومات فيها. أما المصادر الشيعية فقد تختلف شديد الاختلاف مع هذا القول، لأن أصلاب الأنبياء كلها مطهرة وآزر كان وثني مشرك بالله.

رحلته إلى حاران[1] :

لم يبق خليل الرحمن أبو الأنبياء إبراهيم ﷺ في أور الكلدانية وإنما واصل رحلته، فحمل زوجه (سارة) وابن أخيه لوط وزوجه كذلك واتجهوا نحو حاران (حرّان الحالية) وأقاموا فيها فترة لم يذكرها لنا التاريخ..

(يتفق الخبراء على أن إبراهيم الخليل ﷺ سلك طريق الفرات الأيمن في رحلته من أور إلى حران، وهي الطريق التي كانت تسلكها القوافل، وكانت مع إبراهيم الخليل جماعته وممتلكاته من قطعات الأغنام والمعزى والحمير والجمال، فيكون قد قطع في هذه الرحلة ٥٦٠ ميلاً (٩٠٠ كيلو متراً) بين أور وحرّان، فمرّ أولاً بمدينة (ماري) السامية وهي عاصمة العموريين الذين انبثقت منهم السلالة البابلية الأولى والملك حمورابي الشهير، وقد كانت هذه المدينة آنذاك تتمتع بأوج ازدهارها ثم ذهب منها إلى (حاران) «حرّان الحالية وبعد ذلك غادر حرّان متوجهاً إلى دمشق عن طريق تدمر ومنها إلى فلسطين قاطعاً مسافة حوالى ٦٠٠ ميل (٩٦٠كيلو متراً) أخرى بين حرّان وكنعان»[2].

والتوراة تقول غير هذا، فالطريق التي صورته لقارئها كان بمحاذاة الجانب الأيسر من نهر الفرات. لكن د. أحمد سوسة يردُّ على هذا الرأي قائلاً: «وهذا غير محتمل لكثرة العوارض في هذا الجانب، فضلاً

---

(١) حاران: هي حرّان الحالية وموقعها الآن بين حابور ونهر الفرات في شمال العراق.

(٢) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، ص٢٥٦.

عن أن جميع المدونات القديمة تشير إلى أن الطريق العام، طريق القوافل كان يسير بمحاذاة الجانب الأيمن من الفرات ماراً بمدينتي هيت وعانة ثم ببلدة (ماري) عاصمة العموريين الشهيرة، وبعد أن يمر بأبي كمال والميادين ودير الزور يعبر الفرات عند الرقة ثم يصعد شمالاً مع نهر البليخ حتى يصل إلى حرّان»[١].

رحلته إلى أور سالم (فلسطين):

بعد أن استقر إبراهيم ﷺ ومن معه في حرّان، قرر الرحيل إلى الأرض المقدسة. . . إلى أرض (أور سالم) الأرض التي باركها الله تعالى للعالمين كما ذكرها القرآن الكريم بعد أن نجّاه من كيد الظالمين وجعل النار برداً وسلاماً عليه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾[٢].

وقد ذكر الزمخشري في تفسير الكشّاف هذه الآية: إن هذه البركات ترجع إلى أن أكثر الأنبياء بُعثوا في هذه الأرض، فانتشرت في العالمين شرائعهم وآثارهم الدينية، وهي البركات الحقيقية.

أجل انها ـ أور سالم ـ كانت مقدسة، وكان فيها العابد الكاهن الموحّد لله تعالى المؤسس لبيت المقدس (ملكي صادق) الذي بارك لإبراهيم ﷺ كما ذكر المؤرخون والباحثون و(ملكي صادق) من سلالة كنعان، وكان محافظاً على سُنة الله القديمة بين شعب وثني. وقد عُرف بالتقوى والزهد. وقيل إنه كان يسكن هو وقومه في الكهوف. وكان أول من اختط (أورشليم) القدس وبناها وكان محباً للسلام حتى أطلق عليه

(١) المصدر السابق، ص٢٥٧.

(٢) سورة الأنبيَاء: ٦٨-٧١.

(ملك السلام) ومن هنا جاء اسم المدينة (سالم) أي مدينة السلام، ثم (شالم) و(شليم) فهي اليوم (أورشليم)[١].

هاجر ابراهيم عليه السلام خليل الله مع زوجه سارة ولوط وزوجه، ويقول القرآن الكريم: إن لوطاً آمن بإبراهيم وهاجر معه: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾[٢].

هاجروا مع عدة من الأتباع إلى أرض كنعان (شليم) فلسطين الحالية، ليستقر هو وأتباعه ولوط بالقرب من الرجل الصالح (ملكي صادق) عاش إبراهيم ومن معه في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، عاش بأمان وسلام يحيطه اللطف الالهي والرعاية الرحمانية، وكانت (فلسطين) دار هجرته ودار غربته كما تذكر التوراة: «تغرّب ابراهيم في أرض فلسطين»[٣].

وتضيف: «وأخرج ملكي صادق ملك شليم خبزاً وخمراً لأنه كان كاهناً لله العلي وبارك أبرام وقال: على أبرام بركة الله العلي خالق السماوات والأرض وتبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك إلى يديك وأعطاه أبرامُ العُشر من كل شيء»[٤].

فإذا صدق هذا النص التوراتي فالظاهر أن ملكي صادق كان بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام كنسبة العبد الصالح إلى موسى عليه السلام.

«وقد تمكن الخبراء الآثاريون في تعيين زمن هجرة إبراهيم الخليل بحوالى سنة (١٩٠٠ق.م) ويرجح البعض الآخر أن الهجرة وقعت في حوالى سنة (١٨٥٠ق.م) وقد انتهى البحّاثة الفرنسي الأستاذ (دي.فو)

---

(١) انظر العرب واليهود في التاريخ، المقدمة.
(٢) سورة العَنكبوت: ٢٦.
(٣) سفر التكوين، الاصحاح١١، العدد ٣١.
(٤) سفر التكوين، الإصحاح ٢٤، العدد ٤٠٣.

في أحدث دراسة قام بها في هذا الموضوع (١٩٦٥) إلى تحديد عصر إبراهيم الخليل بالقرن التاسع عشر قبل الميلاد»[١].

والنتيجة أن أرض فلسطين باعتراف التوراة ذاتها كانت أرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وآل إسحاق وآل يعقوب إذ كانوا متغرّبين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين، والتوراة تتحدث عنهم بصفتهم غرباء وافدين طارئين على أرض فلسطين، أما وطنهم الأصلي فهو (آرام النهرين)، أي منطقه حاران حيث كانت العشائر الآرامية التي ينتمون اليها قد استقرت في منابع نهر البليخ بعد هجرتها من الجزيرة العربية، ثم نزحت فروع من هذه القبائل إلى جنوبي العراق (منطقة بابل) فكان إبراهيم الخليل من ذريتها. فقد وردت كلمة الاغتراب كلما ذكر تنقل إبراهيم الخليل في فلسطين ومصر[٢].

بقي الخليل في أرض غربته فلسطين بضع سنين حتى أصيبت أرضها بجدب وجفاف وجوع، فقرر الرحيل منها والاتجاه إلى مصر، فقد جاء في التوراة: «وحدث جوع في الأرض. فانحدر ابرام إلى مصر ليتغرب هناك. لأن الجوع في الأرض كان شديداً»[٣].

وهناك حقيقة أخرى غير ما قالته التوراة ألا وهي وظيفة الأنبياء نشر الدعوة الإلهية إلى أكبر عدد من الناس فكانت هجرته من فلسطين، وكذلك إلى مصر بوحي من الله تعالى لنشر الإيمان بالله في أرضها.

فقد غادرت قافلة الإيمان أرض كنعان في طريقها إلى مصر... يحملون معهم الهداية والسلام ودين الوحدانية لله... تحف بهم الملائكة، ويقود زمامهم خليل الله إبراهيم. كانو نحو أربعين شخصاً إلا قليلاً... امتطوا رواحلهم، وحملوا أمتعتهم على الإبل والحمير،

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، مصدر سابق، ص٢٦٢.

(٢) انظر المصدر السابق، المقدمة، ص٧.

(٣) التكوين، الاصحاح ١٢، العدد ١٠.

واصطحبوا بعض أغنامهم كان نبي الله إبراهيم يتقدمهم.. يحيط به رجاله.. تبعتهم هوادج النساء والأطفال، وخلفهم العبيد.. يهشون على اغنام لهم، ربما كانت الطريق شاقة... لكن إبراهيم استطاع بحديثه العذب أنّ يهوّن عليهم، ويشجعهم ويمنحهم الأمل في غد أكثر إشراقاً، وفي مناطق أكثر عمراناً وحضارة.. يجدون فيها مناخاً مناسباً لنشر دعوة الوحدانية[1].

ورحلة إبراهيم عليه السلام إلى مصر لم يذكر القرآن الكريم تفاصيلها وقد كتب المؤرخون والآثاريون عنها الكثير، واغلب مصادرهم النصوص التوراتية، إلّا أن هناك روايات عن أصحاب الرسول ﷺ وعن أهل البيت عليهم السلام تنفي بعض تفاصيل ما تذكره التوراة، وتصحح الأخرى، وقد تثبت بعضها، كبقية كتب التاريخ.

رحلته (ع) إلى مصر الفرعونية:

بعد سفرٍ شاق وطويل وصلت قافلة الخليل إبراهيم عليه السلام إلى مشارق بلاد النيل فحطّوا رحالهم في إحدى المدن القديمة يقال لها (بلزيوم) تقع عند نهاية الفرع البليوزي، أحد فروع النيل القديمة الذي يصب قرب بحيرة البردويل، عرفت بعد ذلك باسم (الفرما)، وما هي إلا أيام حتى عاودوا السير على ضفاف النهر وشريطه الأخضر الذي لحسته الأشجار والمزروعات حتى وصلوا (أواريس) فحطوا رحالهم خارج المدينة.

وصل الخبر إلى الملك (سنان بن الأشل): «لقد قدم إلى مصر جماعة، قالوا فيما قالوه للناس: إنهم من أرض كنعان.. فيهم يا مولاي امرأة حسنة الوجه، رغم أنها ابتعدت عن ربيع عمرها... إلّا أنها مليحة الطلعة.. مشرقة السناء.. ما ينبغي أن تكون لأحد إلّا لك»[2]

«أسرع رجال الملك إلى خيام قافلة إبراهيم خارج المدينة.. منتهزين

---

(١) أنبياء عاشوا في مصر، ص٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢.

• فرصة وجود النساء وحدهن، وغياب الرجال، فاختطفوا سارة، ومضوا بها إلى قصر الملك»[1]

حيث كان إبراهيم ﷺ ـ حسب المصادر التاريخية ـ قد «خرج وبعض رجاله يجوسون أنحاء المدينة.. فشاهدوا جموعاً غفيرة من الناس، يتجهون إلى معبد لهم.. كان المعبد كبيراً واسعاً.. ارتفعت أعمدته الحجرية، واصطفت فيه تماثيل للآلهة (باسنت).. جسمها جسم إنسان، ورأسها رأس قطعة سوداء.. ترمزِ لآلهة اللذّة والمرح، وقد تناثرت حولها وأمامها القرابين واللحوم والفاكهة وشراب الشعير.. وارتفعت التراتيل على أنغام الموسيقى، ولا شك أن مناقشات دارت بين إبراهيم ﷺ والكهنة.. حاول فيها إبراهيم أن يعلن عن دين الوحدانية.

حتى إذا انتهى اليوم، وسعت الشمس إلى مغربها، ونشر الليل أرديته على الكون.. عاد إبراهيم ورجاله إلى خيامهم، وتفقدوا نساءهم. لكن الدهشة علت وجوه الجميع.. حين لم يجدوا سارة»[2].

ولو رجعنا إلى العرض التوراتي للقصة، وقرأنا الإصحاح ١٢ من العدد العاشر إلى العشرين لسمعنا ما لا يصدقه عقل ولا دين، لقد استدعى الملك إبراهيم وكانت سارة معه فنظر الملك إليها فدخلت قلبه، وقال لإبراهيم ﷺ من تكون هذه أجاب إنها أخته فأخذها الملك منه لتكون زوجة له لكن الله تعالى أنجاها منه بمعجزة حيث رأى الملك في المنام أنها زوجة إبراهيم فردها إليه وأكرمه بعد أن عاتبه، هذا ملخص ما جاءت به التوراة وهناك تفاصيل أخرى.

أما المصادر الإسلامية ترجح اختطاف سارة في غياب إبراهيم ﷺ ورجاله، بينما التوراة تصرح كأن إبراهيم ﷺ قدّم سارة برضاه للملك

---

(١) المصدر السابق، ص٢٣.

(٢) أنبياء عاشوا في مصر، ص٢٢.

مكذّباً أنها أخته لأن العُرف السائد والشريعة آنذاك، لا ترضيان باغتصاب زوجات الآخرين. فقد جاء في كتاب أنبياء عاشوا في مصر: «وحاشا لله أن يكون إبراهيم كاذباً، وهو الذي قال عنه ربه ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾[1]، كما نُزِّه إبراهيم عن أن يضعف وهو المؤمن بالله ـ أمام سلطان الملك فيقدم زوجته طواعية أو كراهية وخوفاً ـ فإبراهيم الذي وقف أمام النمرود لم يكن ليضعف أمام ملك مصر، ولم يكن يرضى لنفسه هذه المهانة، أن يُسلّم زوجته للملك»[2].

لقد كان اختطاف سارة من قبل الملك ورجاله خير مدخل ليصل إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة إلى البلاط الملكي لنشر دعوة التوحيد، قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾[3].

دخل الملك على سارة وكانت المعجزة حينما حاول الملك ضمها إليه، فقد جعل الله حائلاً بينها وبينه وشُلت يداه عن الحركة والتصقتا بصدره، وسرعان ما تذكر حينما رآها تصلي، فسألها قالت أصلي لله الواحد الأحد، قال لها متوسلاً ادعي لي إلهك ليخلصني، فدعت فاستجاب الله لها وردت إليه الحركة، وأعاد المحاولة ثلاثاً وهي تنّجيه بدعائها، حينما أحس أن إلهها أقوى منه، تركها وشأنها حتى طلع الصباح فأتوا إليه بإبراهيم عليه السلام وكانت الفرصة ذهبية لنشر دعوة الحق والإله الواحد، وشاعت في البلاد معجزة إله سارة وإبراهيم، وقد التقت سارة بإحدى جواري القصر الملكي يقال لها (هاجر) كانت وديعة طيبة القلب ابتسمت لسارة ابتسامة الرضا والأمل فقد جمعتهما الألفة ـ رغم فارق السن بينهما ـ وسعدت هاجر بما حدث للملك حين حاول السوء بسارة، فأدركت أن رب سارة شاء أن يحفظها، ولعل هاجر قد تذكرت

---

(١) سورة مَريَم: ٤١.

(٢) أنبياء عاشوا في مصر، الحاشية، ص٢٧.

(٣) سورة البَقَرَة: ٢١٦.

ما حدث لقومها.. حين احتدم الصراع بينهم وبين الملك.. يومها راحت هاجر تدعو آلهتها أن تنتصر لقومها، لكنها خذلتها، لم تستجب لدعوتها، ودنس الأعداء ديارها، وحرموا عبادة رع وبتاح، وطردوا كهنتها وحطموا معابدها، وفرضوا عبادة الإله (ست) وأصابها هي ما أصاب قومها، فقد نزعوا عنها تاجها، وقتلوا حبيبها.. سفكوا دماءه أمام عينيها.. لكن إله سارة كان رحيماً بها، فهو أعظم من تلك الآلهة التي تعددت، وعدا بعضها على بعض[1].

يُقال: إن هاجر تمنت لو عرفت إله سارة لتؤمن به علّها تجد عنده النصر لخلاصها من الملك المستبد، وشاء الله أن يحقق أمنية هاجر، فأظهر الحق في مجلس الملك وشهد الملك أن إله إبراهيم أقوى منه ومن آلهته، وقيل: إن الملك آمن وردّ سارة إلى إبراهيم عليه السلام بعد أن أهدى هاجر لتكون جارية لسارة، وشاء القدر أن تكون هاجر زوجة لإبراهيم عليه السلام لتكون أقرب إلى دين الله الحق وتعاليمه.

ظروف مصر زمن إبراهيم (ع):

أما احوال مصر السياسية في الفترة التي هاجر فيها إبراهيم الخليل إلى وادي النيل فكانت تتميز بالاستقرار والازدهار والرخاء في ظل المملكة الموحدة القوية تحت حكم السلالة الثانية عشرة في عهد الفرعون (سنو سرت الثاني) (١٨٩٧ ـ ١٨٧٧ق.م) و«سنو سرت الثالث (١٨٧٢ ـ ١٨٤٣ق.م) فقد تمكنت مصر في هذا الدور من بسط نفوذها السياسي في سوريا ولا سيما في البلاد الساحلية، كما فرضت سيطرتها على بلاد كنعان في أعقاب حملة قام بها (سنو سرت الثالث) في حوالى سنة (١٨٥٠ ق.م.) وقد توطدت علاقات تجارية قوية بين مصر والأقطار المجاورة، فكانت مصر تجلب التوابل والبهار وما إلى ذلك من المواد

---

(١) انظر أنبياء عاشوا في مصر، مصدر سابق.

العطرية والصمغية التي كانوا يستعملونها في معابدهم وفي التحنيط من جنوب جزيرة العرب، كما كانت تجلب الذهب والتوابل من السودان والنحاس الأحمر وحجر الزبرجد والفيروز من مناجم طور سيناء والفضة من طوروس وأخشاب الأرز من لبنان، وكانت بلاد كنعان إذ ذاك حلقة وصل بين مصر وكل هذه الأقطار حيث احتلت مركزاً مهماً من النواحي الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، وذلك باعتبارها ممراً دولياً على الطريق التجاري الرئيس للعالم القديم. لذلك كان ذهاب إبراهيم الخليل إلى مصر أمراً طبيعياً لما كان من روابط وصلات وثيقة بين الكنعانيين ومصر. فكانت مصر الموئل الطبيعي الذي يتجه إليه الكنعانيون في حالات المحل والقحط للاكتيال منها»[1].

ومن إنجازات الفترة التي دخلها إبراهيم عليه السلام مصر وابن أخيه لوط عليه السلام أن الفرعون «سنو سرت الأول شقَّ: (قناة تصل النيل بالبحر الأحمر)[2] وكان لهذه القناة أهمية كبرى في الزراعة والري. ومن إنجازاته أيضاً: صد الغزاة النوبيين وشاد الهياكل العظيمة في عين شمس والعرابة والكرنك. وقد نجت من عبث الدهر عشرة تماثيل ضخمة تمثلهُ جالساً، وهي الآن في متحف القاهرة. وبدأ سنو سرت آخر هو (سنو سرت الثالث) يخضع فلسطين لحكم مصر، وردَّ النوبيين الذين لم ينقطعوا عن الإغارة على حدودها الجنوبية، ووضع لوحة عند تلك الحدود كتب عليها أنه لم يضعها رغبة في أن تعبدوها، بل طمعاً في أن تحاربوا من أجلها..»[3].

والظاهر أن الوضع المصري الفرعوني الذي واجههُ الخليل إبراهيم عليه السلام كان يتميز بالإنسانية والواقعية، وهذا ما تميز به عهد الدولة الوسطى، أو الامبراطورية الوسطى للأسر الفرعونية.

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، مصدر سابق، ص٢٦٥.
(٢) قصة الحضارة، مصدر سابق، ص٧٥.
(٣) قصة الحضارة، ص٧٥.

وقد ورد في وصف الامبراطورية الوسطى: «حققت الإمبراطورية الوسطى تنظيماً داخلياً كبيراً. وتبنى الفراعنة أنفسهم هذا الواجب الذي عيّنت الدولة باسمه، لكل مواطن مكانه وعمله في المجهود الجماعي. لذلك نلمس، على أوجه بعض التماثيل الملكية على الأقل، إنسانية أكثر احساساً وتأملاً وتأثيراً، حتى في خشونتها. فالواقعية هنا، تتقدم بقوة»[1].

مغادرة النبي ابراهيم (ع) مصر:

بقي ابراهيم ﷺ فترة ليست قصيرة في بلاد النيل يدعو أهلها إلى وحدانية الخالق، حيث كان (أهل مصر) على دين ملوكهم كغيرهم من الأقوام سابقاً ولاحقاً.. كانوا يعبدون موتاهم وآلهة أخرى: «وكان بين عبادة الآلهة وعبادة الأموات كثير من النقاط المشتركة، ولا عجب في هذا الالتقاء بينهما. فالطقوس الجنازية إنما وضعت لصالح الملك الميت، واستبقاء لقدرته العاطفة مصر، قبل ممارستها على غيره أولاً وعلى الجميع آخراً. ولا عجب أيضاً ما قلنا: إن هذا التشابه بين العبادتين مصدره أثر أهم العقائد، عقيدة رع وعقيدة أوزريس بنوع خاص، على هاتين المجموعتين من الطقوس فمجموعة طقوس عبادة الآلهة العظماء أنفسهم مشبعة بأفكار عقيدة أوزريس، فكيف بطقوس عبادة الأموات؟...»[2].

وهذه العبادة المنحرفة رآها إبراهيم الخليل ﷺ بعينه وسمعها بأذنه، وهو نبي مرسل ولا بد أن يؤدي مهمته وهي الإنذار والتبشير والتبليغ لرسالة الله تعالى ورسالة الحق التي لا ريب فيها، فكانت مهمته التبليغ في كل مكان نزل فيه وإلى أي مكان رحل إليه في رحلته الشاقة والطويلة التي بدأت من محل سكناه إلى أور الكلدانية وإلى حرّان ثم فلسطين وبعدها مصر ولم يبق في مصر فقد رحل عنها هي الأخرى متجهاً نحو الجنوب.

---

(١) تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، مج ١، ص١١١.

(٢) المصدر السابق، ص١٠٦.

ومما لا شك فيه أنه ﷺ لعب دوراً رئيساً في تاريخ كل دولة وولاية مرَّ بها أو عاش فيها، لعب دوراً مهماً في تأسيس ديانة التوحيد، بعد أن انتصر في كفاحه ضد وثنية العراق بمدنه الجنوبية والشمالية والشام وفلسطين ومصر ثم وثنية الجزيرة العربية القديمة.

وخلاصة القول ان ما تقدم يدل دلالة واضحة على أنه ﷺ كان شخصية عظيمة وزعيماً سياسياً وروحياً، وكان دوره واضحاً لمن قرأ التاريخ، فقد لعب دوراً رئيسياً في تاريخ الإنسانية، والكل يفتخر بانتسابه إلى هذا الرجل العظيم، فاليهود تفتخر بالنسب إليه وتدّعي ذلك، ومثلهم النصارى وكذلك المسلمون، ويؤيدهم القرآن في الانتساب إليه من حيث إسلامية العقيدة أو الدم، وليس ما حرّفه اليهود والنصارى في المعتقد.

أما بالنسبة إلى هجرته الطويلة فيقول د. أحمد سوسة: «ولقد ظهر من المدونات التاريخية القديمة التي اكتشفها الآثاريون أن هجرة إبراهيم ﷺ هي حقيقة واقعية لا مجال للشك فيها»[١]. والتنقيبات الأثرية اكتشفت آثاراً لإبراهيم الخليل ﷺ واسمه في بابل وأور الكلدانيين وحرّان وفلسطين ومصر وغيرها[٢].

أما آثاره في الجزيرة العربية فهي أوضح من الشمس ولا نحتاج إلى دليل وتأكيد، فمعالمها زاهرة إلى الآن، بل وتزهر يوماً بعد يوم كالكعبة المشرفة وغيرها من آثاره... ويرجع تاريخها إلى ما بعد رجوعه من جولته التاريخية في مصر الفراعنة والنيل... أي بعد عام (١٨٥٠ق.م).

وقد بارك الله تعالى لإبراهيم في جعله إماماً بعد نبوته ومنحه المال والبنين، بعد أن كان هارباً مطروداً من أهله وعشيرته، فأعطاه الله الولد بعد ما كان محروماً من الذرية بسبب امرأته العاقر وعجزه وشيخوخته.

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، مصدر سابق، ص٢٦٠.
(٢) انظر المصدر السابق، ص٢٦٠ ـ ٢٦٤.

ورد في التوراة أن الرب قال لإبرام: «إذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمةً عظيمة وأبارك وفيك تتبارك جميع جميع قبائل الأرض...»[1].

نعمت أرض مصر ببركة إبراهيم عليه السلام ودعوته وكان سعيداً، أعطاه الملك من الأغنام والماشية والإبل والدواب وسمح له بالبقاء في مصر، يمضي فيها حيث يشاء ومتى يشاء فاتحاً له الطريق لم يحمل بينه وبين ما يريد حائل، ولعل الملك بفعله هذا قد آمن بالإله الواحد الأحد، لكن التاريخ لم يظهر هذه الحقيقة، ولعل يوماً تظهر من خلال علم الآثار.

بقي إبراهيم عليه السلام في مصر حتى نزول الوحي عليه وفيه أمر من الله أن يرحل من مصر إلى أرض كنعان ليكمل رحلته الإيمانية في أرض الله، وأن يفترق عن ابن أخيه لوط، لأن الله تعالى بعثه رسولاً إلى أهل سدوم الذين كانوا يسكنون دائرة الأردن.

ساروا على بركة الله وفي الطريق إلى كنعان أعطى إبراهيم للنبي لوط عليه السلام نصيباً من الأغنام والدواب والذهب والفضة وافترقا كلٌّ إلى مهمته التي كُلف بها.

ومن كنعان إلى الجزيرة العربية وبأمر من السماء أخذ إبراهيم عليه السلام هاجر وابنه إسماعيل (بعد أن صارت زوجاً له) ووهبته ولداً مباركاً، وكانت الرحلة شاقة حيث الصحراء والشمس الحارة، إلّا أن عناية الله ولطفه كانت بصحبتهم، وقيل: إن جبرئيل كان لا يفارقهم، يدلهم على الطريق حيث وصلوا.

وكانت أرض الجزيرة التي هي موطن إبراهيم عليه السلام الأصلي[2] ، قد

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ١٢.

(٢) لأن آباء إبراهيم عليه السلام من عمالقة الجزيرة العربية.

أصبحت موطن ولده إسماعيل وزوجه هاجر حيث بارك الله لهما، وجعل أفئدة الناس تهوي إلى تلك الأرض.

أكمل إبراهيم عليه السلام رحلته ورجع إلى سدوم ثم إلى كنعان حيث زوجه سارة وابنه إسحاق، ثم رجع بعدها في الرحلة الثانية إلى الجزيرة ليبني الكعبة هو وابنه إسماعيل ويكمل مهمته ويرجع إلى شمال الأردن حيث توفي هناك. ومعالم قبره الشريف ما زالت مأوى للزائرين.

علاقة إبراهيم (ع) باليهود:

حاول اليهود ربط أنفسهم بإبراهيم الخليل عليه السلام وتمجيد تاريخهم وجعل قوميتهم صفوة القوميات البشرية والشعب المختار، ومن أجل ذلك كان لابد لهم من إرجاع أصلهم إلى أعظم وأقدس شخصية قديمة مقبولة من قبل الشعوب التي عرفته كشخصية سياسية دينية، واجتماعية.

لكن مجيء الإسلام العظيم وقرآنه الكريم فنّد مزاعمهم وادعاءاتهم وكل تزوير في حق التاريخ والإنسانية مما دونته أحلامهم وأقلامهم فقال لهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾[1].

ثم أوضح القرآن الكريم أن إبراهيم الخليل عليه السلام ليس منهم ولا يمكن أن يكون منهم، فبينه وبينهم بون شاسع من الفروقات الزمانية والمكانية والقومية وغيرها، وقد أكد لهم القرآن ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[2] وصدق القرآن الكريم حينما حسم النزاع وبرأ إبراهيم الخليل عليه السلام من القومية اليهودية

---

(١) سورة آل عمران، ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) سورة آل عمران، ٦٧ ـ ٦٨.

والنصرانية، فعصره يرجع تاريخه إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وعصر اليهود وموسى عليه السلام يرجع إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد وهو عصر متصل بمصر بينما عصر إبراهيم عليه السلام عربي يتصل بالأقوام السامية.

«لذلك يجب على الباحثين والمؤرخين تمسكا بأمانة البحث واسلوب المنطق ومراعاة للتسلسل التاريخي أن لا يخلطوا بين دور إبراهيم الخليل ودور اليهود، والدورين الذين تفصل بينهما سبعة قرون من الزمن»[1].

وهناك أمر مهم جداً وهو زمن تدوين التوراة التي حاول (مدونوها)[2] لصق أنفسهم بإبراهيم عليه السلام، علماً أن الفارق الزمني بينهم وبينه عليه السلام الف وخمسمائة سنة، لقد دونوها وهم في زنزانات الاستعمار البابلي، وحاولوا اختلاق أكاذيب تقول بأن الله تعالى أوعد إبراهيم أن يعطي لنسله الأرض المباركة المقدسة (فلسطين) إرثاً حلالاً طيباً !!

وهذا نص ما دونوه في التوراة افتراءً على الله: «وظهر الرب لابرام وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له»[3].

وفي نص آخر: «وبقي ابرام في كنعان فقال له الرب: ارفع عينيك وانظر في الموضع الذي أنت فيه من مشرقه إلى مغربه ومن شماله إلى جنوبه، فإنني معطيك جميع الأرض التي تراها ولنسلك من بعدك، وأجعل لك نسلاً كتراب الأرض لا يحصيه إلّا من استطاع أن يحصي ترابها، فاضرب في الأرض طولاً وعرضاً كما تشاء»[4].

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص٢٦٨.

(٢) وجاء في تفسير الميزان، الطباطبائي: في تفسير سورة هود: إن سند التوراة الحاضرة ينتهي إلى ما كتبه لهم رجل من كهنتهم يسمى عزراء عندما أرادوا أن يرجعوا من بابل بعد انقضاء السبي إلى الارض المقدسة وقد أحرقت التوراة قبل ذلك بسنين عند إحراق الهيكل فانتهاء سندها إلى واحد يوجد الريب فيها.

(٣) التكوين، الإصحاح ١٢.

(٤) المصدر السابق.

اذن السبب الرئيس في إلصاق اليهود أنفسهم بإبراهيم الخليل عليه السلام هو محاولة استرجاع أرض فلسطين من المستعمر (نبوخذ نصر) الذي استعمر مناطق سكناهم في فلسطين وأخذهم أسرى إلى بابل، فحاولوا أن يتقولوا على الله أن أرض فلسطين قد أعطاها لليهود ميراثاً من أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام.

لكن التاريخ والقرآن انكرا أن يكونوا من إبراهيم عليه السلام أو يكون إبراهيم عليه السلام منهم، فاليهود: هم كل من تهود بالدين اليهودي ولا علاقة له بإبراهيم الخليل عليه السلام. والقرآن الكريم يؤكد أن المسلمين هم أولى بالنسب إلى إبراهيم عليه السلام من غيرهم، فهم أحق بهذا النسب من غيرهم، لأنهم لم يحرفوا دين الله، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم أحقُّ به، فالآية تقول: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[1]. هذا الانتساب الحقيقي لإبراهيم وإلّا فلا.

وهناك نقطة أخرى مهمة يجب ذكرها وهي احتكار اليهود النسب لإبراهيم عليه السلام لأنهم من نسل إسحاق عليه السلام ثم يعقوب عليه السلام - إسرائيل - ونسوا أن لإبراهيم ابناً أكبر وهو إسماعيل عليه السلام الذي ينتسب العرب إليه، وأنه أحقُّ بالنسب والوعد والإرث و... و... الخ..

«ولو لم يكن انتساب العرب إلى إسماعيل بن إبراهيم تاريخياً مقرراً في ذلك العصر - عصر كتابة المصادر اليهودية الأولى - لما كانت بهم حاجة إلى التمييز بين أبناء إسحاق وأبناء اسماعيل. إذ كان يكفي أن يقال: إن النعمة الموعودة من نصيب أبناء إبراهيم كافة ليخرج من هذا الوعد لم يكن من اليهود الذين لا ينازعهم أحد في الانتساب إلى إبراهيم...»[2].

---

(١) سورة آل عمران، ٦٨.

(٢) إبراهيم أبو الأنبياء، العقاد، ص١١٠.

«ولا شيء غير خطر المنافسة في النسب وخطر المنافسة في العقيدة الدينية يلجئ الكهان إلى حصر النعمة الموعودة في أبناء إسحاق دون أبناء إبراهيم. وقد لوحظ أن الكهّان يحصرون النسب شيئاً فشيئاً كلما أحسوا بخطر المنافسة على سلطانهم وسلطان هيكلهم على الخصوص.

فخصصوا أبناء يعقوب بعد أن كان الوعد عاماً شاملاً لأبناء إسحاق أجمعين، وقالوا: إن الإسرائيليين هم أبناء يعقوب دون غيره، وإسرائيل هو لقب يعقوب.

ثم انقسمت دولة اليهود إلى دولة في الشمال تسمى مملكة إسرائيل ودولة في الجنوب تسمى مملكة يهوذا، فقال كهّان الهيكل إن النعمة الموعودة محصورة في أبناء داود...»[1]. وهكذا فالتاريخ يُكتب والأنساب تدون حسب المصالح السياسية والاقتصادية والإقليمية و...و... وقلَّ من لازمه الحق واقترنت به الحقيقة وكتب التاريخ لمعرفة التاريخ بحق..

علاقته (ع) ببني اسرائيل:

هناك مغالطة أخرى لليهود، إنهم يزعمون أن إبراهيم الخليل إسرائيليٌّ من بني إسرائيل وأنهم موجودون في كل زمان وفي كل مكان حتى في الأدوار التي سبقت ظهور يعقوب ـ إسرائيل ـ إلى عالم الوجود. فقد اعتبر كتبة التوراة ـ وجود بني إسرائيل في عصر إبراهيم الخليل في القرن التاسع عشر قبل الميلاد قبل أن يخلق الله يعقوب (إسرائيل)!! كما ان التوراة عدّت وجودهم بعد عهد أبيهم يعقوب بحوالى ستمائة سنة، أي في عهد موسى عندما غزت جماعته أرض كنعان (فلسطين) من مصر في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم اعتبرت وجودهم في جميع الأدوار والأحداث التالية ومن ضمنها عهد الملوك وعهد الانقسام وما تلا ذلك،

---

(١) المصدر السابق، ص١١٦.

وحتى يهود الخزر الذين اعتنقوا اليهودية في وقت لاحق وهم من أصل تركي وكذلك يهود أوروبا وأمريكا ويهود العالم جميعاً هم على رأي التوراة نفس أبناء يعقوب ـ إسرائيل ـ الذي عاش قبل (٣٧٠٠) سنة، فما أغرب هذا المنطق !!. والأغرب من هذا كلّه هو أننا نجد الكثير من العلماء والباحثين من يتقبل مثل هذا الخلط.

وهذه المزاعم اليهودية والمغالطات نجدها أوضح من الشمس عندما نقرأ التوراة نفسها في مخاطبتها إبراهيم الخليل عليه السلام وكأنه أحد أبناء أو أحفاد (إسرائيل). ان العكس هو الصحيح فإسرائيل هو الاسم الثاني أو الصفة الثانية التي اتصف بها حفيد النبي إبراهيم عليه السلام (وهو النبي يعقوب)، فالغريب أن ينسب الجد لحفيده هذا من جهة، ثم إن اليهود عندما قرنوا نسبهم ببني إسرائيل (أي أولاد يعقوب) وأطلقوا على أنفسهم (بني إسرائيل) أي هم من نسل إبراهيم الخليل عليه السلام وكل من تهود باليهودية ينتمي إليه من أيةِ قومية كان أو أي جنس من أجناس البشر او من أي بلد أو قارةٍ أتى...

إبراهيم (ع) يدعو للتوحيد في مصر:

ذكرنا سابقاً أن إبراهيم عليه السلام دعا إلى التوحيد في كل بلدٍ نزل، وفي كل مكان حلّ، وذكرنا دعوته في مصر التي كانت تُعدد الآلهة، وتعبد موتاها وتقدسهم وتعبد آلهة أخرى خيالية وهمية ليست لها أي وجود سوى ما أملت عليهم الأسر الفرعونية (من الأسرة الأولى حتى الثانية عشرة) زمن مجيء إبراهيم الخليل عليه السلام إلى مصر بسبب المجاعة التي حصلت في فلسطين أو الأمر الإلهي المفروض لدعوة التوحيد.

فقد جاء في تاريخ يوسيفوس أحد مؤرخي اليهود القدامى حيث قال: «ثم مضى زمن وأصاب كنعان القحط وسمع إبراهيم برخاء المصريين، فاعتزم الهجرة إلى مصر ليصيب من خيراتها ويسمع ما يقوله أحبارها في

أمر الله، وفي نفسه إذا علم من كلامهم ما هو خير مما عنده أن يتقبله، أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم إليها»[1].

قد يُصدق هذا الكلام إذا كان إبراهيم عليه السلام في حيرة من أمره ولا يعلم أنه نبي مرسل، ولكن القرآن الكريم يقول في حق إبراهيم عليه السلام بعد أن امتحنه عدة امتحانات مع قومه في العراق وأبيه عندما قال له ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾[2] وعندما انقلبت النار برداً وسلاماً عليه وحين أمره الله تعالى أن يذهب إلى الأرض المقدسة (كنعان) و. . . و. . . الخ.

هذه الأمور كلها تدل على أن إبراهيم عليه السلام كان مصطفى عند الله تعالى بدرجة النبوة: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3] ثم ما جاء عن إيمان لوط به: ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾[4] فكان إبراهيم عليه السلام كما قال القرآن الكريم: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾[5].

إذن فإبراهيم الخليل عليه السلام عندما دخل مصر كان قد بُعث نبياً. . .

ثم يقول يوسيفوس في تاريخه: «ولما رأى إبراهيم أن المصريين متشبثون بعادات شتى يخالف بعضهم بعضاً من جرّائها ويعادي بعضهم بعضاً لأجلها جعل يناقشهم فيها كل فريق على حدة ويبدي لهم جميعاً أنها ليست على شيء من الحق، ويحل بذلك منهم محل الإعجاب فيعلمون انه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة وحسب، بل كان كذلك عظيم القدرة على إقناع سامعيه في كل موضوع تناوله ببحثه، وقد أطلعهم على علم الحساب وقوانين الفلك، ولم يكن أحد من المصريين على

---

(١) نقلاً عن إبراهيم أبو الأنبياء، العقاد، ص٩٧.
(٢) سورة مَريَم: ٤٧.
(٣) سورة البَقَرَة: ١٣٠.
(٤) سورة العَنكبوت: ٢٦.
(٥) سورة مَريَم: ٤١.

علم بها قبل مقدم إبراهيم، وإنما جاءت من الكلدان إلى مصر ثم من مصر إلى الإغريق..»[1].

ولا مغالاة إذا كان إبراهيم ﷺ قد علَّم المصريين علم الحساب وقوانين الفلك، فالانبياء ﷺ كلهم بدون استثناء وعبر العصور كلها كانوا مراجع لمعرفة كل العلوم لارتباطهم المباشر بالسماء، يطلعهم الله تعالى ما يشاء ويعلمهم ما لم يعلم الإنسان الجاهل أو الإنسان العادي، فعلم الأنبياء من علم الله تعالى، وحتى العلوم الغيبية. فقد تحدث الأنبياء لأصحابهم ولغيرهم بأنباء عن مستقبل الزمان وكذلك بمنازلهم في الآخرة وغيرها من الأمور...

فإبراهيم الخليل ﷺ عَلَّمهم بعض العلوم، حيث انسجم مع المجتمع المصري وأحبه المصريون، فأخذوا منه، وتعلموا ما علمهم من العلوم والمعارف، والأولوية كانت إرشادهم إلى وحدانية الله تعالى وابعادهم عن تعدد الآلهة، وتقريبهم إلى الدين الحنيف، واليوم الآخر و..و..الخ.

وليس هذا الأمر غريباً وبعيداً عن المصريين فقد كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة الأبدية وهذا الايمان كان دافعاً لبنائهم الأهرامات، واكتشافهم مواد التحنيط، وبقاء بدن موتاهم سالماً من البلى، وقد ذكرنا بعض التفاصيل في التمهيد لهذا الكتاب عند الحديث عن عقائد مصر الفرعونية.

---

(١) نقلاً عن كتاب أبو الأنبياء إبراهيم، العقاد، ص٩٨.

الفصل الثاني

إسرائيل والعبرانيون والحضارة المصرية

١ ـ ماهية إسرائيل

٢ ـ من هم الإسرائيليون؟

٣ ـ من هم العبرانيون؟

٤ ـ العبرانيون والإسرائيليون في التوراة

٥ ـ أسطورة الشعب المختار

٦ ـ أسطورة الأرض الموعودة

٧ ـ إسرائيل بين التاريخ والجغرافية

٨ ـ بنو إسرائيل في القرآن الكريم

٩ ـ مصر تستقبل بني إسرائيل




إسرائيل والعبرانيون والحضارة المصرية

بعد أن عرفنا أهمية الحضارة المصرية، نقف لنستقرىء تاريخ (بني إسرائيل)، لغرض معرفة العلاقة بينهم وبين الحضارة المصرية من جهة، وأسباب نزوحهم عن بلاد غربتهم إلى بلاد أخرى والخروج إلى الأولى مرة أخرى، من جهة أخرى وذلك من خلال ما سنعرضه في الفصول القادمة إن شاء الله.

وفي هذا الفصل سنتحدث عن (إسرائيل) الأب المعروف بيعقوب النبي ﷺ أبو الإسرائيليين جميعاً ـ من حيث النسب ـ وسنتحدث أيضاً عن الإسرائيليين، وهل هم فعلاً أبناء يعقوب، وإذا لم يكونوا كذلك فمن هم؟ ثم من هم العبرانيون، وما هي علاقتهم بالإسرائيليين، فهل هم أنفسهم أم هناك فرق بين الإسرائيليين والعبرانيين، كما تقول نصوص التوراة؟ . . .

ثم هناك مصطلح تردد كثيراً أو أريد له أن يتردد وهو: (شعب الله المختار) فمن أطلقه وما هو أصله، وما مدى صحته ودقته؟ فهل كان فعلاً مصطلحاً حقيقياً قديماً (له مضمون) أم خلقته الصهيونية حديثاً؟ وما الفرق بين إسرائيل التاريخ وإسرائيل الجغرافية الحديثة؟ ومن هم بنو إسرائيل الذين خاطبهم القرآن الكريم في كثير من آياته الكريمة؟ هل هم أبناء يعقوب النبي ﷺ أم أصحاب موسى النبي ﷺ، أم اليهود أم العبرانيون أم خاطبهم جميعاً في اصطلاح واحد (بنو إسرائيل)؟

أسئلة كثيرة تدور في الأذهان والعقول قديماً وحديثاً حول من قالوا عن أنفسهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾[1].

سنقف في هذا الفصل لنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة بقدر ما تتيح لنا المعلومات التي وفرتها المصادر القديمة والدراسات الحديثة، وعلم الآثار، علّنا نصل إلى الحقيقة.

ماهية إسرائيل:

إسرائيل: كلمة شهيرة، عرفتها الأجيال من خلال الشعب الذي انتمى أو انتسب إليها (بنو إسرائيل) أو (الإسرائيليون) فتصور البعض أنها اسم دولة أو بقعة معينة من الأرض أو غير ذلك.. إلّا أن الحقيقة خلاف ذلك، إن (إسرائيل) هو لقب يعقوب النبي ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل (عليهم السلام) وهو لفظ مركب من مقطعين، الأول: (إسرا) ويعني العبد، والثاني (إيل) وهو الله.. فيكون معنى اللفظ بعد التركيب (عبد الله)[2]. وكانت أمه (رفقة بنت بتوئيل) وهو أخو إبراهيم.

وأبناء إسرائيل هم ذرية النبي يعقوب عليه السلام من أسباطه الاثني عشر، الذين أنجبتهم له زوجاته الأربع، اثنتان بنات خاله (لابان) واثنتان جاريتاهما اللتان وهبهنّ الخال إلى يعقوب مع كل بنت زوّجها إياه..

والقرآن الكريم لم يذكر قصة زواج إسرائيل وأبنائه، ولعل ما جاء في التوراة يعطي صورة عن ذلك إن أنصف مدونوها، وملخص ما جاء في التوراة أن: يعقوب كان أثيراً عند أمه، فلما دعا إسحاق ليعقوب وهو يظنه عيسو ـ وجاء عيسو وقد علم بذلك أخذ منه الغيظ مأخذه، وخشيت (رفقة) على يعقوب أن يبطش به عيسو.. فأشارت عليه أن يذهب إلى

---

(١) سورة المائدة: ١٨.

(٢) وبعد انحراف هذا الشعب (الإسرائيليون) أصبحت هذه الكلمة (إسرائيل) تعني عبد الاستكبار والشيطان والانحراف.

خاله (لابان) فذهب إلى فدّان آرام، وأقام عند خاله يخدمه نظير تزويجه بابنته راحيل. ولكن خاله أدخله على ابنته ليئة التي لا يريدها يعقوب. فكلّم خاله في ذلك فقال له: خُذ مني عشر سنين أخرى لأزوجك راحيل ففعل وتزوج أيضاً من جاريتهما: زلفا وبلها. ومنهن كان أولاده وقد ولد له أولاده جميعاً في آرام إلّا (بنيامين) ثم جاء إلى فلسطين بمال كثير ونعم جليلة وأهدى إلى أخيه بعضها وهو خائف أن يبطش به. ولكن عيسو قابله مقابلة حسنة[1] وقد رزق يعقوب ﷺ (إسرائيل) من زوجاته الأربع اثني عشر ولداً ذكراً، هم:

(ليئة) ولدت له: لأوبين، وشمعون، لاوي، يهوذا، يساكروزيولون، أما أختها زوجه الثانية فقد أولدها يوسف وبينامين الأثيران عنده وإياها.

أما الجاريتان فبلهة أولدها: دان ونفتالي، وزلفا أولدها جاد وأشير[2].

فهؤلاء ـ أبناء إسرائيل ـ الاثنا عشر وذريتهم، أطلق عليهم اسم (بنو إسرائيل) نسبة إلى لقب الأب يعقوب (إسرائيل).

ذهب أكثر المؤرخين ـ اعتماداً على نصوص التوراة ـ إلّا أن اولاد يعقوب ﷺ ولدوا جميعاً في آرام إلّا بنيامين[3] فقد ولد في كنعان (فلسطين) بعد أن رجع إليها يعقوب بماله الكثير وثروته ونسائه وأولاده، بعد غربة ورحلة دامت حوالى عشرين عاماً فراراً من أخيه عيسو الذي كان يؤثره أبوه إسحاق.

والجدير بالذكر أن يعقوب رجل عبري وليس كنعانياً، ينتمي إلى

(١) نقلاً عن قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص١١٩.
(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٢٩، العدد ٣٠. ومع الانبياء في القرآن الكريم، عفيف عبد الفتاح طبّارة، ص١٠٠.، وتاريخ الطبري وتاريخ مختصر الدول لابن العبري، ص١٥ ـ ١٦.
(٣) هناك قول أنهم ولدوا في حاران إلا بنيامين.

العبرانيين الذين هم: «شعب سام، ينسبه العهد القديم إلى (عابر) أحد أحفاد سام بن نوح. وقد أطلقت التسمية على ذرية إبراهيم بصورة خاصة»[1].

ذكر د. أحمد سوسة في كتابه العرب واليهود في التاريخ أن: «مصطلح إسرائيل فالمقصود به يعقوب حفيد إبراهيم الخليل وأبناؤه وهم بنو إسرائيل الذين ورد ذكرهم في الأسفار ودورهم محصور في منطقة (حاران) (حرّان حالياً) حيث وطنهم الأصلي الذي ولدوا فيه ونشأوا فيه. أما فلسطين فهي أرض غربتهم وقد وجدوا في القرن السابع عشر قبل الميلاد، وهو نفس عهد إبراهيم الخليل. وكانت اللغة في هذه المنطقة في ذلك الزمن لغة واحدة (اللغة الأم) التي كان يتكلم بها أنبياء الجزيرة العربية قبل هجرتهم إلى الهلال الخصيب، أي قبل أن تتفرق هذه اللغة إلى اللهجات المختلفة كالكنعانية والآرامية والعمورية وغيرها»[2].

ويضيف المؤلف قائلاً: «أما يعقوب (إسرائيل) فالأرجح أنه كان يتكلم بنفس اللغة وهو آرامي مثل إبراهيم بحكم النسب»[3].

أما الاكتشافات الحديثة فأظهرت أن كلمة إسرائيل: كانت اسماً لموضع في فلسطين وهي تسمية كنعانية، وبهذا المعنى وردت في الكتابات المصرية التي ترجع إلى ما قبل عصر موسى عليه السلام[4].

وهذا لا يمنع أن الأصل كان تسمية لشخص عاش في تلك المنطقة أو ذلك الموضع وبعد رحيله بقي اسم الموضع يحمل اسمه الشريف، لأن يعقوب عليه السلام ليس إنساناً عادياً، انه نبي من أنبياء الله تعالى وله مكانة خاصة بين أهله وقومه، وأرض فلسطين كانت أرض غربة له ولأبيه

---

(١) معجم الحضارات السامية، هنري س. عبّودي، ص٥٨٣.
(٢) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، المقدمة.
(٣) نفس المصدر.
(٤) انظر المصدر السابق.

إسحاق وجده إبراهيم (عليهم السلام) وذلك بتأكيد التوراة ذاتها، كانوا مغتربين بين الكنعانيين سكان فلسطين الأصليين. وبعد رحيل يعقوب (إسرائيل) هو واسرته إلى مصر وانضمامهم إلى يوسف وزير المالية هناك، اندمج بنوه وذريته في البيئة المصرية؟ وسيكون فصلاً خاصاً بهذا الموضوع من الفصول القادمة إن شاء الله..

من هم الإسرائيليون؟

ونقصد هنا بالإسرائيليين، الذين استوطنوا فلسطين وأعطوا لأنفسهم الشرعية في الاحتلال والاستيطان فيها على أنها هبة لهم من الله تعالى لأنهم أبناؤه والشعب المختار من بين مخلوقات الله تعالى!!

عندما دوّن اليهود التوراة استهدفوا تحقيق غرضين رئيسيين، أولهما تمجيد تاريخهم وجعل أنفسهم صفوة الأقوام البشرية والشعب المختار الذي اصطفاه الرب من دون بقية الشعوب، ولتحقيق ذلك كان لا بد من إرجاع أصلهم إلى أقدس شخصية قديمة، أي شخصية إبراهيم الخليل الذي كان صيته قد عمَّ جميع أرجاء عالمهم في تلك الأزمان. وقد حالفهم النجاح في سرد تاريخهم حسب أهوائهم بلباقة ومهارة لم يسبق لها نظير في الأدب القديم، وأضفوا عليه صبغة دينية ليضمنوا تقلبه من أتباعهم، وهكذا فقد أرجعوا تاريخهم إلى إبراهيم الخليل وإلى حفيده يعقوب (إسرائيل) فسمّوا جماعة موسى ﷺ ببني إسرائيل على رغم كونهم ظهروا بعد إسرائيل بزهاء ستمائة عام، وذلك بغية ربط أصلهم بإبراهيم الخليل، وأبتدعوا فكرة (الشعب المختار) التي كان إبراهيم الخليل ويعقوب وموسى بريئين منها[١].

ثم توارثت اليهود الفكرة ـ فكرة بني إسرائيل ـ منذ أن سباهم نبوخذ نصر.

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، المقدمة.

بعد عهد موسى ﷺ بثمنمائة عام أو أكثر وهو زمن تدوين التوراة، وحتى يومنا هذا وأسموا أنفسهم (بالإسرائيليين) للحصول على الشرعية للفكرة الصهيونية في احتلال فلسطين بجمع يهود العالم جميعاً في الأرض الموهوبة لهم لإضفاء الصبغة الدينية على الفكرة المختلقة.

ولكن لو سألنا التاريخ عن بني إسرائيل الذين دخلوا مع النبي يعقوب ﷺ مصر في زمن يوسف ﷺ هل هم آباء الإسرائيليين اليوم؟ لأجبنا بالنفي لأنه «بعد أن انتصر المصريون على الهكسوس، وطردوهم خارج مصر بدأوا يحاسبون كل من تعاون معهم. وعمل لمصلحتهم، ومن بين هؤلاء كانت مئات من العبرانيين، والإسرائيليين الذين كانوا يعملون صيارفة وجماعي ضرائب على الهكسوس.

لقد تشتت هؤلاء العبرانيون والإسرائيليون في البلدان المجاورة حيث انصهروا هناك، وبقي جزء منهم في منطقة جاسان (الشرقية) الآن .. والذين خرجوا مع موسى، لا يمكن القول إنهم من أولئك الذين كان أجدادهم من أحفاد العبرانيين والإسرائيليين»[١].

لقد كانوا أتباع موسى ﷺ النبي الذي هداهم إلى دين التوحيد وكانوا مزيجاً من أقوام شتى، من المصريين وبني إسرائيل وغيرهم ممن آمن بموسى ﷺ وشريعته..

أما إسرائيليو اليوم فإنهم مزيج آخر من أقوام شتى من العالم ناشدهم (ليفي اشكول) في ٢٨تشرين عام ١٩٦٧ أمام (بعثة العهد الإسرائيلي) لإنشاء (إسرائيل الكبرى) ووجه نداء إلى يهود العالم ناشدهم فيه، إرسال المهاجرين والمستوطنين.

ثم انتقل الحديث عن (المحاولات الجديدة التي تواجه الأمة عقب انتصارها) فقال «لو سألتموني عن المطلوب لتحقيق هذه المجالات

---

(١) صهيونية الخزر وصراع الحضارات، ص٢٨.

الجديدة، لكان جوابي في كلمة واحدة بسيطة: نحتاج إلى مزيد من اليهود»[1].

وفي زيارته إلى كندا، ناشد الشعبية اليهودية الكندية الهجرة إلى إسرائيل (فلسطين المحتلة) على نطاق واسع، بقصد الاستيطان والإقامة الدائمة فيها، قال: إننا بحاجة ماسة إلى تدفق عشرات الألوف من يهود العالم الغربي، لينضموا إلينا في بناء الدولة الإسرائيلية وضمان بقائها. واضاف «لا تدعوا الناس يقولون في المستقبل: إن الشعب اليهودي، في العصر الحديث، خَلقَ دولة، وخسر شعباً»[2].

«ووقف أمام ستة آلاف طالب جامعي في مدينة نيويورك، مكرراً دعوته إلى الشبان اليهود، للهجرة إلى إسرائيل (ومساعدتها في تنمية ذاتها، وتعزيز أمنها) لأنه يريد أن يرى إسرائيل ـ فلسطين ـ مزدحمة باليهود من الحدود إلى الحدود»[3].

إذن الإسرائيليون يصح أن نقول إنهم أقوام شتى من شعوب مختلفة من العالم الغربي وحتى من العالم العربي تدينوا باليهودية وأغرتهم الفكرة الصهيونية لاحتلال فلسطين بعد أن أسموها (إسرائيل) فانتموا إليها وأُطلق عليهم اسم (الإسرائيليين) أو(بني إسرائيل) مع أنهم بعيدون أشد البعد عن هذه التسمية، ولا توجد أي رابطة بين التسمية وبين الحقيقة. فالربط جاء على لسان (ليفي اشكول) رئيس الحكومة الإسرائيلية في تموز عام ١٩٦٧م، حين قال: «علينا اليوم، بعد الانتصار العسكري، تغيير صورة التعبير عن الرابطة بين إسرائيل وبين الشعب اليهودي. اليوم نقول أمراً واحداً الهجرة، هجرة كبرى.. ومن واجبنا أن نسأل أنفسنا: ماذا

---

(١) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، د. جورجي كنعان، ص١١٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

سنعمل بكرمنا؟ كيف نحافظ على موجة حب صهيون العارمة؟ كيف نوجهها ونحولها إلى موجة من الهجرة؟»[1].

والجدير بالذكر أن الإسرائيليين اليوم هم اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين وهذا المفكر غارودي يوضح لنا ذلك:

«لقد استقبلت إسرائيل ٥٠٠ ألف يهودي هارب، ويكلف إدماج الفرد وتأهيله حوالى ثلاثة آلاف دولار، وبما أن إسرائيل أنقذت ضحايا النازية هؤلاء، وتحملت في غمار ذلك أعباءً ماليةً هائلة، فإنها ترى من حقها أن تفرض مطالبها باسم الشعب اليهودي، حتى وإن لم تكن هناك قاعدة قانونية في هذا الصدد، إذ إن الدولة العبرية لم تكن موجودة بعد في عهد النظام النازي»[2]

هؤلاء هم الإسرائيليون وليس أحفاد أولاد النبي يعقوب ﷺ وذريته. يقول روجيه غارودي:

«وخلاصة القول: إن هذا القانون[3] ، يعطي الحق لأي يهودي قادم من أي بقعة نائية في العالم أن يصير إسرائيلياً بمجرد أن تطأ قدماه مطار تل أبيب. أما الفلسطيني الذي ولد على أرض فلسطين من أبوين فلسطينيين، فهو يعتبر في نظر القانون الإسرائيلي مجرد شريد لا وطن له. ومع ذلك فالقانون، حسبما يرى البعض، لا ينطوي على أي تمييز عنصري ضد الفلسطينيين، فهو مجرد إجراء (لصالح اليهود) ليس إلا!»[4]

وهذا مصداق آخر على أن الإسرائيليين ليسوا بني إسرائيل أو ذريتهم بل إنهم اليهود المهاجرون إلى فلسطين من أي بلد كانوا أو أي جنسية حملوا

(١) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، د. جورجي كنعان، ص١١٦.
(٢) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص٣٠٦. نقلاً عن اليهودية وإسرائيل، ص٢٦٢.
(٣) أي قانون العودة إلى أرض الميعاد التي وعدهم الرب أن يورثها لهم حسب زعمهم المشؤوم.
(٤) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص٢٤٢.

أو إلى أي شجرة في النسب انتموا فإنهم بمجرد أن يصلوا إلى أرض فلسطين فإنهم يكونون (إسرائيليين) بالفعل، ويمنحون الجنسية الإسرائيلية.

إن مصطلح (إسرائيل) و(بنو إسرائيل) و(إسرائيلي) و(إسرائيليون) أصبح اليوم عند اليهود والصهاينة (قميص عثمان) لينالوا به مآربهم، بهذا الاسم يدخلون الشرعية ويضفون على قوانينهم وأقوالهم وأفعالهم صبغه دينية تؤكد أن أرض فلسطين وهبها الله للنبي يعقوب وهي إرث من بعده لبنيه ومن ثم لذريتهم الذين نسوا الأرض وقدسيتها حوالى ٢٠٠٠ عام وجاءوا اليوم ليطالبوا بها ويحاربوا ويسفكوا الدماء. بل لعل الله بعث بني إسرائيل من جديد والعالم في غفلة من أمره!!

من هم العبرانيون؟

اختلف المؤرخون وغيرهم في أصل العبرانيين ونسبهم فمنهم من قال: كل من انتسب إلى يعقوب النبي ﷺ فهو عبراني. وآخر قال: كل من انتسب إلى ابراهيم الخليل ﷺ وثالث راح يؤكد: من انتسب إلى (عابر بن شالح) أحد أحفاد سام بن نوح فهو عبراني. لكن المعطيات الأركيولوجية (علم الآثار) والمصادر التاريخية ترجح أن كلمة عبراني كانت مرادفة لأبناء الصحراء أو البادية بوجه عام، أو لفئة اجتماعية هامشية منهم.

أما التوراة فترجع سبب التسمية إلى عبور إبراهيم الخليل ﷺ النهر ولم تذكر اسم النهر، النص التوراتي يقول: «فأخذت إبراهيم أباكم من عبر النهر وسرت به كل أرض كنعان واكثرت نسله وأعطيته اسحاق.. الخ»[1]

الأستاذ (ولفنسون) يقول: «إن كلمة عبري في الأصل مشتقة من الفعل الثلاثي (عبر) بمعنى قطع مرحلة من الطريق، أو عبر الوادي أو النهر... أو عبر الطريق شقّها.. وكل هذه المعاني نجدها في هذا الفعل سواء في العربية

(١) سفر يوشع، الإصحاح ٢٤، العدد ٣.

أو في العبرية، وهي في مجملها تدل على التحول والتنقل الذي هو من أخص ما يتصف به سكان الصحراء أو البادية»[١]

ويقول أيضاً: «إن كلمة عبري إنما ترجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل كانوا في الأصل من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها وماشيتها للبحث عن الماء والمرعى»[٢]

ويقول هنري س. في أصل العبرانيين: «إن العبرانيين، شعب سام ينسبه العهد القديم إلى (عابر) أحد أحفاد سام بن نوح.

أطلقت التسمية على ذرية إبراهيم بصورة خاصة. ويعرف العبرانيون كذلك باسم (بني إسرائيل) نسبة إلى (إسرائيل) أي يعقوب الذي ترأس ابناؤه قبائل او أسباط إسرائيل الاثني عشر. ويطلق على العبرانيين كذلك اسم اليهود وذلك نسبة إلى اليهودية او إلى ارض يهوذا»[٣]

ولعلّ هذا النص لا ينسجم مع افكار د. احمد سوسة الذي يفرق بين العبرانيين من جهة وبين بني إسرائيل واليهود من جهة اخرى فيقول: «لا بد من توضيح نقطة مهمة تتعلق بأربع تسميات.. قد جرت العادة على عدها تسميات لمسمى واحد ومدلول واحد يمثل جميع الأدوار دون تمييز، في حين أن كلاً منها تم تداوله في عصر خاص به وله مدلوله الخاص به أيضاً يختلف عما هو مقصود به في التسميات الأخرى، ونعني بهذه التسميات: العبرانيين أو العبريين، ثم الإسرائيليين، فالموسويين (قوم موسى) فاليهود»[٤]

وجاء في كتاب مختصر الدول لابن العبري أن: (عابر بن شالح):

---

(١) تاريخ اللغات السامية، أ. ولفنسون، ص٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ٧٧.

(٣) معجم الحضارات السامية، ص٧٧.

(٤) العرب واليهود في التاريخ، المقدمة ف.

اشتق منه اسم العبري. وقيل من إبراهيم لعبوره الأنهار، منزوحاً من العراق إلى الشام[1]

إذن تردد القول في أصل (العبرانيين) بين النسبة إلى (عابر بن شالح) من أبناء سام بن نوح عليه السلام وبين الاشتقاق من (العبور) أو (عبور النهر) والتنقل من مكان إلى مكان. ولم يشذ ولفنسون في هذا وإن اخطأ في تعبيره بـ(الوطن الأصلي)، وإنما أراد أن حالهم التنقل من موطن إلى آخر.

فالعبرانيون إذن طوائف لا تنحصر في بني إسرائيل بشكل خاص، بل تشمل أقواماً آخرين سواهم، فيجدر بنا القول إن كل من انتمى إلى (عابر بن شالح) أو (النبي إبراهيم عليه السلام) عبري وعلى هذا فالعبرانية مصطلح أعم مما ينسبه الإسرائيليون إلى أنفسهم، لأسباب وأغراض هم أدرى بها!

يقول أ. ولفنسون: «تختلف الأقوال وتتشعب الآراء فبعض المستشرقين يرى ـ اعتماداً على نظرية أحبار اليهود القدماء ـ أن إبراهيم إنما عرف بالعبري لأنه عبر النهر على أننا لا نعلم أنهر الأردن هو أو الفرات؟ لأن كلمة نهر كانت تطلق في التوراة على كل الأنهر الكبيرة دون أن يضاف إليها ما يميز بعضها عن بعض.

وقال بعض العلماء إن إبراهيم وصف بالعبري لأنه منسوب إلى أحد آبائه الأقدمين الذي كان يعرف باسم عبر.. والذي يمعن النظر في جدول أبناء عبر إلى عهد إبراهيم الخليل يجد أغلب الأمم السامية إليه»[2]

لكن الأستاذ المذكور أعلاه يرفض هذه الآراء ويفندها قائلاً: «كلنا لا نرضى بهذين الرأيين ولا نوافق عليهما لأن كلمة عبري في الواقع لا ترجع إلى شخص بعينه أو حادثة معينة»[3]

---

(١) تاريخ مختصر الدول، ص١١.

(٢) تاريخ اللغات السامية، ص٧٧.

(٣) المصدر نفسه.

ويقول توماس طومسون: «لا توجد بينات تاريخية تربط بين رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وال (عابيرو) المذكورين فيها مع أصول إسرائيل، ومهما كانت الروابط اللغوية بين هذه التعابير المختلفة جذرياً، لا سبب يدعونا لأن نرى هذا الموضوع اللغوي، مرتبطاً بأي شكل كان بتاريخ أصول إسرائيل»[1].

أي إن العبرانيين هم البدو الرحل وأهل البادية وسكان الصحراء الذين اتصفوا أو اعتادوا على التحول والتنقل من بلد إلى بلد بحثاً عن الماء والزرع، فكلما جفّت منطقة سكناهم ارتحلوا إلى منطقة أخرى واتخذوها دار سكنٍ لهم وهكذا...

العبرانيون والإسرائيليون في التوراة:

عندما نستقرىء التوراة في حديثها عن العبرانيين نجدها تضع فواصل وفوارق بين العبرانيين والإسرائيليين، فتصف العبراني بأنه غريب عن الإسرائيلي: «فالإسرائيلي إذا اشترى عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً»[2].

وتقول التوراة كذلك في العبيد موضحة مكانة بني إسرائيل مفرقة بينهم وبين غيرهم:

«عبيدي الذين أخرجتهم من مصر لا يباعون بيع العبيد... وأما عبيدك وإماؤك الذين يكونون لك فمن الشعوب التي حولكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم... وأما اخوتكم بنو إسرائيل فلا يتسلط إنسان على أخيه بعنف... وإذا بيع أخوك لغريب المستوطن عندك أو لنسل عشيرة الغريب فبعد بيعه يكون له فكاك يفكه أحد من إخوته»[3].

---

(1) التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ص٤٦.

(2) التوراة، ٢١: ٢.

(3) التوراة، ٢٥: ٢٤، ٤٧، ٤٨.

ويقول الدكتور د.احمد سوسة: «. . . مصطلح (العبري) أو (العبراني) كان يطلق نحو الألف الثانية قبل الميلاد وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب في بادية الشام على غيرهم من الأقوام العربية في المنطقة حتى صارت كلمة عبري مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بوجه عام، وبهذا المعنى وردت كلمة (الأبري) و(الهبيري) و(الخبيرو) و(العبيرو) في المصادر المسمارية والفرعونية، ولم يكن للإسرائيليين والموسويين واليهود أي وجود بعد»[١].

وهذا يؤكد أن العبراني غير الإسرائيلي في حكم التوراة نفسها حيث يسمح للعبراني باستعباده ست سنين، أما الإسرائيلي فلا يستعبد أبداً، فالإسرائيلي باعتراف التوراة مميز وان الإسرائيليين فئة أو مجموعة تختلف في خصوصياتها عن العبرانية التي هي أعم منها. . .

لذلك يجب التميز بين العبري من جهة وبين الإسرائيلي أو الموسوي أو اليهودي من جهة أخرى في بحث تاريخ فلسطين القديم.

يقول أحمد سوسة: «ودليلنا على ذلك أن مصطلح (عبري) و(عبراني) لم يرد في القرآن الكريم مطلقاً وإنما ورد ذكر: (الإسرائيليين) و(قوم موسى) ويهود ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾[٢]. . »[٣].

ويقصد أن الإسرائيليين أو بني إسرائيل، غير العبرانيين، والعبرانيين مصطلح أعم وأشمل من الذين (هادوا) أو (قوم موسى)، أو (بنو إسرائيل) وغيرهم. .

وقد جاء في كتاب تاريخ اللغات السامية: «تنسب هذه اللغة إلى الأمة العبرية التي تتألف من بني إسرائيل وجملة شعوب أخرى تتصل بها القرابة الدموية كبني إسماعيل وبني مدين والعمالقة وآل أدوم وأهل موأب وعمون

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، المقدمة.

(٢) سورة البَقَـرَة: ٦٢.

(٣) العرب واليهود في التأريخ، المقدمة.

فكل هذه الأقوام تجعلها التوراة من ذرية إبراهيم العبري وقد كانت هذه الشعوب تلهج بلغة واحدة شبيهة بالكنعانية وكانت بلادها الأصلية على أطراف الجزيرة العربية إلى حدود كنعان (فلسطين) جنوباً وشرقاً وقد نجم بنو إسرائيل من بين القبائل العبرية في طور سيناء وشمال الحجاز ثم استولوا على فلسطين حوالى نهاية القرن الثالث عشر ق.م»[1].

«وقد كان الكنعانيون والمصريون والفلسطينيون يسمون بني إسرائيل بالعبريين لعلاقتهم بالصحراء وليميزوهم عن أهل العمران، ولما استوطن بنو إسرائيل أرض كنعان وعرفوا المدينة والحضارة صاروا ينفرون من كلمة عبري التي كانت تذكرهم بحياتهم الأولى، حياة البداوة والخشونة وأصبحوا يؤثرون أن يعرفوا باسم بني إسرائيل فقط»[2].

وهذا يؤكد أن الإسرائيليين غير العبرانيين، بالإضافة إلى التمييز بين العنصرين، كذلك هناك فارق بين بني إسرائيل واللغة العبرية التي يسمونها (اللغة المقدسة) وغيرها من التسميات، وقد تمسكوا بهذه التسمية بعد السبي البابلي «وليس يوجد في صحف العهد القديم ما يدل على أنهم كانوا يسمون لغة بني إسرائيل باللغة العبرية بل كانت تارة تعرف باسم اللغة اليهودية وطوراً باسم لغة كنعان ولم تُعرف باسم العبرية أو اللغة المقدسة إلّا بعد السبي البابلي في كتاب حكم ابن سيرا وفي مصنفات المؤرخ اليهودي يوصف وفي المشنا والتلمود»[3].

أسطورة الشعب المختار:

من هو الشعب الذي اختاره الله تعالى من بين الشعوب حسب زعم بني إسرائيل؟ هل هم الإسرائيليون أم العبرانيون أم اليهود أم قوم موسى (الموسويون)؟

---

(١) تاريخ اللغات السامية، أ. والفنسون، ص٧٧. .

(٢) المصدر السابق، ص٨٧.

(٣) المصدر السابق.

يقول الحاخام كوهين: «يمكن تقسيم سكان العالم إلى قسمين، إسرائيل من جهة، والأمم الأخرى متجمعة من جهة أخرى، فإسرائيل هي الشعب المختار، وهذه عقيدة أساسية...»[(١)].

أما تاريخ هذه التسمية فيرجع إلى زمن تدوين التوراة بعد السبي ـ سبي نبوخذ نصر لليهود ـ أي بعد زمن النبي يعقوب ﷺ (إسرائيل) بحوالى ألف وخمسمئة عام أو أكثر، وقد حالفهم النجاح في سرد تاريخهم حسب أهوائهم بلباقة ومهارة لم يسبق لها نظير في الأدب القديم، فقد أضفوا عليه صبغة دينية ليضمنوا قبوله من أتباعهم.

وقد ذكرنا قول د. أحمد سوسة إنهم عندما دوّنوا التوراة استهدفوا غرضين رئيسيين، أولهما تمجيد تاريخهم وجعل أنفسهم صفوة الأقوام البشرية والشعب المختار الذي اصطفاه الرب، والثاني إرجاع أصلهم إلى أقدس شخصية قديمة، أي إبراهيم وحفيده يعقوب[(٢)].

وابتدعوا فكرة الشعب المختار التي كان إبراهيم الخليل ويعقوب وموسى بريئين منها. وإذا جاء في القرآن الكريم﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(٣)] فالمقصود منها الزمن الذي عاشوا فيه، فقد كانت تحيطهم الحضارات الوثنية، كحضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل وغيرهما من الحضارات المعاصرة لزمن موسى ﷺ، ففضلهم الله تعالى على شعوب ذلك الزمان لأنهم (موحدون) أولاً، وأن منهم أنبياء ورسلاً عديدين «فضلهم الله على شعوب ذاك العصر. واللام في العالمين للعموم العرفي، لا للعموم الحقيقي، ويكفي في صحة التفضيل أن تكون لهم الأفضلية من جهة واحدة، لا من جميع الجهات، والجهة التي امتاز بها بنو إسرائيل هي أن الله أرسل منهم العديد من الأنبياء والرسل: فموسى

---

(١) التلمود، الحاخام كوهين، ص١٠٤.

(٢) انظر العرب واليهود في التاريخ، المقدمة.

(٣) سورة البَقَرَة: ٤٧.

وهارون ويوشع وعزير وزكريا ويحيى، وغيرهم كثير، وكلهم من بني إسرائيل.

ومهما يكن، فإن تفضيلهم على أهل زمانهم من وجه لا يدل على فضلهم وتفضيلهم على أهل ذاك الزمان من كل وجه، ولا على أن كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم، بل إن تضخم عدد الأنبياء فيهم ومنهم حجة عليهم، لا لهم، لأنه يدل على أنهم كانوا لشدة ضلالهم في أمسّ الحاجة إلى كثرة التحذير والإنذار»[1].

أما سبب ادعائهم أنهم شعب الله المختار، فيقول القرآن الكريم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[2].

وهذا القول يردُّ عليه القرآن الكريم في نفس الآية الكريمة بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾[3] أنتم بشر لا تمتازون عن غيركم في شيء، فلا أنتم شعبه المختار ولا أبناؤه ولا أحباؤه ولا أي شيء مما تزعمون، وقولكم هذا افتراء على الله تعالى، وهو قولٌ اختلقه اليهود ليبرزوا من بين البشر، وتبعهم النصارى في هذا القول، وأبرز ما في ادعائهم هو التمني (وهو رأس مال المفلسين كما يقول المثل)، فاليهود رأوا عذاب الدنيا على يد الفراعنة، ونبوخذ نصر والرومان و... وغيرهم وذاقوا أنواع التشريد والتشتيت، فتمنوا أن يكونوا متميزين عن غيرهم فدّونوا التوراة وبصموا فيه ما أرادت أنفسهم وتمنت وهوت.

إذن التفصيل الذي ورد في القرآن الكريم توضحه الآية الكريمة في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٤٠﴾[4]

---

(١) تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، مج١، ص٩٥ ـ ٩٦.
(٢) سورة المائدة: ١٨.
(٣) سورة المائدة: ١٨.
(٤) سورة الأعراف: ١٤٠.

وهذه الآية تتحدث عن طلبهم من موسى عليه السلام وهو أن يجعل لهم إلهاً كما للناس آلهة حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم.

وتوبيخ موسى عليه السلام لهم على طلبهم إلهاً غير الله وهو الذي أنجاهم من سوء العذاب وفضلهم على فرعون وقومه وعلى كل الوثنيين وعبدة الأصنام في ذلك الزمان ـ بانفلاق البحر ونجاتهم من فرعون وقومه، ثم تفجير العيون من الصخر بعدد قبائلهم، وإنزال المن والسلوى عليهم في سيناء، وتظليل الغمام لهم من حر الشمس، وطلبهم أن يطعمهم الله تعالى الفوم والقثاء والعدس والبصل، وكل ما أرادوا، طلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو لهم الله، والله جل وعلا يستجيب لهم.. فهذه الاستجابة، ثم قول موسى عليه السلام لهم ﴿...فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يصورها كتبة التوراة أنها تفضيل عام وأنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم شعبه المختار من بين شعوب العالم، فاستكبروا وطغوا، وتعددت الأسباب لهذا العلو والاستكبار والهدف واحد.

«إن فكرة (الشعب المختار) تعني أن هذه المجموعة التي تنتمي إلى هذا الشعب ـ اليهودي ـ متفوقة على بقية المجموعات البشرية. وقد سادت هذه الفكرة عند الكثير من الشعوب القديمة. ولكن لم يعد أحد يتمسك بهذا الادعاء باستثناء الحركة الصهيونية وخاصة بعد سقوط النازية والفاشية وانهيار نظام الأبارتيد في جنوب أفريقيا»[1].

والجهل المركب الذي ابتلي به اليهود وانهم متفوقون حقاً وأن هذه الأسطورة حقيقية لا خيال فيها ولا هدف خاصاً يقول أحاد هعام: «وهكذا، فإننا إذا سلمنا بأن الهدف من كل وجود إنما هو ظهور الإنسان المثالي المتفوق، فإن جزءاً هاماً من هذا الهدف يتحقق من خلال شعب مثالي متفوق. فلا بد إذن من ظهور شعب كهذا يتمتع بطاقة فكرية تجعله أقدر وأكفأ من سائر الشعوب الأخرى وأكثر ميلاً إلى تنمية وتطوير أسس

---

(١) صهيونية الخزر وصراع الحضارات، ص١٣٦.

خلقية وطريقة معيشة مبنية على أسس من المبادئ التي تنتجها بقية الشعوب»[1].

ويقول كذلك: «من الطبيعي أن يسلم الإنسان بحقيقة وجود درجات كثيرة في سلم الخليقة. مبرراً بظهور الكائن غير العضوي. فالنباتات والحيوانات والمخلوقات القادرة على النطق يتقدمها جميعاً الجنس اليهودي)[2].

بينما نرى القرآن الكريم يرد على هذه الافتراءات بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[3].

وعلى هذا فشعب الله المختار عند الله تعالى هو الأتقى﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾ فهل تنطبق هذه الكلمة على الشعب اليهودي الذي لعنه الله وغضب عليه إلى يوم يبعثون نتيجة سفكهم الدماء وقتلهم الأنبياء و. . . و. . .الخ؟.

إن الله تعالى كرّم بني آدم جميعاً ولم يضع فواصل بين قوم وآخرين ـ قال تعالى:

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[4].

أسطورة الأرض الموعودة:

ادّعت اليهود أن الله تعالى وهب لهم مساحة خاصة من أرضه وحددها بحدودها لأنهم شعبه وأحباؤه وأبناؤه معتمدين في ادعائهم هذا على قول التوراة التي جاء فيها:

---

(١) ستيفان غورانوف: ندوة طرابلس حول الصهيونية والعنصرية ص٣٦ نقلاً عن الصهيونية: سلاح الإمبريالية السام ص١٠٧ (باللغة الروسية).

(٢) المصدر السابق ص٣٦ نقلاً عن: سوريزدي لابنس جوف كونتمبورين، ص٤٩.

(٣) سورة الحُجرَات: ١٣.

(٤) سورة الإسرَاء: ٧٠.

«سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير، نهر الفرات. . »[١].

وجاء على لسانهم ـ اليهود المعاصرين ـ في القراءة المتزمتة للصهيونية الاستعمارية: «إذا كنا نملك التوراة، ونعتبر أنفسنا شعب التوراة، فمن الواجب علينا أن نمتلك جميع الأراضي المنصوص عليها في التوراة»[٢].

ولو استقرأنا التاريخ عن الظروف التي أحاطت زمن كتابة وتدوين التوراة لأعطينا الحق لكتبة التوراة على خلقهم هذه الأسطورة وهذه الاكذوبة التي لا أصل لها إلّا أنهم أرادوا أن يشذوا عن معاصريهم.

فقد جاء في كتاب أديان الشرق الأوسط: «تُبين لنا قراءة النصوص المقدسة في منطقة الشرق الأوسط أن جميع شعوب المنطقة، من بلاد النهرين إلى مصر بما في ذلك الحيثيون، قد تلقوا وعوداً مماثلة، حيث كان الإله يَعِدُ كل شعب بالأرض. ففي مصر نجد المسلة الضخمة في الكرنك، والتي شيدت في عصر تحوتمس الثالث بين عامي (١٤٨٠و١٤٧٥) قبل الميلاد، تمجيداً لانتصاراته في غزة ومجيدو وقادش وقردميش (الواقعة على نهر الفرات) وقد دُونت عليها عبارة الإله: «أمنحك هذه الأرض بامتدادها في جميع الجهات لتكون لك شرعاً. لقد جئتُ لأزودك بكل السبل لكي تجتاح الأراضي الغربية). وعلى جانب آخر في منطقة (الهلال الخصيب) في بلاد ما بين النهرين، نجد في (أنشودة الخلق البابلية) أن الإله مردوخ (يحدد لكلٍ نصيبهُ) (البيت ٤٦) ويأمر ببناء بابل وتشييد معبد فيها.

ومن مصر إلى بلاد ما بين النهرين، كان الحيثيون ينشدون لربة الشمس أرينا قائلين: (أنت تحرسين أمن السماوات والأرض، وتعينين حدود

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ١٠، رقم ١٨.

(٢) الجنرال موشي ديان، صحيفة جيروزاليم بوست، ١٠ أغسطس، آب ١٩٦٧م.

الأرض) ولو لم يكن اليهود تلقوا وعداً كتلك الوعود، لأصبحوا دون شك حالة شاذة»[1].

فإنهم دون شك والحالة هذه ـ بالإضافة إلى حالة الاستعلاء والكبرياء التي حملتها نفوسهم ـ واكبوا أبناء عصرهم في الادعاءات الكاذبة ووعود الإله أو الرب بالهبات والضمانات و. . . و. . . الخ.

وهنا نقف لنسأل اليهود أنفسهم وأحبارهم لماذا لم يفهموا هذا الوعد التوراتي ولم يدّعوا به طوال ما يقرب من (٢٠٠٠) عام قضوها طواعية واختياراً بعيداً عن فلسطين وأرضها وقدسها. . . أين كانت عقولهم قبل الفكرة الاستعمارية الصهيونية لاحتلال فلسطين؟ لنرجع إلى التوراة ثم إلى القرآن الكريم حول ذكر الأرض الموعودة أو الأرض المقدسة لنرى هل هناك نقطة مشتركة بينهما أم أن التوراة تعني شيئاً والقرآن يعني شيئاً آخر لنبدأ بالتوراة: «سأعطي نسلك هذه الأرض من وادي العريش إلى النهر الكبير، نهر الفرات»[2] وقول القرآن الكريم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾[3].

النص التوراتي يبين أنهم سيرثون الأرض التي وعدوا بها وتكون ملكاً لهم وحقاً موهوباً من قبل الله تعالى بلا قيد ولا شرط.

بينما النص القرآني يوضح القصة المأساوية التي عاشها قوم موسى في مصر وجور الطاغية فرعون وظلمه لهم، وإرادة الله تعالى في نجاتهم من ذلك الظلم والجور بأن أمر موسى عليه السلام أن يخرج بهم إلى القدس لأنها أرض مقدسة ليستقروا فيها ويمارسوا طقوسهم وشعائرهم مع نبيهم المرسل الذي يوجههم الوجهة الصحيحة، فكتب الله لهم أن يستقروا في الأرض لكنهم عتوا ولجوا وعاندوا نبيهم وقالوا له: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن

(١) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص٤٥ (الحاشية).
(٢) التكوين، ١٥، ١٨.
(٣) سورة المائدة: ٢١.

﴿نَدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1] أي يا موسى أخرج أهلها منها وقاتل معهم أنت وربك وبعد ذلك ندخل نحتل الأرض، فكان الله تعالى لهم بالمرصاد نتيجة عنادهم ولجاجتهم واعتراضهم على أمر الله تعالى وهو ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[2] أي أمر لكم وثبت، فعصوا الله ورسوله ولم يدخلوا إلّا بشرط فحرَّمها عليهم أبداً.. قال تعالى:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[3].

يقول عبد الوهاب النجار في تفسيره لهذه الآية: «..أن يوقف عند قوله: ﴿...فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ ويبدأ بقوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4] لأنها حرمت عليهم تحريماً أبدياً لا تحريماً مقيداً بأربعين سنة..[5] أي محرم عليهم أن يستقروا فيها وينعموا كما أراد الله تعالى لهم وحتى لو دخلوها بعد التيه المفروض عليهم، فإن عقابهم الخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة وهو غضب الله عليهم، بعد أن سقطوا في أغلب الاختبارات والامتحانات.

إسرائيل بين التاريخ والجغرافية:

إسرائيل مصطلح استُخدم قديماً وحديثاً، وأصله اسم لشخص تحوّل إلى اسمٍ لبقعة من الأرض ثم إلى حركة استعمارية ربطت اسمها باسم الأرض...

والأمر الذي ينبغي أن لا يغيب عن الأذهان هو أن التوراة عندما

---

(١) سورة المائدة: ٢٤.

(٢) سورة البَقَرَة: ١٨٧.

(٣) سورة المائدة: ٢٦.

(٤) سورة المائدة: ٢٦.

(٥) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٢٢٨.

دوّنت قسمت تاريخ اليهود إلى عصور متعاقبة، عصر الآباء ثم الأبناء ثم الأحفاد ثم الاستضعاف في مصر ثم خروجهم منها ودخلوهم الأرض الموعودة و. . . و. . . الخ. . ليقترن اسمها أصلاً وأبداً بإسرائيل النبي يعقوب عليه السلام.

«ويعرض لنا رواة التوراة تاريخ أصول إسرائيل كسلسلة من العصور المحددة تحديداً دقيقاً. فهم يدرجون كل الذكريات والقصص والخرافات والحكايات والأشعار التي انتقلت إليهم عبر التراث الشفهي، ضمن إطار محدد للأنساب والتواريخ. ويتفق معظم الشُرّاح المحدثين على أن هذه الصورة التاريخية لا تعدو أن تكون صورة وهمية إلى حد كبير.

وقد برهنت أعمال (ألبرخت آلت) و(مارتن نوت) على وجه الخصوص، أن تقسيم التاريخ إلى عصور متعاقبة (الآباء ـ السحرة في مصر ـ غزو كنعان) هو تقسيم مصطنع»[1].

فإسرائيل التاريخ: هو مصطلح المقصود به شخص النبي يعقوب عليه السلام ابن النبي إسحاق ابن النبي إبراهيم عليه السلام وأبناؤه الاثنا عشر (بنو إسرائيل) من زوجاته الأربع.

أما إسرائيل الجغرافية: «فقد أظهرت الاكتشافات الأخيرة أن كلمة إسرائيل كانت اسماً لموضع في فلسطين وهي تسمية كنعانية، وبهذا المعنى وردت في الكتابات المصرية التي ترجع إلى ما قبل عصر موسى عليه السلام»[2].

وقد تكون التسمية قد جاءت من سكنى يعقوب عليه السلام فيها أو مروره بها أو غير ذلك. . يقول توماس طومسون:

«. . . إسرائيل هو بوضوح اسم دولة عاصمتها السامرة في الحقبة

(١) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، روجيه غارودي، ص٤٣.
(٢) العرب واليهود في التاريخ، المقدمة (ص.ق).

الآشورية. (القرن الثامن قبل الميلاد) وفي المرويات التوراتية في فترة ما بعد السبي، فإن هذا التحديد لا يستمر في المرويات فحسب، بل أصبح اسم (إسرائيل) يستعمل لجد عرقي وشعب فلسطين كلّه أيضاً، مما يعكس الزعم بوحدة أثنية في الأيديولوجية الدينية..»[1].

«وعدا عن استخدم تعبير (إسرائيل) لوصف المرتفعات الوسطى في فلسطين.. وهو مثير للإشكال، فهو لا يلائم أي منطقة في فلسطين قبل العصر الحديدي الثاني، وحتى عندئذ لا يمكن إطلاقهُ بثقة، إلّا على تلك الدولة الإقليمية الموعودة (إسرائيل) والتي كانت عاصمتها السامرة»[2].

والنتيجة أن إسرائيليي الأمس هم الذين انتموا نسباً إلى النبي يعقوب ﷺ، أما إسرائيليو اليوم فهم الذين انتموا إلى أرض فلسطين سواء كانوا فيها أو جاءوا من أي بقعة نائية في العالم، فبمجرد أن تطأ أقدامهم مطار (تل أبيب) يصبحون إسرائيليين ويُمنحون الجنسية الإسرائيلية[3].

إذن إسرائيل التاريخ هو نسب النبي يعقوب ﷺ أي الرجوع في النسب إلى الأصل في شجرة الأنساب، أما إسرائيل الجغرافية فهي الأرض التي سُميت باسمه الشريف، فمن انتمى إلى هذه الأرض وكان يهودياً فهو إسرائيلي أما غير اليهودي فيُعتبر في نظر القانون الإسرائيلي مجرد شريد لا وطن له.

بنو إسرائيل في القرآن الكريم:

تحدث القرآن الكريم في آيات عديدة عن بني إسرائيل، وعن أفعالهم مع النبي موسى ﷺ وسلوكهم غير المتوازن، وعن عنادهم ولجاجتهم معه و..و..الخ، وخاطبهم بشكل عام باللعنة والغضب الإلهي إلى يوم يبعثون،

---

(١) صهيونية الخزر وصراع الحضارات، ص٢٦ نقلاً عن التاريخ القديم للشعب اليهودي، توماس طومسون، ص٩٩.

(٢) المصدر السابق، نقلاً عن المصدر نفسه، ص٢١٣.

(٣) انظر الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، ص٢٤٢.

وبالخزي والعقاب الأليم يوم القيامة وغير ذلك، الآيات الكريمة التي تحدثت عن بني إسرائيل بشكل خاص أي الذين عاشوا زمن موسى عليه السلام أو بشكل عام أي في ذلك الزمان وما بعده إلى يوم يبعثون. من هم هؤلاء الذين ورد ذكرهم في هذه الآيات في القرآن الكريم؟ هل هم أبناء النبي يعقوب عليه السلام أم الذين استضعفوا عند الفراعنة ثم كانوا قوم موسى عليه السلام الذين خرجوا معه من مصر وأنجاهم الله من العذاب الذي وقع عليهم، أم اليهود بشكل عام؟ أم بنو إسرائيل اليوم ـ الإسرائيليون ـ ؟.

لو رجعنا إلى زمن نزول القرآن الكريم، والتسمية الشائعة لليهود في ذلك الزمان وما جاء في توراتهم عنهم وما أطلقت عليهم من التسميات وغيرها من الأمور، لتأكد لنا أن القرآن الكريم خاطبهم بلسانهم كما خاطب عرب الجاهلية وغيرهم بلسانهم، كما أشار القرآن الكريم إلى تحريف التوراة وجعل الويل والعذاب للذين كتبوه بأيديهم وحرفوا كلام الله لصالحهم ولخدمة مصالحهم خصوصاً بعد السبي فقال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

فكتبوا التوراة ودوّنوا ما أرادوا تثبيته ليشتروا الدنيا وحطامها وزينتها، ليشتروا المتاع القليل، المتاع في الدنيا والأرض التي حددتها عقولهم وأهواؤهم فأطلقوا على أنفسهم (بني إسرائيل) وشاع الاسم عليهم وخاطبهم القرآن الكريم بما شاع عليهم من التسمية آنذاك وفي زمن موسى عليه السلام، مع أن المعطيات الأركيولوجية وعلم الآثار والمصادر التاريخية تؤكد أن الذين خرجوا مع النبي موسى عليه السلام من مصر وأنجاهم الله تعالى من فرعون، وجنوده كانوا كل من آمن بموسى عليه السلام وربه أي كانوا خليطاً من الإسرائيليين والمصريين وغيرهم من المؤمنين بالتوحيد والذين استُضعفوا بأرض مصر على يد الفراعنة، لكن التوراة أطلقت على

---

(١) سورة البَقَرَة: ٧٩.

كل من خرج مع موسى عليه السلام أنه من بني إسرائيل وشاع في الجزيرة العربية بين اليهود وغيرهم أن اليهود، كل اليهود (بنو إسرائيل)، ولكن نرجع ونسأل هل كل من تهوّد يرجع في نسله إلى يعقوب النبي عليه السلام، كما نسأل هل كل من أسلم هو من نسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم؟

اليهود كغيرهم هم أقوام شتى من شعوب شتى وحتى من بلدان شتى جمعهم الدين اليهودي لهدف واحد...

فعندما يقول القرآن الكريم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾[1].

يريد الله تعالى أن يبين للناس بشكل خاص وللتاريخ بشكل عام أنه «ما عرف التاريخ قوماً أشد عناداً للحق، وعداء للخير من اليهود، فقد كانوا ضالين مضلين محرفين يوم كانوا أذلاء محكومين، أما اليوم، وبعد أن خلق لهم الاستعمار دولة القراصنة والسفاحين، فلم يقفوا عند الضلال والإضلال والتحريف، بل صاروا رمزاً للشر العالمي، وسلاحاً فتاكاً يملكه كل مستعمر ومتآمر على العباد والبلاد، ومقياساً يميز قوى الشر والغدر عن قوى الخير والتحرر.. فما من دولة استعمارية في هذا العصر تهدف إلى استعباد الشعوب إلّا وتلجأ إلى إسرائيل لتحقيق أهدافها ومراميها، وما من فئة مستغلة باغية في الشرق والغرب إلّا تستعين في حماية مصالحها بهذه العصابة الغاشمة الآثمة»[2].

فالآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن اليهود أو عن بني إسرائيل لا تضع بينهم فروقاً غالباً، بينما تميّز في مواضع أخرى وهذا قليل، ولكنها

---

(١) سورة النِّسَاء: ٤٦.

(٢) الكاشف، مج٢، ص٣٣٨.

في قساوة قلوبهم أو لجاجتهم وعنادهم مع الأنبياء والرسل وسفكهم للدماء واللعن الدائم عليهم والغضب الإلهي وغير ذلك يكلمهم ويخاطبهم ببني إسرائيل أو (يا بني إسرائيل) والقصد من ذلك هم اليهود أو (الذين هادوا) وليس الذين يرجع نسلهم إلى يعقوب النبي عليه السلام وأبنائهم الاثني عشر وأحفادهم، بل من صار يهودياً..

مصر تستقبل بني إسرائيل:

وِلد لإسرائيل (يعقوب عليه السلام اثنا عشر ولداً، ولدوا كلّهم باعتراف التوراة في فدان آرام (منطقة حران) حيث مكث عليه السلام مع أسرته عشرين عاماً[1].

وقد عرضت التوراة قصة يوسف مع إخوته وما حدث له في مصر بعد بيعه للعزيز، وكيف دخل في خدمة الفرعون وتولى إدارة شؤون الدولة وتولى منصب الوزارة و..و.. وسيكون الفصل القادم مخصصاً ليوسف عليه السلام والأحداث التي مرَّ بها منذ الولادة حتى الوفاة.

تولى يوسف عليه السلام منصب الوزارة المالية، وحدثت مجاعة في البلدان المجاورة لمصر حتى فلسطين إلّا مصر، وبتدبير من يوسف عليه السلام صارت ملجأ الجياع وملجأ الخير والبركة مما اضطر يعقوب عليه السلام إرسال أبنائه إلى مصر، فعرفهم يوسف عليه السلام وأكرمهم، وكانت هذه الواقعة سبباً في اتخاذ يوسف عليه السلام القرار في دعوة يعقوب ليستقر في مصر ويكون آمناً فيها هو وأسرته وقد ساعد منصب يوسف على ذلك، علماً أن المعروف عن مصر أنها لا تقبل الغرباء ولا تستقبلهم، ولكن كان دخولهم مصر واستقبالها لهم قد تم في عهد الهكسوس حوالى عام (١٧٣٠ ـ ١٥٨٠ ق.م) وكان الآمر الناهي فيها يوسف عليه السلام الذي تم استقباله لهم على أكمل وجه.. وهذا ما ساعدهم على العمل فيها والانصهار في المجتمع

---

(١) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٣١، عدد ٢٨.

المصري بحكم منصب ولدهم يوسف عليه السلام واندماجه في المجتمع المصري خاصةً بعد أن تزوج من (أسنات) بنت (فوطي فارع) رئيس الكهنة في مصر وولدت له ولدين هما (منسي) و(إفرايم). ونشأ في مصر مع أبناء أعمامهم وأعمامهم أنفسهم وجدهم. وبحكم المصاهرة ذابت أغلب أسرة إسرائيل حسب ما يبدو من الآثار في المجتمع المصري.

الفصل الثالث

يوسف (ع) وزيراً عند المصريين

١ ـ يوسف الصدّيق (ع) من بني إسرائيل

٢ ـ أثير عند أبيه

٣ ـ بيعه للمصريين

٤ ـ موقف امرأة العزيز منه

٥ ـ في سجن المصريين

٦ ـ تأويله الأحلام

٧ ـ (إسرائيلي) يصبح وزيراً في مصر

٨ ـ دعوته للتوحيد في مصر

٩ ـ يوسف (ع) ومنصب الوزارة.

يوسف (ع) وزيراً عند المصريين

بعد أن عرفنا ـ من خلال ما سبق ـ معنى إسرائيل وبني إسرائيل ومعنى عبري أو عبراني وعبرانيين، ونظرنا في أحوالهم وأوضاعهم وترحالهم وتجوالهم طلباً للماء والمرعى، وتأكد لنا الفرق بين إسرائيل الأمس وإسرائيل اليوم وإسرائيل التاريخ وإسرائيل الجغرافية: أي إسرائيل الشخصية وإسرائيل الأرض.

بعد أن عرفنا ذلك كله ندخل في هذا الفصل وما بعده في تفاصيل الهدف من البحث وهو: هل أنَّ لبني إسرائيل دوراً في بناء الحضارة المصرية أو حضارة وادي النيل القديمة وما علاقتهم بها، ثم ما هي علاقتهم بالأرض الموعودة أو المقدسة قبل الخروج منها وبعد الدخول فيها؟

وفي هذا الفصل سنخصص الكلام عن النبي يوسف ﷺ باعتباره أحد أبناء إسرائيل (يعقوب النبي ﷺ) الأثير عند أبيه الذي كان سبباً في دخولهم مصر والبقاء فيها، فقصته ﷺ من أجمل القصص التي احتفت بسردها الكتب السماوية والمصادر التاريخية، فاستوعبتها ابتداءً بذكر أبويه وطفولته وخصاله، حتى آخر أدوار حياته الشريفة، فتشابه العديد من تفاصيل هذه القصة الطويلة، ناهيك عن صورتها الإجمالية في جميع مصادرها، لكن ثمة تفاصيل وقع الاختلاف فيها. . والذي يهمنا منها: أن النبي يوسف ﷺ من بني إسرائيل ولد في (فدان آرام) وقيل (حرّان) وقد هاجر به أبوه وإخوته والعائلة إلى أرض فلسطين التي هي أرض

غربتهم طلباً للماء والمرعى، كان يوسف أثيراً عند أبيه فحسده إخوته فكادوا له كيداً و. . و. . حتى بيع للمصريين وشاء الله تعالى أن يجعله وزيراً للمالية والتموين، والأهم من ذلك في قصة يوسف عليه السلام علاقته بالعبرانيين والإسرائيليين ودعوته للتوحيد في مصر الوثنية، وأبنائه من بعده وأبناء إخوته ومصيرهم وذريتهم إلى ظهور النبي موسى عليه السلام.

فمن خلال سرد قصته عليه السلام نأمل أن نجد الجواب عن كل مبهم وغامض في حياة بني إسرائيل الأصل، وعلاقتهم ببني إسرائيلَ موسى عليه السلام ثم بإسرائيل اليوم وإسرائيل الجغرافية (الأرض).

يوسف الصدِّيق (ع) من بني إسرائيل:

إن ادعت اليهود أن النبي يوسف عليه السلام من بني إسرائيل فلا شك بذلك ولا يختلف فيه اثنان، فهو ابن النبي يعقوب عليه السلام الذي كان اسمه الثاني (إسرائيل) وترافق معه هذا الاسم أو هذه الصفة طيلة حياته الشريفة نتيجة خالص عبادته لله تعالى، وقد وصف بعبد الله أو جندي الله والمخلص لله، فالنتيجة الطبيعية أن من يولد من صلبه يكنى به، فيوسف الصديق عليه السلام واحد من بني إسرائيل الاثني عشر الذين ذكرناهم في الفصل السابق مع بعض تفاصيل حياتهم.

فالنبي يوسف من بني إسرائيل نسباً لأبيه يعقوب عليه السلام ويعقوب ابن لإسحاق وإسحاق ابن للنبي إبراهيم الخليل عليه السلام الذي كان معروفاً بالعبري أو العبراني بسبب عبوره البحر كما قيل أو لنسبه لجده (عابر بن شالح)، إن كان هذا أو ذاك فقد عُرف إبراهيم الخليل عليه السلام بالعبراني، والنتيجة الطبيعية حين يكون يوسف عليه السلام من أحفاده فإنه يحمل لقبه، ولعل يوسف عليه السلام كان في بداية دخوله مصر غير معروف النسب إلّا بعد أن أصبح وزيراً شهيراً في مصر واستقبل أهله على رؤوس الأشهاد وثبت

نسبه لأبيه يعقوب المعروف بالعبراني، وقد عُرف يوسف ﷺ أيضاً بهذا اللقب.

ولكن أين كان اليهود يومذاك؟ وهل كانت الديانة اليهودية موجودة؟ وكيف تنسب التوراة اليهودية ليوسف ﷺ؟

سوف ندخل في بعض تفاصيل حياة النبي يوسف ﷺ لنميط اللثام عن الملابسات التي وقع بها المغفلون من اليهود عن الحق والحقيقة.

إن النبي يوسف ﷺ هو الابن الحادي عشر للنبي يعقوب ﷺ حسب التسلسل، وأمه (راحيل) الزوجة الأثيرة ليعقوب ﷺ والأخت الأصغر لزوجته الاولى (ليا) بنات خاله (لابان)، أمهر كل واحدة منهما بعشر سنوات عمل من عمره كان يرعى أغنام خاله، ومن هاتين الزوجتين وجاريتيهما (زلفى وبلهة) أنجب يعقوب ﷺ أبناءه الاثني عشر.. حتى شاء له الله تعالى أن يعود إلى فلسطين أرض أبيه إسحاق وأمه (رفقة) بعد أن قضى أكثر من عشرين عاماً في أرض العراق في (فدان آرام). وفقد الزوجة الأثيرة على قلبه (راحيل) فقدها وهي تضع ولدها بنيامين، فأصبح يعقوب ﷺ الأب والأم معاً لابنيهما (يوسف وبنيامين) فقربهما إليه حباً ولم يكن باستطاعته أن يمسك قلبه عن هذا الحب فإحساس القلوب لا يملكه أحد.

هاجر يعقوب ﷺ ببنيه وزوجاته الثلاث بعد أن ودّع الحبيبة (راحيل) إلى الأبد في أرض (فدان آرام) واصطحب معه عدداً كبيراً من الأغنام والماشية التي وهبها له خاله بعد خدمته له عشرين عاماً، وتكاثرت هذه الأغنام والماشية، وتضاعفت أعدادها، وضاقت بها أرض (عبرون) محل سكنى إسحاق ﷺ فاشترى مزرعة (شكيم) بمئة شاة، وعهد إلى أبنائه بقيادة كبيرهم راؤوبين برعايتهما في تلك المنطقة.

كان إسحاق ﷺ ما زال على قيد الحياة وكان يدين بدين أبيه إبراهيم ﷺ وكان يعقوب ﷺ يدين بدينه وأبناؤه كذلك، ودين

إبراهيم عليه السلام كان الإسلام كما يذكر القرآن الكريم فلم يكن يهودياً ولا نصرانياً، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1]

توفي إسحاق عليه السلام وبُعث يعقوب عليه السلام نبياً ولم يُغير من سُنة إبراهيم عليه السلام شيئاً وورث صُحف إبراهيم عليه السلام ليهدي الناس بها إلى دين الحق، وبقي في أرض (حبرون) من فلسطين إلى أن شاء الله تعالى أن يتغرب عنها إلى أرض مصر بعد فراق أليم بينه وبين يوسف الأثير عنده، فراق دام ثلاثين سنة تزيد أو تقل إلّا أنها كانت تمر ببطء على قلب يعقوب الذي ابيضت عيناه من البكاء والحزن والألم على فراق يوسف الذى دبّر له إخوته العشرة المؤامرة الشنعاء بحقه ليخلو لهم وجه أبيهم وينسى حب يوسف، وقد فعلوا فعلتهم غيرةً منهم وحسداً. لكن الله تعالى جعلها خيراً ليوسف ليرفعه عليهم وليسجدوا له تذللاً.

أثير عند أبيه:

لقد وهب الله تعالى يوسف عليه السلام من شفافية الايمان ونقاء البصيرة، وبهاء الطلعة، والخلق الرفيع منذ نعومة اظفاره ما يهيئه ليكون ذا شأنٍ أكبر من شأن بقية إخوته، وشاء القدر أن ينشأ من دون أم ـ الزوجة الحبيبة ليعقوب عليه السلام التي كانت أكثر قرباً إليه من زوجاته كلهن، والتي أنجبت له بعد طول انتظار أقرب وأحب أبنائه إليه، يوسف، ثم بنيامين، الذي انتهت به الحياة وهي تضعه، فحزن عليها يعقوب عليه السلام كثيراً وقرّب ابنيها ليعوّضهم حنان الأم ورعايتها وحبّها ـ وكان يوسف عليه السلام يختلف عن إخوته في كل سلوكياته فهي النسخة المكررة من أبيه يعقوب وجدّيه إسحاق وإبراهيم (عليهم السلام جميعاً).

فمن مقدمات النبوة أن يكون صادقاً مؤدباً خلوقاً. . .الخ إن هذه

---

(١) سورة آل عمران: ٦٧.

السلوكيات قرّبته من أبيه أكثر فأكثر، ثم إن يعقوب عليه السلام ادرك حتماً مستقبل يوسف عليه السلام، وكل هذه وغيرها جعلت من يوسف عليه السلام ولداً أثيراً مقرّباً محبوباً عند أبيه، حتى فاض حبه وظهر، ولا يمكن أن يكون سراً، فرأى أبناء يعقوب عليه السلام من إيثار أبيهم ليوسف وحدبه عليه ما لم يكن منه لواحد منهم فغاظهم ذلك: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾[1].

أضمروا له الشر وكانوا في سن الشباب وطيش الحداثة فاتفقوا على التخلص منه فكلٌ أدلى بدلوه ليقترح أمراً في القضاء عليه فقال أحدهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[2].

ثم اقترح آخر غير ذلك ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾[3].

ومما يؤكد محبة النبي يعقوب عليه السلام ليوسف عليه السلام ابيضاض عينيه على فراقه بعد المؤامرة التي دُبّرت ليوسف عليه السلام، وكذلك قول يعقوب عليه السلام عندما رجع الركب من مصر يحملون قميص يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾[4] أي إنك ما زلت على حبك القديم الذي لمسناه فيك ليوسف عليه السلام الذي آثرتَهُ علينا وخصصته بقسط عظيم من محبتك التي كانت سبباً في حقدنا على يوسف ومحنته.

لكن محنة يوسف عليه السلام كانت خيراً وبركة عليه وعلى الأمم القريبة من مصر وعلى مصر وأهلها بتدبيره وحكمته وفطنته...

---

(١) سورة يوسف: ٨.
(٢) سورة يُوسُف: ٩.
(٣) سورة يُوسُف: ١٠.
(٤) سورة يُوسُف: ٩٤-٩٥.

استمر الأخوة العشرة تتصارعهم الأفكار في الخلاص من يوسف، وكانت الاقتراحات متعددة، فمنهم من اقترح القتل ومنهم من اقترح النفي والتشريد و﴿...ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾، وكان الاقتراح الآخر الذي استحسنه الجميع إلقاءه في غيابة الجب، لعل بعض المارّة تلتقطه فيكون رقاً لا يستطيع الرجوع إلى أبيه وبذلك يكونون قد تخلصوا من جريمة القتل التي تحرمها شريعتهم، وتعاليمهم تقول لهم إنهم لن يجنوا من وراء هذه الجريمة الّا عقاب الله تعالى، وحزن أبيهم ومقاطعته لهم فهو نبيٌّ معصوم ودليله وحي.

ونُفذت المؤامرة بحق يوسف عليه السلام على الرأي الأخير المستحسن وأُبعد يوسف عليه السلام عن انظار الأب ليخلو لهم وجهه ويستفردوا بمحبته واهتمامه.

بيعه للمصريين:

كان يوسف عليه السلام قريباً من قلب أبيه الذي كان موضع أسراره ومعلمه ومرشده والمطمئن لقلبه لما ينتظره من توفيق ولطف من الله تعالى، فقد رأى يوسف عليه السلام مناماً عجيباً لا يتوقعه، فقصّه على الأب الرؤوف: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾[1] فأجابه الأب بكل ثقة وواقعية ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾[2] ثم طمأنه قائلاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾[3] فبعد أن خاف عليه أبوه من اخوته أن يدبروا له مؤامرة يقضوا فيها عليه أو يفرقوا بين الأب المحب والابن المحبوب العزيز، لأنه يعرف غيرتهم بسبب ما خصه من الحب والمعزّة، فنصحه أن لا يحدثهم برؤياه خشية أن تُثير حقدهم

---

(١) سورة يوسف: ٤.

(٢) سورة يُوسُف: ٥.

(٣) سورة يُوسُف: ٦.

وكراهيتهم، وخوفاً من أن يغريهم الشيطان بالكيد له ونصب الحبائل لهلاكه، وإذا حصل ما حصل فسيصطفيه الله تعالى ويجتبيه على غيره، ويفيض عليه بأنواع الكرامات، من تأويل الأحاديث (وهي معرفة الحقائق)، وسيعلم ما لم يكن يعلم. وقد أنعم الله بها على إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسينعم بها على يوسف كذلك (وهي النبوة).

على كل حال وصل الحسد والغيرة بأبناء إسرائيل (يعقوب عليه السلام) حدّه فدبروا له مؤامره شنيعة سجلها التاريخ ودونتها الكتب السماوية وأقرّها القرآن الكريم بسورة منه، لكن كم كان عمر يوسف يوم المؤامرة؟ ذلك ما لا يعلمه إلّا الله، فقد اختلفت الأقوال والروايات في عمره، والقرآن الكريم لم يتحدث عن ذلك لأن القرآن أراد العبرة من سرد قصته عليه السلام.

وفي التوراة ورد ذكره شاباً ابن السابعة عشرة، تقول التوراة: «يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه، وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم»[١].

«فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه»[٢] «وأخذوه وطرحوه في البئر. أما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء»[٣].

هذه النصوص الثلاثة تكشف عمره وكيد إخوته له، وانه كان شاباً، وكثير من النصوص تذكر هذا العمر وخاصة كتب التاريخ، ففي كتاب (تاريخ مختصر الدول) لابن العبري ورد: «ولدت راحيل يوسف وبيع ابن سبع عشرة سنة وبقي عبداً عشر سنين ومعتقلاً ثلاث سنين. وأميناً على دار فرعون ثلاثين سنة ووزيراً ثمانين سنة وجميع أيامه مائة وأربعون سنة»[٤].

نكتفي بهذه النصوص لأن كل من ذكر عمره سبع عشرة سنة كان

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٣٧، العدد ٢.
(٢) المصدر السابق، ١٨.
(٣) نفس المصدر، ٢٤.
(٤) تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، ص١٦: الطبعة الإيرانية.

مصدره التوراة، لكنّا لو رجعنا إلى القرآن الكريم نجد إشارات كثيرة ترمز إلى أنه أصغر من هذه السن، فهناك إشارات تذكر أنه كان في سن اللعب والمرح، فقد ورد على لسان إخوته في القرآن الكريم يترجّون أباهم أن يسمح لهم بإرساله معهم قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾[1] وكذلك قول يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾﴾[2].

وقول القافلة التي مرت بالبئر ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾[3].

أما الحوار الذي دار بين العزيز وامرأته فيذكره القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[4].

فهذه الآيات الشريفة تدل على أن عمر يوسف عليه السلام يوم المؤامرة التي دُبرت له من قبل إخوته غيرةً وحسداً، كان عُمره آنذاك أقل من سبعة عشر عاماً والدليل:

١ ـ الغلام في اللغة: (هو الابن الصغير)[5] قبل البلوغ والدليل القرآني أن الغلام هو الولد قبل البلوغ وهو قول موسى عليه السلام للعبد الصالح الذي بنى الجدار فقال: ﴿...فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾[6].

فإعطاء صفة اليتم للغلامين لأنهما لم يبلغا الحلم بعد، وقول القرآن الكريم ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾[7]، وكذلك ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ

---

(١) سورة يُوسُف: ١٢.
(٢) سورة يُوسُف: ١٣.
(٣) سورة يُوسُف: ١٩.
(٤) سورة يُوسُف: ٢١.
(٥) المصباح المنير، الفيومي، ص٤٠٢.
(٦) سورة الكهف: ٨٢.
(٧) سورة مَريَم: ٧.

﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾[1] وغيرها من المصاديق القرآنية تؤكد أن الغلام هو الولد الصغير دون البلوغ.

٢ ـ قول أخوة يوسف لأبيهم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾[2] دالّ أنه ولد صغير في سن اللعب والمرح، فمن كان في سن السابعة عشرة فقد تجاوز مرحلة اللعب، وأصبح شاباً صالحاً للحرب والرماية وغيرها، وخاصة في تلك العصور، واللعب عادةً يكون للصغير.

٣ ـ تخصص يوسف بأكل الذئب دون إخوته، فلو كان شاباً ابن السابعة عشر لكان كإخوته، ولما كان معيّناً بأكل الذئب، فالمفروض أن يكون صغيراً لا يستطيع الدفاع عن نفسه ليصح التخصيص له دون إخوته.

٤ ـ في قول الذي اشتراه لامرأته: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[3] اشارة واضحة إلى كونه صغيراً يطمعون في تربيته وتنشئته ليكون لهم ولداً في المستقبل بعد بلوغه ورشده، وشبيه ذلك جاء في قصة موسى عليه السلام عندما وقعت عين زوج فرعون عليه وهو رضيع قال فرعون لزوجه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[4] أي يكون لنا ولداً عندما يكبر.

من هنا لا يبقى محل للنقاش في أنه كان صغير السن حين بيع للمصريين وغادر فلسطين. كما تؤكد التفاسير أنه كان ابن سبع سنين[5].

على كل حال دُبرت له المؤامرة واتفقوا على أن يغيّبوه في البئر ليتخلصوا منه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾[6] تركوه ورجعوا إلى أبيهم ليلاً:

---

(١) سورة مَريَم: ٨.

(٢) سورة يُوسُف: ١٢.

(٣) سورة يُوسُف: ٢١.

(٤) سورة القصص: ٩.

(٥) كتب التفسير الشيعية تؤكد أن عمره كان سبع سنين أو أقل أو أكثر من هذه السن بقليل، أما التفاسير السُّنية فأغلبها تؤكد رأي التوراة في أن عمره كان سبعة عشر عاماً.

(٦) سورة يوسف: ١٥.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾[1] ثم بدأوا بالكذب والنفاق: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[2] ثم جاءوا بالدليل ليكون مصداقاً لكذبهم: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[3].

بقي يوسف عليه السلام في الجُب، فمرت قافلة أرادوا أن يستسقوا الماء فأرسلوا من يجلب لهم الماء، جاءهم بالبشرى أن هناك غلاماً في البئر: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾[4] جعلوا هذا الغلام بضاعة تُشترى وتُباع، فباعوه بثمن قليل لا يليق بمقامه ولا يليق بإنسانيته ولا بمستقبله فاشتراه وزير ملك مصر الملقب بـ(العزيز) وأوصى زوجه بالإحسان إليه وإكرامه لتطيب له الإقامة بينهم، لعله ينفعهم أو يكون ولداً لهم لأنهم حرموا من نعمة الإنجاب، جاء في القرآن الكريم: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ﴾[5].

أما التوراة فقد صرّحت أن الذي اشتراه كان عقيماً وكان رئيس الشُّرَط: «وأما يوسف فأُنزل إلى مصر واشتراه فوطيفار خصيُّ فرعون رئيس الشُّرط رجل مصري من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك..»[6].

وقد ذكر عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء: «أن يوسف

---

(١) سورة يوسف: ١٦.
(٢) سورة يوسف: ١٧.
(٣) سورة يوسف: ١٨.
(٤) سورة يوسف: ١٩.
(٥) سورة يوسف: ٢٠ ـ ٢١.
(٦) سفر التكوين، الاصحاح ٣٩، العدد ٢١.

الصدّيق ﷺ قد دخل مصر في عهد الأسرة السادسة عشرة في أيام أحد ملوكها المدعو (أبابي الأول) وقد وجدت لوحة أثرية عبارة عن شاهد مقبرة ذكر فيها اسم (فوتي فارع) وهو المذكور في التوراة (فوطيفار عزيز مصر). .»[1].

إذن عُرض يوسف ﷺ للبيع في أسواق مصر بعد أن أخذته القافلة (السيّارة) من فلسطين إلى مصر، فاشتراه العزيز، وهو لقب لأكبر وزراء الملك وأمنائه، والذي اشتراه أوصى امرأته به خيراً لأنه كان يرجو إذا بلغ أشدّه أن يقوم بتدبير شؤونهم. .

«بيع يوسف لرئيس الشرطة في مصر ولم يعين البلد الذي كان عاصمة الملك في البلاد المصرية في ذلك الحين، والأقرب أنه مدينة (صان) ببلاد الشرقية قرب بحيرة المنزلة، وذلك أن ملك مصر في ذلك العهد كان من العمالقة الذين وردوا مصر قبل نزول إبراهيم وكان منهم الملك الذي أكرم مثوى إبراهيم ﷺ وأعطاه الأموال الكثيرة، وهم الذين شغلوا تاريخ مصر ما بين الأسرة الرابعة عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة، التي منها (أحمس) الذي طرد العمالقة من مصر. .»[2].

موقف امرأة العزيز منه:

عاش يوسف مع امرأة المصري، تحت سقف واحد أمداً غير قصير، وكان فتاناً في هيئته ومنظره، وأثيراً عند سيده، فجعله صاحب أمره ونهيه، والرئيس على خدمه والمتصرف في بيته، بحيث لم يكن لأحدٍ ممن في الدار كلمة أعلى من كلمته سوى كلمة سيده وسيدته، نظرت امرأة المصري إلى فتاها وما هو عليه من الخُلق السوي والجمال البهي فأشعل ذلك في نفسها جذوة الحب، وازداد حالها حتى غلب حبها على حيائها:

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٢٠١.
(٢) المصدر السابق، ص١٢٢.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾[1].

وجاء في التوراة ما يشابه من ذلك: «ان امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت اضطجع معي فأبى وقال لامرأة سيده هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ماله قد دفعه إلى يدي. ليس هو في هذا البيت أعظم مني. ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنّك امرأتهُ. فكيف أصنع هذا الشرّ العظيم وأخطىءُ إلى الله»[2].

يقول عبد الوهاب النجار: «. . .إلى أن هاج بها هائج الغرام، واعتزمت على شفاء ما في نفسها من الصبابة فصارحته القول، ودعته إلى نفسها دعوة لا هوادة معها، واحتاطت للأمر وأخذت عدتها له، وغلّقت الأبواب، وقالت ليوسف ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ فأبى وقال ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي بعلها ﴿رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وفي هذا الموقف العنيف: شاب في ريعان شبابه وغضارة الفتوة تدعوه سيدته الجميلة إلى نفسها فيغلبه دينه ويعصمه رعي الذمام لسيده ثم يولي وجهه شطر الباب يطلب النجاة من شيطان غوايتها. وهي تجاذبه ثوبه وهو العصيّ حتى تمزق من خلفه إلى أن يغلبها ويلفت من يدها فيستبقان الباب. وهو يريد فتح مغلقه وهي تريد أن تحول بينه وبين ما يشتهي من الإفلات من يدها دون قضاء لبانتها. وحينئذٍ يجد أن بعلها عند الباب»[3] فبكت وشكت لزوجها أنه راودها عن نفسه. وقد جاء في التوراة مثل هذا إلّا أنه اختلف في شيء واحد وهو: «إنها لما أمسكت بثوب يوسف خلعه لها، فنادت الخدم وأخبرتهم بأن بعلها جاء

---

(١) سورة يُوسُف: ٢٣-٢٥.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٣٩، العدد ٧ ـ ٨ ـ ٩.

(٣) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص١٢٣.

برجل عبراني يداعبها، وأن يوسف لما رأى المكان خالياً طلب أن يضاجعها فأبت وصرخت بصوت عظيم، وكان قد خلع ثوبه استعداداً للأمر فخاف حين استغاثت وهرب وترك عندها قميصهُ..»[1].

وقد جاء في تفسير المنار: «نقل رواة الإسرائيليات عنها وعنه من الوقاحة ما يعلم بالضرورة انه كذب، فإن مثله لا يُعلم إلا من الله تعالى، أو بالرواية الصحيحة ولا يستطيع أحد أن يدّعي هذا»[2].

أما الفخر الرازي فقد قال عن براءة يوسف عليه السلام من الهمّ بها: «وقد شهد الله تعالى ببراءته بقوله: ﴿...إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾[3] وشهد الشيطان ببراءته بقوله: ﴿...فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾[4] وشهد شاهد من أهلِها ـ أهل زوجة المصري (زليخا) ـ إذ قال: ﴿...إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾[5] ثم شهد ببراءته النسوة اللائي قطعن أيدهن بقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[6] وشهد ببراءته زوجة العزيز نفسها بقولها: ﴿...ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾[7].

ويقول الفخر الرازي أيضاً: «فالذي يريد أن يتهم يوسف عليه السلام بالهمّ، عليه أن يختار أن يكون من حزب الله أو من حزب الشيطان، وكلاهما شهدا

---

(١) المصدر السابق، الحاشية.
(٢) تفسير المنار، سيد قطب، تفسير الآية ٢٣ من سورة يوسف.
(٣) سورة يوسف: ٢٤.
(٤) سورة صّ: ٨٢ ـ ٨٣.
(٥) سورة يوسف: ٢٦ ـ ٢٩.
(٦) سورة يُوسُف: ٥١.
(٧) سورة يوسف: ٥١.

ببراءة يوسف عليه السلام فلا مفر له من الإقرار بالحق على أي حال، وهو براءة يوسف من الهمّ بها»[1].

شاع نبأ حادثة امرأة العزيز مع يوسف وانفضح أمرها، ولاكته أفواه نساء المدينة لائمات لها، ولم تسكت على النميمة التي صنعتها لنفسها من قبلهن: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾[2] حينما سمعت منهن هذا الكلام دبرت لهن مؤامرة ليشاركنها فيما هي فيه: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[3].

فأجابتهن بعد أن أوقعتهن بما لامنّها، أجابتهن معترفة ببراءته وعصمته: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[4] وبقي يوسف عليه السلام في استعصامه ودعا ربّه أن يدفع عنه كيدهنَّ، واستجاب الله له، وسُجن بعد أن قرروا سجنه بالرغم من تأكيد الدلائل على براءته: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾[5] أي سجناً مؤقتاً لا أبدياً.

في سجن المصريين:

قالت امرأةُ العزيز لزوجها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6].

---

(١) تفسير الفخر الرازي، نقلاً عن قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار، ص١٢٦.
(٢) سورة يوسف: ٣٠.
(٣) سورة يوسف: ٣١.
(٤) سورة يوسف: ٣٢.
(٥) سورة يُوسُف: ٣٥.
(٦) سورة يُوسُف: ٢٥.

لكن يوسف عليه السلام العفيف أرادوا له سوءاً وأراد الله له خيراً، فحبب له السجن واطمأنت نفسه وقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾[1].

وجاء مثل ذلك في التوراة: «فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي أسرى الملك محبوسين فيه»[2].

والذي سجن يوسف عليه السلام هو سيده الذي رباه والذي كان أثيراً عنده لا يستغني عنه في جميع أُموره، وهو العزيز أي (فوطيفار). بالرغم من أن الدلائل والاثباتات أكدت براءته ونزاهته وعفته، قرر أن يسجنه سجناً مؤقتاً لا دائماً، لكي تنسى المدينة وأهلها الحادثة والفضيحة التي كانت وصمةَ عار في جبين امرأة العزيز وغيرها من النساء، ثم إن دعاء يوسف عليه السلام كان مستجاباً عندما قال: ﴿...رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾[3].

أي حتى يحين وقت خروجه، وهو نسيان المدينة الحادثة المأساوية التي كانت حديث الساعة في ذلك الوقت.

واختلف المؤرخون والمفسرون في مدة بقائه في السجن فمنهم من قال بقي سنتين ومنهم من قال سبع سنين وثالث أكد أنه بقي عشر سنين، لكن القرآن الكريم لم يذكر مدة بقائه، إلّا أن ابن العبري ذكر أنه كان «معتقلاً ثلاث سنين»[4].

لقد منَّ الله تعالى على يوسف عليه السلام بالتمكن في الأرض: ﴿...وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ

---

(١) سورة يُوسُف: ٣٣.
(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٣٩، العدد ٢٠.
(٣) سورة يوسف: ٣٣ ـ ٣٥.
(٤) تاريخ مختصر الدول، ص١٦.

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

فقد دخل السجن وكان معه فتيان، تقول التوراة (ورأى الفتيان رؤيا . . . إلخ)[2].

وقصّ القرآن الكريم الرؤيا بقوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾[3].

وكان تأويل الأحاديث أو تأويل هذه الأحلام من قبل يوسف عليه السلام إتمام النعمة من الله تعالى عليه، إذ كانت سبباً في نجاته من السجن ونهاية لمحنته ليكون بعد ذلك وزيراً للتموين والاقتصاد في مصر، حيث كان تأويله لافتاً للنظر، وفي الحقيقة كان من إرهاصات النبوة التي كانت تنتظر أن يبلغ يوسف عليه السلام أشده، وكانت سبباً في خروجه من السجن والثقة به.

بعد فترة وجيزة من خروج الفتى ـ الذي رأى أنه يعصر الخمر، وتأويل يوسف عليه السلام له إنه سيسقي مولاه خمراً، بعد فترة من خروجه رأى الملك رؤيا عجزَ الجميع عن تأويلها . . . وكانت الرؤيا كما ذكرها القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[4].

فاضطرب الملك من هذه الرؤيا ودعا على أثرها كل من له علم في تأويل الرؤيا وجاء بالسحرة، فلم يستطع أحد منهم أن يفسّر حلم الملك الحائر . . بل ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾[5].

---

(١) سورة يُوسُف: ٢١-٢٢.
(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٠، العدد ١ ـ ٢٢.
(٣) سورة يُوسُف: ٣٦.
(٤) سورة يوسف: ٤٣.
(٥) سورة يُوسُف: ٤٤.

فأشار الذي كان مع يوسف عليه السلام في السجن، أن يوسف وحده قادرٌ على تأويله، وليس غيره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾[1].

وذكرت التوراة الحادثة مشابهة لما في القرآن الكريم، إلاّ في مفردات نعرضُ لها في حينها...

وقد كان حلم الملك منّة من الله تعالى على يوسف عليه السلام ليُفرّج عنه وتظهر براءته أمام كل عين وأذن من الذين اتّهموه وزجّوه في السجن دون ذنب أو جريمة جناها سوى العفة والشرف والإيمان، نعم لقد كان استعصامهُ عن الفحشاء والمنكر سبباً لمحنته..

تَذكّر رئيس سقاة الملك الذي كان مع يوسف عليه السلام في السجن ومرَّ على خاطره منامه الذي رآه في السجن وما عبره له الرجل العبراني - على حد تعبير التوراة - كأنه يشاهد أمراً واقعاً، فعرض الأمر على الملك، وقصّ عليه حلمه وحلم رئيس الخبازين، وأنَّ سجيناً عبرياً لرئيس الشرطة قد عبّر لهما رؤياهما، فكان الأمر كما قال، فطلب الملك أن يذهب إلى السجن ويأتي بتعبير الرؤيا من العبري المسجون.

عاد رئيس السقاة إلى الملك بتأويل رؤياه، فسُرَّ الملك وأمر أن يُفرج عنه ويُخرج من السجن ليستخلصه لنفسه، وكان الفرج، أن يخرج يوسف عليه السلام بعد ظلمة وتهمةٍ هو بريءٌ منها، يخرج بوجهٍ أبيض ورأس مرفوع، بعد أن أبى أن يخرج إلاّ بشروط.

تأويله الأحلام:

عندما رأى يوسف عليه السلام رؤياه وهي أن: أحد عشر كوكباً والشمس والقمر سجدوا له..الخ نهاه يعقوب أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا

---

(١) سورة يوسف: ٤٥.

له كيداً لأن الشيطان عدو للإنسان يوسوس له ويأمره بالسوء ثم قال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾(1).

ولقد أفاض الله تعالى على يوسف أنواع الكرامات منذ دخوله السجن إلى آخر حياته الشريفة، وعلمه تأويل الأحاديث، ومنها تعبير الأحلام، وقد بلغ يوسف عليه السلام الغاية في تفسيرها ومعرفة مآلها، ثم معرفة الحقائق، وأكمل نعمته عليه بالنبوة والرسالة كما أنعم الله على إبراهيم وإسحاق من قبل.

زُجّ يوسف عليه السلام في السجن وتعرف إلى فتيان قد سُجنا قبله، وقد دعاهما يوسف عليه السلام إلى الايمان بالله تعالى وعرفا منه تأويله الأحلام فقال له أحدُهما: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(2).

فسّر يوسف عليه السلام حلميهما قائلاً: ﴿يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۝٤١﴾(3).

قال للساقي: ستنجو من السجن، وتعود إلى سابق عملك، وقال للخازن تُصلب وتأكل الطير من رأسك، وقد كان عليه السلام على ثقةٍ كاملة من أمره وتعبيره لأحلامهم لأنه وحيٌ من الله، ثم قال لهما: إن هذا الأمر قد بُتَّ فيه، وانتهى حكمه. وتحقق الأمر وأصبح حلماهما واقعاً، وخرج الذي نجا. وكان عهدٌ بينه وبين يوسف أن يذكره عند سيده: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾(4).

(1) سورة يُوسُف: ٦.
(2) سورة يُوسُف: ٣٦.
(3) سورة يوسف: ٤١.
(4) سورة يوسف: ٤٢.

وفي ذات يوم أصبح ملك مصر على رؤيا غريبة ذكرها القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

بعد أن عجز السحرة ومفسرو الأحلام من تفسير هذه الرؤيا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾[2].

قال الساقي للملك: لو أرسلتني إلى الفتى العبري المسجون في سجن رئيس الشرطة، لجئتك بالخبر اليقين، أمره الملك أن ينطلق إلى الرجل المذكور، قال الساقي: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾[3].

عبّر يوسف عن رؤيا الملك: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[4].

ولم يكتف يوسف عليه السلام بتعبير الرؤيا وتأويلها، بل أعطى الحلول الناجعة والصحيحة للخروج والتخلص من الأزمة اللاحقة بالمصريين والقحط الذي سيصيبهم...

واللافت للنظر أن الله تعالى جعل رؤيا الملك سبباً لخلاص يوسف عليه السلام، وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه.

إذن تهيأت الأسباب لخروج يوسف عليه السلام من السجن ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾[5].

---

(١) سورة يُوسُف: ٤٣.

(٢) سورة يُوسُف: ٤٥.

(٣) سورة يوسف: ٤٦.

(٤) سورة يوسف: ٤٧ ـ ٤٩.

(٥) سورة يُوسُف: ٥٠.

(إسرائيلي) يصبح وزيراً لمصر!

بعد أن لمح الملك ذكاء يوسف وحكمته وقدرته على تأويل الأحلام أمر أن يُخرجوا يوسف من السجن لينتفع بعلمه وإخلاصه، لكن يوسف ﷺ أخبر الرسول أنه لا يخرج من السجن إلّا بعد التحقيق في شأن التهمة التي سجن من أجلها، فاهتم الملك وأحضر النسوة: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾[1].

بعد أن ظهرت براءة يوسف الصدِّيق وظهر الحق للجميع، وافق يوسف ﷺ على الخروج من السجن، وأكد الملك على الإتيان به: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾[2] ثم أبدى إعجابه بتعبيره الحسن للرؤيا وإمكاناته في إعطاء الحلول الناجعة لما سيؤول إليه أمر مصر، ومسألة أن يختار العمل الذي يناسبه ويرضيه ليكون مساعده الأيمن في شؤون البلاد، فأجابه يوسف ﷺ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾[3] أي إنه ﷺ اختار أن يكون وزيراً للمالية والاقتصاد بعد أن كسب ثقة الملك ومن حوله، وتسنم منصب الوزارة في مصر ثم أصبح عزيزها..

وللتوراة إضافات في تفاصيل القضية فتقول: «إن الفرعون خلع خاتمه من يده وجعله في يد يوسف ووضع طوق ذهب في عنقه وأركبهُ مركبتهُ الثانية وزوجهُ (اسنات) بنت الكاهن (فوطي فارع) (عطيه رع) كاهن أون (هيلو بوليس)..»[4].

وتذكر التوراة كذلك أن اسنات: «ولدت ليوسف ابنين قبل أن تأتي سنة

---

(١) سورة يُوسُف: ٥١.

(٢) سورة يُوسُف: ٥٤.

(٣) سورة يُوسُف: ٥٥.

(٤) سفر التكوين، الإصحاح ٤١.

الجوع. . ودعا يوسف اسم البكر (منسيّ) قائلاً لأن الله أنساني كل تعبي وكل بيت أبي. ودعا الثاني (أفرايم) قائلاً لأن الله جعلني مثمراً في أرض مذلتي. .»[1].

والجدير بالذكر ـ في رؤيا الملك ـ أن أرض مصر، كانت أرضاً زراعيةً تعتمد على النهر ـ نهر النيل ـ في زراعتها، وكان القمح من أهم منتجاتها الزراعية كما كانت الأبقار ذات أهمية كبرى في اقتصاد مصر، بحيث كانت البلدان المجاورة لمصر وروما بالذات تعتمد تماماً على القمح المصري في طعامها، كما أن للبقر أهمية كبيرة في حياة الفلاح المصري فكان من أسباب المجاعة التي حدثت أو بالأحرى (السنين العجاف) والقحط، هو عدم فيضان نهر النيل ليخصب الأرض ويجعلها صالحة للزراعة وانقطاع الأمطار في المناطق المجاورة هو الاساس، مما سبب المجاعة في البلدان المجاورة، إلاّ مصر بتدبير يوسف ﷺ الذي اقتصد في سني الخير ووفر القمح وغيره لسني القحط المتوقعة مما دعا البلدان المجاورة للجوء إلى شراء المواد الغذائية من مصر بأي ثمن كان وهذا ما حسَّن الوضع الاقتصادي في مصر في ذلك الزمان.

وقد ذكر ديورانت في قصة الحضارة وصفاً لـ (هيرودوت) عن حال المصريين في الزراعة وما يسببه فيضان نهر النيل، وقد جاء وصفه وما وجدَ عليه المصريين عام (٤٥٠ ق.م)، يقول «إنهم أي المصريين ـ يجنون ثمار الأرض بجهد أقل مما يبذله غيرهم من الشعوب، . . لأنهم لا يضطرون إلى تحطيم أخاديد الأرض بالمحراث أو إلى غرقها أو القيام بعمل كالذي يضطر غيرهم من الناس إلى القيام به لكي يجنوا من ورائه محصولاً من الحب، ذلك بأن النهر إذا فاض من نفسه وأروى حقولهم، ثم انحسر ماؤه عنها بعد إروائها، زرع كل رجل أرضه. . ثم. . جمع المحصول»[2].

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤١، العدد ٥٠ ـ ٥٣.

(٢) قصة الحضارة، ج١، ص٨٢، ول ديورانت.

فلعل هذا الوضع ورثوه من الآباء والأجداد فأصبحت ملكة لديهم.

دعوته للتوحيد في مصر:

جاء في القرآن الكريم خطاب مؤمن آل فرعون للطاغية فرعون واعوانه: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾[1].

أيها المصريون بعد أن شككتم في نبوة يوسف عليه السلام وكذبتم الذي جاءكم به ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[2].

بدأت دعوة يوسف عليه السلام للتوحيد في مصر حينما دخل السجن، وانتهازه الفرصة ليعلن دينه ويدعو إليه، وجادل (صاحبي السجن) الفتيين اللذين دخلا معه، قائلاً لهم: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[3] وبيّن لهم مقدرته على تأويل الرؤيا، وأنه لا يأتيهما طعام إلّا نبأهما بتأويله قبل أن يأتيهما، وهذه النعم التي حصل عليها من الله تعالى سببها أنه ترك ملّة الأقوام الذين يشركون بالله ولا يؤمنون به واليوم الآخر، فإن إيمانه بالله وقربه من الله جعلهُ يعلم ما لا يعلمون ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[4].

ثم خطا خطوة أخرى معهم، وقال لهم إنكم تعبدون مجرد أسماء لا وجود لمعانيها إطلاقاً، بل أنتم وآباؤكم صنعتموها آلهة لكم إن كانت الكواكب أو الظواهر الطبيعية أو غيرها... أنتم وضعتم لها أسماء

(١) سورة غافر: ٣٤.
(٢) سورة غافر: ٣٤.
(٣) سورة يُوسُف: ٣٩.
(٤) سورة يوسف: ٣٧.

وعبدتموها من دون الله الواحد الأحد... قال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[1] بقي النبي يوسف عليه السلام يدعو المصريين للتوحيد ولدين آبائه وأجداده، ولكن عادة البشر، بل عادةُ كل قوم وكل أمة حينما يُبعثُ فيهم نبي، يكذبه البعض ويصدقه البعض الآخر، ولكن الذين يصدقون ويشكرون نعمة الله عليهم هم الثلة القليلة من الناس، وأكثرهم لا يشكرون كما جاء على لسان يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء قال يوسف عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[2].

ودامت دعوته للتوحيد في مصر حسب قول التوراة ثمانين عاماً، أما القرآن الكريم فلا يذكر المدة ولا عمره الشريف، والتوراة ادعت أن يوسف عليه السلام توفي عن عمرٍ يناهز المئة والعشرين عاماً.. قال: «وافاه الأجل وكان إذ ذاك، ابن مئة وعشرين سنة، فحنطوه ووضع في تابوت في مصر»[3] «وقد دام حكمه ثمانين سنة»[4].

ومدة حكمهِ هي مدة دعوته للتوحيد واليوم الآخر، فإضافة سنوات السجن التي بدأ فيها دعوته وأظهر الله نعمته عليه وفضله بأن جعله من الموحدين وليس من القوم الكافرين، كما كان أصحابه في السجن الذين يعبدون أسماء ليس لها واقع ولم يُنزل الله تعالى بها من سلطان..

يوسف (ع) ومنصب الوزارة:

تسنم يوسف عليه السلام منصب الوزارة (وزارة الاقتصاد والمالية) وكان

---

(١) سورة يُوسُف: ٤٠.
(٢) سورة يوسف: ٣٨.
(٣) سفر التكوين، الإصحاح ٥٠، العدد ٢ ـ ٤.
(٤) المصدر السابق، العدد ٢٦.

يختلف عن بقية الوزراء في زمانه وما بعده وإلى زماننا هذا، كان أميناً حافظاً راعياً لحقوق الله تعالى لا يظلم الناس ولا يبخس حق أحد، لم تغرّه النعمة، ولم يستغل مركزه لمصلحته، فساوى نفسه مع الجميع حتى الملك في توزيع المؤن وظهر هذا جلياً في السنين العجاف، فكان يكتفي بوجبة واحدة ليشعر بالجوع الذي يعانيه الآخرون، فقد كان محسناً كما وصفه الله تعالى رغم تمكين الله تعالى له على خزائن الأرض فلم يميّز نفسه عن بقية خلق الله قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[١].

ولا يخفى على أحد معاناة يوسف عليه السلام التي استمرت سنين طويلة، قيل إنها عشرون سنة وقيل ثلاثون وقيل أقل من ذلك وقيل أكثر، فمن معاناته رميه من قبل أقرب الناس إليه (إخوته) في الجب، إلى بيعه ليكون عبداً، ثم معاناته في قضية كيد امرأة العزيز، وزجّه في السجن، ثم تشاء مشيئة الله تعالى أن تحوّل المعاناة إلى استحواذه على رضا الملك ليكون أميناً على خزائن الأرض مُطاعاً، مرهوب الجانب، مسموع الكلمة يخضع له الجميع هيبةً وتعظيماً. فقد جاء في التوراة على لسان الملك: «أنت تكون على بيتي، وعلى فمك يقبل جميع شعبي.. إلّا أن الكرسي الذي أكون فيه أعظم منك.. قد جعلتك على كل أرض مصر»[٢].

نعم كان يوسف الآمر الناهي والكل مطيع لا يُعصى له أمر بأمرٍ من الملك، ملك مصر آنذاك.

وقيل: إن الملك سمّاه (صفنات) واشتهر بهذا الاسم في مصر وما جاورها من البلاد، كأرض كنعان والرافدين ومدين وغيرها.

واجتهد يوسف عليه السلام في ممارسة مهام منصبه، والتخطيط للمستقبل،

---

(١) سورة يُوسُف: ٥٦.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤١، العدد ٤٠ ـ ٤٥.

والهيمنة على الأراضي الزراعية والمواشي وغيرها ليدير اقتصاد البلاد بكل ما أوتي من حكمة.

«لقد بدأت السنوات السبع الخضر المخصبات وعليه أن يوفر فرصة لزيادة المساحات الزراعية واستخدام أكبر عدد من الفلاحين والأيدي العاملة لنجاح خطته فقد كان عليه أن يقسّم غلته: فيقدم قسماً إلى الناس للغذاء، أو لبذور العام القادم. والقسم الثاني خزنه (سنابل) مخازن أعدها لذلك... بل إنه أخذ يستصلح مساحات زراعية جديدة في أطراف الدلتا عن طريق شق الترع، وتوسيع المساحة الزراعية في منطقة الفيوم، بزيادة عدة آلاف من (الأفدنة) واستغلال مياه بحيرة الفيوم، مما ضاعف الإنتاج في العام الثاني والأعوام التالية، ومعها تضاعفت الكميات التي تدفع إلى مخازن القمح التي انتشرت في كثير من أنحاء مصر، لتكون موارد للناس»[١].

وكانت الخطة ناجحة للغاية في إسعاف السنين السبع بالغذاء اللازم حيث فاجأت المصريين موجة الجفاف بانقطاع الأمطار وقلة مياه النيل مما أدى إلى جفاف الأرض وموت المحاصيل الزراعية وما إلى ذلك من التبعات كموت المواشي وقلة تكاثرها، وبذلك يكون يوسف ﷺ قد أنقذ الموقف وتداركه بفطنته وخطته الحكيمة، ففتح مخازن القمح ليبيعه بالقسط والعدل ليتساوى فيه الجميع دون تبذير أو إسراف.

«وهكذا سارت الحياة في مصر في سنوات الجدب، وكان فيما حدث ازدياد ثقة الناس بيوسف الذي صدق فيما تنبأ به .. حتى أن كثيراً منهم آمنوا بربه، وابتعدوا عن أوثانهم، ومما يذكر أن الملك (الريان) قد آمن بيوسف، والذي كان سعيداً بما حباه الله به من نعمة أنعمها عليه، وبما هيأه له من مكانة تبوأها. وبما وهبه من علم، وكان أكثر سعادة أنه

---

(١) أنبياء عاشوا في مصر، ص١٠٥.

استطاع أن ينشر دين إبراهيم، لكنه أكثر حنيناً لرؤية أبيه، والاطمئنان على أخيه.. يدعو الله أن يلتقي بهما.. ولعله فكّر في أن يذهب إلى أرض حبرون»[1].

وقد شكر يوسف عليه السلام الله تعالى كثيراً على هذه النعمة التي منَّ بها عليه معترفاً إلى الله قائلاً: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[2].

وقد دعى يوسف ربّه طالباً منه أن يُتم النعمة عليه إلى آخر حياته وهي نعمة الإسلام فقال عليه السلام لربه تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

إن دين يوسف عليه السلام هو دين آبائه وأجداده وهو الإسلام والتسليم لله والخضوع له، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، كان يستمع إلى أبيه منذ صغره وهو يوصي أبناءه الاثني عشر قائلاً لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4].

فدين الإسلام هو دين الأنبياء والرُسل وهو الدين الخالص من كل شائبة وتحريف وهو دين الله الحق والاستسلام له والخضوع والطاعة التامة.

---

(١) المصدر السابق، ١٠٦.
(٢) سورة يُوسُف: ١٠١.
(٣) سورة يُوسُف: ١٠١.
(٤) سورة البَقَرَة: ١٣٢.

الفصل الرابع

دخول بني إسرائيل مصر

١ ـ الجفاف والسنين العجاف

٢ ـ بنو إسرائيل والمجاعة في فلسطين

٣ ـ يوسف الوزير يستقبل إخوته

٤ ـ تاريخ دخول بني إسرائيل مصر

٥ ـ يوسف يعفو خطيئة اخوته

٦ ـ بنو إسرائيل في مصر

٧ ـ اللقاء الأخير بين يوسف وأبيه (ع)

٨ ـ وفاة يوسف (ع)

٩ ـ بنو إسرائيل بعد يوسف (ع)

١٠ ـ مصر قبل ظهور موسى (ع)

١١ ـ اضطراب التواريخ في التوراة

دخول بني إسرائيل مصر

استمر يوسف عليه السلام في منصبه وزيراً يدير شؤون المعاش والتموين في الدولة الفرعونية، ويدعو الناس إلى عبادة الواحد الأحد الذي لا شريك له، وكان ذلك في حدود منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد (الأسرة السادسة عشرة من الأسر الفرعونية آنذاك)، عندما حدثت الأزمة التي هددت مصر وما جاورها من البلدان، (ليتم الله تعالى نعمته على يوسف وعلى أهل بيته ـ أبويه وإخوته) وعمَّ الجفاف والقحط المنطقة كلها من شمال أفريقيا حتى فلسطين ونواحيها، بسبب عدم هطول الأمطار فيها، وعدم فيضان نهر النيل الذي يروي أراضي مصر والسودان، فهطول الأمطار يسبب زيادة في مياه نهر النيل فيفيض على الأراضي الساحلية له.

على كل حال، تحقق ما أخبر به يوسف عليه السلام في تأويله وتعبيره لرؤيا الفرعون المصري، مما يدل على عقليته التي لا يضاهيها أحد في ذلك الزمان والمكان، شحت المواد الغذائية في كل بلدان المنطقة، إلّا مصر، ولذلك أصبحت ملجأً للمتلهفين للقمح وبقية المواد الغذائية، فكانوا يعطون الذهب والفضة، بل وكل نفيس لأجل الحصول على الطعام، ولقمة العيش التي أصبحت صعبة المنال.

سيكون هذا الفصل ـ عزيزي القارئ ـ مخصصاً لكيفية دخول بني إسرائيل مصر وتهيئة السبل للقاء يوسف عليه السلام بإخوته ثم بأبويه ليتحقق حلمه ويتم الله نعمته عليه.

والجدير بالذكر أن هناك اختلافاً في تاريخ دخولهم مصر والبقاء فيها، وسيتضح ذلك من خلال عرض ما ذكره المؤرخون في هذا المجال..

وسنتحدث أيضاً عن الظروف العصيبة التي واجهتهم بعد وفاة يوسف ﷺ والتشتيت والتشرد الذي لاحقهم حتى خروج ما تبقى منهم مع موسى ﷺ، ومع من وحَّد الله تعالى من المصريين وانضم إلى صفّ موسى ﷺ أو من آمن بنبوة يوسف ﷺ من قبلهم من الآباء والأجداد بعد مرور (٤٠٠) سنة أو أكثر...

الجفاف والسنين العجاف:

مضت السنوات السبع الخصبة، ويوسف ﷺ ـ على مداها ـ يدخّر القمح والمواد الغذائية للسنين العجاف لما يكفي مصر والبلدان المجاورة لها..

وجاءت (السنين العجاف) السبع وتحقق تأويل يوسف ﷺ رؤيا الفرعون، فحدث جوع وقحط عمّ مصر وشمال افريقيا وفلسطين وغيرها من بلدان المنطقة، وظهر نجاح يوسف ﷺ في تدبيره الممتاز، وفي خزنه فائض الأرزاق من السنين الماضية، لتكون ذخيرة لتفادي المجاعة أيام القحط والجفاف.

اشتد الجدب، واقتضت الحاجة أن تبحث البلدان عن ما يسدُّ جوع أبنائها، ففتح يوسف المخازن وباع الطعام في مصر، وشاع الخبر في البلاد والأمصار الأخرى مما دعا المسؤولين من مختلف العالم إلى السفر إلى مصر لشراء ما يسد الرمق، وتبع ذلك جلب الأمصار خيرها من غير المواد الغذائية إلى مصر ويوسف ﷺ وزير المالية في مصر، فعمّ الخير مصر ولمع اسم يوسف ﷺ باسمه (صفنات) ورفعهُ الله تعالى وحببه إلى القلوب والنفوس أكثر فأكثر.. وكان له مكانة خاصة عند الفرعون (الملك) وغيره، جاء في التوراة: «... وقال لهم ـ يعني يوسف ﷺ ـ لا بد من ادخار خُمس غلّة الأرض في السنوات الخصبة، حتى إذا جاءت سنوات القحط كانت البلاد مستعدة لمكافحة الجوع، وأن يقوم على ذلك

نظار في ارجاء البلاد. فقال فرعون لجنوده: هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله؟!»[1]. وبعد إعجاب الملك بيوسف ومدحه إياه «. . التفت إلى يوسف وقال له: بعد ما أعلمك الله كل هذا، ليس هناك بصير وحكيم مثلك، أنت تكون على بيتي وعلى فمك يقبل جميع شعبي، إلّا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك. وقال له أيضاً: جعلتك على كل أرض مصر، وخلع خاتمه من يده وجعله في يد يوسف وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه وأركبه في مركبته الثانية، ونادوا على الناس أمامه بالركوع له على كل أرض مصر وصاحب الأمر والنهي والأمر المطاع والكلمة النافذة، وسمي يوسف (صفنات فعينع). . . »[2].

لقد منح الله تعالى هذا الخير ليوسف عليه السلام نتيجة صبره وشكره في السرّاء والضراء. . . صبر في كل ما مرّ به من المصاعب، حتى رفعه الله تعالى وركعت له مصر ومن حولها. . وشكر الله حتى أوصله تعالى أعلى منصب في هذا البلد إلّا كرسي الملك (الفرعون) الشكلي، في حين كان يوسف عليه السلام هو الآمر والناهي.

نظر يوسف عليه السلام إلى ملكه وعزه، قال: ﴿۞رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾[3].

لا جرم أن الله تعالى زاده علماً على علمه وفتح بصيرته وجعله ذا فطنة ثاقبة، وعلّمه من تأويل الأحاديث ـ وهو تعبير الرؤيا ومعرفة الحقائق ـ فلا يأتيه أحد يقص عليه رؤيا إلّا أتاه بتأويلها على وجهه، أو أن يسأله عن سؤال إلّا أجابه عنه، وذلك من شّده الملاحظة وحدّة الذهن ومعرفة موارد الأمور ومصادرها مع عون الله تعالى له، وذلك كله، يوجب النفوذ إلى

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٤١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) سورة يُوسُف: ١٠١.

بواطن الأشياء والتفطن للمناسبات على وجهٍ يجعل الظن يقيناً . . فكان يعطي الحلول لكل مشكلة وواقعة ومنها مشكلة (الجفاف والسنين العجاف) . . الذي حلّها على أكمل وجه، وكانت من الأمور الممهدة للم شمله مع أهله وجمعهم في مصر، وكان ذلك تمكين من الله تعالى ليوسف الصديق عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[1].

بنو إسرائيل والمجاعة في فلسطين:

سبّب عدم هطول الأمطار في منطقة البحر المتوسط وشمال افريقيا، جفافاً في طول المنطقة وعرضها، وضمن المنطقة المتضررة كانت فلسطين: بلد غربة يعقوب وأبنائه الذين عُرفوا بالبداوة والترحل والتجوال طلباً للماء والمرعى والغذاء حينما تجفُّ المنطقة التي يقطنونها . . فحينما انتشر خبر الخير والرزق في مصر، في جميع البلدان، ولا سيما فلسطين ـ محل إقامة يعقوب وأولاده ـ التي أجدبت وأحسَ أهلها بالجوع، أرسل يعقوب (إسرائيل) بنيه العشرة إلى مصر ـ باستثناء بنيامين ـ وطلب منهم، أن يأخذوا معهم فضة وبضاعة يستبدلونها بقمحٍ وشعير.

جاء في التوراة: «فأتى بنو إسرائيل ليشتروا بين الذين أتوا لأن الجوع كان في أرض كنعان. وكان يوسف هو المسلط على الأرض وهو البائع لكل شعب الأرض»[2].

يقول محمد جواد مغنية: «امتد القحط إلى البلاد المجاورة لمصر، ومنها فلسطين أرض كنعان، حيث يقيم نبي الله يعقوب، وكان قد شاع أن عزيز مصر قد أعدَّ للجوع عدته، وأنه يوزع الحنطة بالقسط بين الناس، لا فرق عنده بين شعبٍ وشعب، وكان قد نزل ببيت يعقوب من العوز ما نزل

(١) سورة يُوسُف: ٥٦.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٢، العدد ٥ ـ ٦ ـ ٧.

بغيره، فأمر بنيه أن يتجهزوا، ويذهبوا إلى مصر يشترون الطعام، فذهبوا، وهم عشرة، ولمّا وصلوا مصر دخلوا على يوسف، وهو في مجلس الولاية، لأنه كان يشرف على أمر الميرة بنفسه..»[1].

وقالت التوراة: «فلما رأى يعقوب أنه يوجد قمح في مصر قال يعقوب لبنيه لماذا تنظرون بعضكم إلى بعض. وقال إني قد سمعتُ أنه يوجد قمح في مصر. انزلوا إلى هناك لنحيا ولا نموت»[2].

طلب يعقوب عليه السلام من بنيه العشرة السفر إلى مصر ولم يطلب من بنيامين مع أنه كان في الثلاثين من عمره يقل أو يزيد وله زوجة وأبناء كما لإخوته فهو بحاجة ليؤمن العيش لنفسه ولعائلته كذلك...

الظاهر أن يعقوب عليه السلام كان يجد في بنيامين عزاء وسلوى عن يوسف، فقد تمسك به أكثر منذ فراقه ليوسف، وكان لا يأمن شر إخوته عليه وغيرتهم منه، وكانوا لا يتجرأون أن يعترضوا على أبيهم بعد ما فعلوه مع أخيه يوسف.

فقد امتثلوا أمام أبيهم، وأعدوا رواحلهم، وأحصوا بضاعتهم التي سيدفعونها ثمناً للقمح، وشدوا الرحال متوكلين على الله وعلى دعاء أبيهم يعقوب عليه السلام الذي أعجزته الشيخوخة من الذهاب معهم...

«فلما وصلوا إلى (أواريس).. اتجهوا إلى عزيز مصر، فإذا هو قائم في مدخل قصر عظيم، ارتفعت أعمدته الفرعونية، وقد التف حوله عدد من العمال (الموظفين الذين يتولون توزيع القمح) واصطف أمام القصر بعض الجنود وبأيديهم الرماح، وهم بملابسهم الفرعونية، وكان اللقاء بين يوسف أو (صفنات) عزيز مصر، مع أبناء يعقوب..إخوته.»[3].

والجدير بالذكر أن مدينة (أورايس) كانت من المدن المهمة زمن يوسف عليه السلام ومن قبله إبراهيم عليه السلام. فقد كانت العاصمة، وكانت تتمتع

---

(١) تفسير الكاشف، ج٤، ص٣٣٣.
(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٣٩.
(٣) أنبياء عاشوا في مصر، ١٠٧.

بموقعها الاستراتيجي من نهر النيل وفروعه، وكانت أقرب مدينة إلى سيناء من غيرها من مدن مصر القديمة.

يوسف الوزير يستقبل إخوته:

عندما أحس أهل فلسطين بالجوع وعرفوا أن الطعام بمصر موفور، أرسل يعقوب (إسرائيل) بنيه (بني إسرائيل) ومعهم الجمال والحمير لحمل الطعام وأعطاهم الثمن، فقدموا إلى مصر لشراء قوت لأهلهم، فلما قدموا مصر رآهم يوسف عليه السلام فعرفهم دون أن يعرفوه: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾[1].

وحريٌّ بهم أن لا يعرفوه، لأنهم فارقوه غلاماً لم يبلغ الحلم، وهو اليوم رجل يناهز الأربعين من عمره، وقد كسته أبهة الملك مهابة تغض عنه عيون الناظرين إليه وقد تغير اسمه من يوسف إلى (صفنات) وأما هم فعلى حالهم في ملبسهم ولغتهم ومنظرهم لم يتغيروا شيئاً و. . .الخ.

وجاء في التوراة: «. . . وعرف يوسف إخوته وأما هم فلم يعرفوه»[2].

نظر يوسف عليه السلام إلى إخوته، فلم يجد أخاه (بنيامين) بينهم، أخاه لأمّه الذي هو أصغر منه سناً من امهم (راحيل) الأثيرة عند يعقوب. فلما تمَّ البيع والشراء بينهُ وبين إخوته وجهز إخوته بالطعام الذي اشتروه منه، قال لهم ائتوني بأخ لكم من أبيكم، أعاملكم مرة أخرى فإذا لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾[3].

فالآية ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾[4] تدل على أن يوسف عليه السلام أكرم وفادة إخوته، وأحسن ضيافتهم، فاطمأنوا إليه، فأخذ

---

(١) سورة يُوسُف: ٥٨.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٢، العدد ٨.

(٣) يوسف، ٥٩ ـ ٦٠.

(٤) سورة يُوسُف: ٥٩.

يستدرجهم حتى عَلِم منهم كل ما يتعلق بأسرته وأخيه بنيامين، وعرف عن أبيه كل ما أراد معرفته، وكان كل ذلك الإقرار منهم لأنه (خير المنزلين) حسن الضيافة صادق الكلام عادل في معاملته، حسنٌ في كلامه، حتى صار موضع ثقتهم..

قالوا له: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾[1]. أي إنهم سيحاولون إقناع أبيهم لجلب (بنيامين) معهم في المرة القادمة، مع علمهم بصعوبة الامر والمطلب لأنه لا يأمنهم عليه بعد فعلتهم بأخيه (يوسف).

أمّا يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾[2]. وهذا تعليل لإرجاع الثمن إلى إخوته، لأنه أمر المسؤولين أن يجعلوا الثمن الذي دفعه إخوته مقابل الطعام في أوعيتهم حتى يكون مورد ترغيب لهم في العودة إلى الكيل ثانية، وليس ببعيد أن قصد يوسف من ذلك أن يطمئن أباه لكي لا يثقل عليه إرسال أخيه معهم إليه.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾[3]. يشيرون بذلك إلى ما قاله يوسف أنه سيمنع الكيل في المستقبل إذا امتنعوا من إتيان (بنيامين).

بعد طرحهم الفكرة على أبيهم أجابهم: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[4].

ثم رجعوا إلى بضاعتهم وفتحوها ففرحوا لما رأوا فيها، فأسرعوا إلى أبيهم مسرورين: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا

---

(١) سورة يُوسُف: ٦١.
(٢) سورة يوسف: ٦٢.
(٣) سورة يُوسُف: ٦٣.
(٤) سورة يُوسُف: ٦٤.

﴿مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ۝٦٥﴾[1].

أخذوا يتساءلون ماذا يفعلون؟ ثم سألوا أباهم (ما ينبغي) أي ماذا نطلب من عزيز مصر؟ وبأي شيء نعتذر إليه إذا رحلنا إليه ثانية دون صحبة أخينا؟ وقد أكرمنا في مصر وأكرمنا في رد ثمن البضاعة ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾[2].

أصرَّ يعقوب عليه السلام على موقفه في عدم إرسال (بنيامين) معهم إلّا أن يأخذ منهم مواثيق وعهوداً بإرجاعه سالماً معافى إلّا أن ينزل بهم ما لم يكن في الحسبان: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ۝٦٦﴾[3].

يقول المفسرون إن الموثق الذي أعطوه لأبيهم أنهم أكّدوا الأيمان بأنهم يفدونه بالأرواح بل الظاهر أن قسمهم ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾[4] كان كافياً معهم تحت الشروط التي اشترطها عليهم، والظاهر أن القحط كان شديداً في فلسطين مما جعل يعقوب عليه السلام يسمح بسفر ابنه الذي كان لا يفارقه منذ أن فارق يوسف. ثم أوصاهم عندما رأى عزمهم على الخروج ونظر إليهم وقد دخل في نفسه شيء، فقال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾[5] ثم دعا لهم: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾[6].

فامتثلوا لأمرِ أبيهم حين دخلوا على عزيز مصر، وزير التموين والمالية: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا

---

(١) سورة يُوسُف: ٦٥.
(٢) سورة يُوسُف: ٦٥.
(٣) سورة يُوسُف: ٦٦.
(٤) سورة يُوسُف: ٦٦.
(٥) سورة يُوسُف: ٦٧.
(٦) سورة يُوسُف: ٦٧.

﴿حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1].

نزل أخوة يوسف عليه السلام ضيوفاً على مصر، فلمّا رآى يوسف عليه السلام إخوته ومعهم بنيامين أمر غلمانه بالإحسان إليهم وبحسن ضيافتهم وأن يذبحوا لهم ويهيئوا طعاماً ليأكل معهم وقت الظهر[2].

أراد يوسف عليه السلام إبقاء أخيه بنيامين بجانبه ليكون مقدمة لمجيء أهله وعشيرته إلى مصر حيث النعيم والعيش الرغيد.

فقد قام يوسف عليه السلام بأمر عُمّاله لتجهيز إخوته فملأوا لهم الأعدال طعاماً، وأمر أن توضع فضة في عدل كل واحد منهم، وأن توضع سقايته في عدل صغيرهم، والسقاية: عبارة عن طاسة خاصة بالملك يشرب بها، فساروا غير بعيد، وإذا بوكيل يوسف يناديهم ويوبخهم على ما صنعوا بمقابلتهم الإحسان بالإساءة، وسرقة سقاية الملك (يوسف). ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾[3].

وكان الموقف محرجاً لأولاد يعقوب عليه السلام، فأظهروا البراءة من هذا العمل بالقسم والأيمان المغلظة: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾[4].

أما وكيل الملك وعُماله فقد: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾[5].
أجابوهم: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6].

---

(١) سورة يُوسُف: ٦٨.
(٢) انظر سفر التكوين، الإصحاح ٤٢.
(٣) سورة يُوسُف: ٧٠-٧٢.
(٤) سورة يُوسُف: ٧٣.
(٥) سورة يُوسُف: ٧٤.
(٦) سورة يُوسُف: ٧٥.

أي إن مَن سرق مالاً يصيَّر عبداً لمن سرق ماله وهكذا كان حكمهُ في سُنةِ يعقوب عليه السلام. وبهذا أخذ (الملك يوسف) بالتفتيش والفحص بالبناء على ما ذكروه من الجزاء:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾[1].

فبدأ بأوعيتهم يفتشها قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه للتعمية عليهم حذراً من أن ينتبهوا ويفطنوا أنه هو الذي وضعها ثم استخرجها منه، وعند ذلك استقر الجزاء عليه لكونها (الطاسة) في رحله وبذلك يستبعد للملك، لكنهم راودوه على أن يأخذ أحدهم عبداً عوض أخيهم، فأبى وقال: إن الذي وجد الطاس في رحله يكون عبداً لي، وأما أنتم فاذهبوا إلى بلادكم: ﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾[2].

كان الموقف حرجاً لأولاد يعقوب عليه السلام، فامتلأوا غيظاً من أخيهم بنيامين لما ورطهم فيه وبانوا على حقيقتهم من موقفهم من أخيه يوسف فقالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل، ويُقال إنهم كانوا يعنون بذلك يوسف لأنه فقد أمه وهو صغير فكفلته عمتهُ وتعلقت نفسها به، فلما اشتد قليلاً أراد يعقوب عليه السلام أن يأخذه منها «فضنت به وألبسته منطقة لإبراهيم كانت عندها وجعلتها تحت ثيابه، ثم أظهرت أنها سُرقت منها وبحثت عنها حتى أخرجتها من تحت ثياب يوسف، وطلبت بقاءه عندها يخدمها مدة، جزاء له بما صنع، وبهذه الحيلة استبقته عندها وكفَّ أبوه عن مطالبتها به»[3].

لقد سمع يوسف عليه السلام مقولتهم فيه لكنه أسرّها في نفسه ولم يبدها،

---

(١) سورة يُوسُف: ٧٦.

(٢) سورة يُوسُف: ٧٧.

(٣) قصص الأنبياء، النجار، ص١٣٤.

وقال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من هذا السارق، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

بيد أنهم استمروا في حوارهم مع يوسف عليه السلام لكي لا يبقيه عنده لأنه سلوةُ أبيهم بعد فقد أخيه، أو أن يستبدل غيره، وتبرع كبيرهم (رأوبين) أن يكون عبداً للملك وخادماً عوضاً عن أخيه لأنهم أعطوا موثقاً لأبيهم بالحفاظ عليه. بعد أن يأسوا من أخذ بنيامين معهم بأي طريق، بقي كبيرهم معه وعادوا إلى فلسطين حيث محل إقامة أبيهم يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[1].

هذه هي البداية للتمهيد لدخول (إسرائيل) وبنيه إلى مصر ليحلّوا ضيوفاً عليها حتى ظهور النبي موسى عليه السلام ليخرجوا منها ومن آمن بدين الله على يد كليمه النبي موسى عليه السلام فارّين بدينهم من بطش فرعون مصر العدو لهم ولله تعالى ونبيه.

تاريخ دخول بني إسرائيل مصر:

الخطة الحكيمة التي استخدمها يوسف عليه السلام في إبقاء (بنيامين) أخيه الأثير عنده، كانت تمهيداً لسحبهم جميعاً إلى مصر والبقاء فيها ولمّ شمل يوسف عليه السلام مع أبيه يعقوب عليه السلام الذي ابيضّت عيناه من الحزن والبكاء عليه كان وحياً من الله تعالى ليوسف هذا التدبير وهو المقصود بقوله تعالى ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2].

وقد ذكرت الحادثة في القرآن الكريم في سورة يوسف من الآية «٧٠»

---

(١) سورة يوسف: ٨٠.

(٢) سورة يُوسُف: ٧٦.

إلى الآية «٨٥» وكذلك ذُكرت في التوراة في سفر التكوين في الإصحاح «٤٢» وما بعده لكن هناك خلافاً بين الاثنين، فالقرآن الكريم يجعل أخذ الموثق على جميع أولاد إسرائيل العشرة. أما التوراة فإنها تجعله على يهوذا خاصة، ولعله كان متحدثاً باسمهم وكلمته كلمتهم وعهده عهدهم. والقرآن يذكر يوسف أنه آوى أخاه وقال (إني أنا أخوك) والتوراة تجعل يوسف مجهولاً من بنيامين إلى أن أخبرهم جميعاً بأنه أخوهم بعد ذكر قصة الطاس. والقرآن ذكر قولهم ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾[1]. والتوراة لم تذكرها. والقرآن يذكر عودة أخوة يوسف إلى أبيهم وإخباره بأن ابنه قد سرق واستُعبد في مصر للملك. والتوراة لم تذكره. ومن المعلوم أن القرآن مهيمن في كل الأحوال على ما تقدمهُ التوراة، وحين نستشهد ببعض نصوص التوراة ليس باعتبارها كتاباً سماوياً بل هي مصدر تاريخي قديم كتبته الأيدي، فيه الغث والسمين، والصحيح والخطأ، والهوى واللامبالاة في نقل الحدث التاريخي، وفي أحيان كثيرة نرى بين طياتها الخبث والدس والتزوير.

على أي حال رجع أولاد يعقوب إلى أبيهم وقصوا عليه الحادثة وأمر السرقة وحلفوا له الأيمان بصدقهم، وسألوه أن يتحرى هو بنفسه ويسأل (القرية) أي مصر التي كانوا فيها ويسأل القافلة التي كانت معهم. . .الخ وقالوا مؤكّدين لأبيهم ﴿...وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٨٢﴾.

تألم يعقوب عليه السلام للحادث وأمرهم أن يذهبوا ويفتشوا عن يوسف وأخيه ولا ييأسوا: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾[2].

أطاع بنو إسرائيل أباهم وسمعوا لوصيته وعادوا إلى مصر مرةً ثالثة، دخلوا على العزيز منكسرين مسترحمين، وبدأوا بالشكوى من الفاقة

---

(١) سورة يُوسُف: ٧٧.

(٢) سورة يوسف: ٨٧.

والابتلاء ومما حلَّ بهم من الضُّرّ قالوا: ﴿...يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾[1].

سمع يوسف عليه السلام شكواهم وتألم قلبه الرؤوف عليهم إلّا أنه ذكّرهم بما كان منهم من الإساءة قال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾[2] إذ فرقتم بينهما وألهبتم صدورهما وأبيهما بنار البُعد والفراق، فعجبوا للغة التي استعملها هذه المرة معهم، فقد كان في المرتين السابقتين بينهما مترجم لأنه كان يكلمهم باللغة الفرعونية المعروفة في مصر وهم يتكلمون باللغة الكنعانية التي اعتادوا عليها، وأنه الآن يكلمهم بلغتهم، فعرفوه بعد أن توفرت المصاديق لمعرفته: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾[3] فاعترف لهم يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[4].

فاعترفوا له أنه أفضل منهم وأحسوا أن أباهم كان محقاً في إيثاره له لأن الله قد آثره عليهم: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾[5] أجابهم بكل تواضع ورحمة: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾[6] ثم أوصاهم أن يرجعوا إلى كنعان أرض فلسطين ويخبروا أباهم ثم يلقوا عليه قميص يوسف. قال لهم: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٣﴾[7].

يوسف يعفو عن خطيئة إخوته:

أحسَّ أولاد يعقوب عليه السلام بالذنب والخزي حينما عرفوا أخاهم يوسف

---

(١) سورة يوسف: ٨٨.
(٢) سورة يُوسُف: ٨٩.
(٣) سورة يُوسُف: ٩٠.
(٤) سورة يُوسُف: ٩٠.
(٥) سورة يُوسُف: ٩١.
(٦) سورة يوسف: ٩٢.
(٧) سورة يُوسُف: ٩٣.

وهو يقف أمامهم وقفة العزة والغلبة، بعد أن أذلوه واستضعفوه، فهو أصغرهم وهم عصبة، لكن ملكه ومكانته وهيبته وهو يقف أمامهم، جعلهم يشعرون بصغرهم وعظمته، فأخذوا يعتذرون ويتوسلون إليه أن يعفو عن زلتهم، ويسأل الله تعالى أن يغفر لهم ولا يخزيهم يوم القيامة، فهم مؤمنون بالله لكن الشطيان سوّل لهم ذلك.

نعم لقد وقفوا أمامه أذلاء وجوههم مسودّة، اعترفوا بذنبهم، واعترفوا بما قد آثره الله تعالى عليهم، وأقرّوا أن أباهم كان على حق حين آثره عليهم، فقالوا له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾[1] ثم استرسلوا بالاعتراف قائلين: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[2].

بعد هذا التذلل والاعتراف بالذنب، رقّ قلب يوسف النبي المعصوم لإخوته ووقف أمامهم موقف الكريم المحسن العافي عمن أساء إليه، غير مقتص قائلاً لهم:

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3].

علا الفرح وجوه بني إسرائيل (يعقوب ﷺ) بعفو يوسف عنهم بعد جريمتهم الشنعاء بحقه، ومما زادهم سعادةً دعاؤه بغفران الله لذنبهم، وهذا ما دفعهم إلى التعجيل والإسراع للرجوع إلى فلسطين وإخبار والدهم بما منَّ الله تعالى على يوسف من نعمة الحياة والمكانة الرفيعة والنبوة، ورجعوا وهم يحملون قميص يوسف ﷺ إلى أبيهم وهم يقولون:

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[4].

وبقي بنيامين إلى جانب أخيه فرحاً مسروراً بما منَّ الله عليهما بلمِّ

(١) سورة يُوسُف: ٩١.
(٢) سورة يُوسُف: ٩١.
(٣) سورة يُوسُف: ٩٢.
(٤) سورة يُوسُف: ٩٠.

شملهما بعد فراق دام سنين، بقي معه وهو مسرور بالمكانة التي بوّأها الله تعالى ليوسف بعد صبر ومعاناة، بمكانة تزيده فخراً واعتزازاً بأخيه الوحيد لأمه وأبيه.

دخول بني إسرائيل مصر:

حَملَ أخوة يوسف (بني إسرائيل) وصية العزيز أو ما يصطلح عليه بالوزير، حملوها إلى أبيهم، ولما ابتعدت عيرهم عن مصر كانت نفس يعقوب مستشرفة لتغيير ما به من حال ولم يدب اليأس إلى نفسه وقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾[1]. قالها لمن حوله من جماعته، فأجابوه قائلين﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[2] أي إنّك باقٍ على اعتقادك أن يوسف حيّ وسوف يجتمع شملك معه. ولم يطل الحوار ولا الانتظار حتى جاء البشير إلى يعقوب بسلامة يوسف وأخيه. وألقى عليه قميص يوسف، فارتد إليه البصر وقال: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

وحقاً كان يعقوب ﷺ نبياً معصوماً، ولا شك أن الله تعالى أخبره بحياة يوسف وأنه سيجمع الله شمله معه يوماً ما..

انصاع الجميع لرأي يوسف ﷺ في الرحيل إلى مصر، نساؤهم ورجالهم وماشيتهم وحميرهم و...و... وكل ما يملكون ويتركون أرض كنعان وراء ظهورهم لعدم ارتباطهم بها بأي رابطة سوى أنها أرض غربتهم أجمعين.. فلا يهمهم إنْ سكنوها أو سكنوا مصر أو غيرها فإنهم اعتادوا حياة البداوة والتنقل والرحيل طلباً للمعيشة، وإنهم هذه المرة سيدخلون مصر معززين مكرمين بيوسف ومنصبه وملكه وأبهته و..و..الخ.

---

(١) سورة يُوسُف: ٩٤.
(٢) سورة يُوسُف: ٩٥.
(٣) سورة يُوسُف: ٩٦.

شدَّ يعقوب عليه السلام وآله الرحال إلى مصر حيث يوسف وبنيامين والعيش الرغيد، يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝﴾[1] أي أقيموا فيها بأمانٍ وسلام، لأن المعروف عن مصر وأهلها، أنهم لا يسمحون للغريب الدخول إليها، فقد ورد في تاريخ الحضارات العام في وصف الحضارة المصرية: «إن الحضارة المصرية إذن، بالرغم من انكماشها البالغ، قد اتصلت أحياناً بالأجنبي. غير أن هذا الاتصال لم يتصف بطابع الأهمية علمياً»[2].

وجاء في مجمع البيان: «وإنما قال لهم: آمنين. لأنهم كانوا في ما مضى يخافون ملوك مصر، ولا يدخلونها إلّا بجوازهم ـ أي بجواز السفر كما هو المتبع في هذا العصر..»[3].

بعد أن أمَّنَ لهم الاستقرار في مصر ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[4] أي أجلسهما على السرير الذي كان يجلس عليه في إدارته لشؤون المملكة، تعظيماً لهما﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾[5] أي قدموا له التحية، تكريماً له وكان الانحناء تحية الناس للمعظم في ذاك العصر، انحنى إخوته وأبوه وخالته لأن أمه كانت متوفاة.

وفي حينها ذكَّر يوسف عليه السلام أباه بالرؤيا: ﴿...وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾[6]. أي بدأ يوسف عليه السلام يقصّ على أبيه ما جرى عليه طيلة سنين الفراق، وحمد الله أن جاء بهم وجمع شملهم بعد أن كانوا يعيشون حياة بدوية، وبعد

---

(١) سورة يُوسُف: ٩٩.
(٢) تاريخ الحضارات العام، مج١، ص١٣٢.
(٣) مجمع البيان، في تفسير سورة يوسف آية ٩٩.
(٤) سورة يُوسُف: ١٠٠.
(٥) سورة يُوسُف: ١٠٠.
(٦) سورة يوسف: ١٠٠.

أن فرّق الشيطان قلوب إخوته عنه: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

وقد ذكرت التوراة مجيئهم إلى مصر وأضافت إلى ذلك: «وانحدر يعقوب إلى مصر وعمره مائة وثلاثون سنة بعد أن أقحط سنتين»[2].

واختلف المؤرخون في سنة دخولهم مصر، فقد ذكر الكاتب الفرنسي موريس بوكاي: «..كان دخول بني إسرائيل نحو: (١٨٥٠ ـ ١٨٨٠) ق.م»[3].

وقال الكاتب المصري د.سيد كريم: «ودخل اليهود إلى مصر ـ يقصد بهم بني إسرائيل ـ إلى مصر عام (١٦٥٦) ق.م عن طريق يوسف ﷺ في عهد الملك أبو فيس ملك الهكسوس في الأسرة السادسة عشرة. وكان عددهم كما ورد في التوراة، سبعين شخصاً»[4].

وقد لا يكون هذا التاريخ أو ذاك لأن الهكسوس دخلوا مصر واحتلوها عام (١٧١٠ ـ ١٥٦٠) ق.م[5].

وبعض المؤرخين استندوا إلى أنهم دخلوا مصر زمن حكم الهكسوس، والهكسوس حكموا مصر من عام (١٧١٠ق.م) إلى أن طردهم المصريون نهائياً من مصر عام(١٥٦٠ق.م). وسنين القحط حدثت في ذلك الوقت وبصورة دقيقة في زمن الأسرة السادسة عشرة، وقد تظهر حقيقة الأمر على أيدي علماء الآثار يوماً ما، لأن آثار الأسرة السادسة عشرة لم يصل من أخبارها إلّا القليل بالقياس إلى بقية الأسر الفرعونية.

---

(١) سورة يُوسُف: ١٠٠.

(٢) تاريخ مختصر الدول، ابن العبري، ص١٦.

(٣) التوراة والإنجيل والقرآن، موريس بوكاي، ص١٩٢.

(٤) مجلة الهلال المصرية، العدد ٥، ص٥٤.

(٥) انظر تاريخ الحضارات العام، حكم الهكسوس.

على كل حال، فالتوراة تصف دخول يعقوب مصر: «ثم أدخل يوسف يعقوب أباه وأوقفهُ أمام فرعون وبارك يعقوب فرعون. قال فرعون ليعقوب كم هي أيام سني حياتك. فقال يعقوب لفرعون أيام سني غربتي مئة وثلاثون سنة»[1].

وتضيف التوراة قائلة: «فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً في أرض مصر من أفضل الأراضي في أرض رعمسيس كما أمر فرعون. وعال يوسف أباه وإخوته وكل بيته وأبيه بطعام حسب الأولاد»[2].

بنو إسرائيل في مصر:

استقر بنو إسرائيل مع الوالد الشيخ الكبير نبي الله يعقوب، في مصر يتمتعون بحرية مفرطة للنفوذ القوي الذي يتمتع به يوسف الأثير عند الملك (الريان) ملك مصر، والمقرب إليه لكبر عقله وذكائه الحاد ونظرته البعيدة للأمور وتدبيره المميز، فكانت عائلة يوسف ﷺ المكونة من سبعين شخصاً يتمتعون بحرية التجوال والسفر في طلب المرعى من مصر إلى فلسطين وبالعكس، بعد أن كانت العلاقات ـ حسب ما يُذكر ـ بين المصريين والعبرانيين محدودة جداً، كلٌّ منهم يخاف الآخر، فالمصري يخاف العبراني البدوي والعبراني يخاف المصري صاحب الحضارة، إلّا أن الأمور قد تغيرت واتخذت وجهاً آخر، والفضل يرجع إلى النبي يوسف الصديق ﷺ وتدبيره حتى في العلاقات الخارجية، فكثر السفر إلى مصر بعد انطواء عاشته فترة من الزمن.

فقد طمأن يوسف ﷺ أبويه وإخوته وأتباعهم وضمهم إليه وأنزل الجميع منزلة كريمة بإذنٍ من الله تعالى ومشيئته قائلاً: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[3].

(1) سفر التكوين، الإصحاح ٣٩.
(2) سفر التكوين، الإصحاح ٣٩.
(3) سورة يُوسُف: ٩٩.

وتذكر التوراة أن فرعون أسكنهم أفضل أرض في مصر عند استقباله لهم بالاتفاق مع يوسف ﷺ: «فكلّم فرعون يوسف قائلاً: أبوك وأخوتك جاءوا إليك، في أفضل الأرض أسكن أباك وأخوتك ليسكنوا في أرض جاسان وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء مواشٍ على التي لي. . .»[1].

وعند قدوم عائلة يعقوب ﷺ إلى مصر كان يوسف ﷺ قد تزوج ورُزق ولدين، وقيل: إنه «قدّم ابنيه أفرايم ومنسيّ لأبيه، فباركهم، ودعا لهما، وأعد يوسف نفسه للقاء الملك، وأخذ أباه وإخوته، فسعد الملك بلقائهم، وحينما علم أنهم أهل رعي، أسكنهم في منطقة رعوية هي أرض (جاسان) (جوشن) لتمضي بهم الحياة يسعدون بخيرات مصر، ويجدون الرعاية من يوسف»[2].

أمّا زوجة العزيز (زليخا) التي آمنت بإله يوسف «لاشك أنها سمعت ما أصاب يوسف من خير، وما صير إليه من مكانة ومنعة، تفوق مكانة زوجها، لكنها لم تعد راغبة فيه رغبتها الأولى، لا عن كراهية له، أو حقد عليه، ولكن لأن الله قد أودع في قلبها حباً آخر (هو حبه)، وأنار بصيرتها بالإيمان فعاشت لربها شاكرة له أن عصمها من الزلل»[3].

بقي بنو إسرائيل على حالهم في مصر حتى وفاة يعقوب ﷺ ومن بعده من جاء أجله من بنيه ثم يوسف ﷺ وجاء ملك آخر فحدّ من حريتهم ورجع التخوف من العبرانيين يدب في نفوس المصريين مرةً ثانية، وطرد المصريون الهكسوس المحتلين واستقلت مصر وبدأ الفراعنة بالتضييق على الأقليات من كانت لهم مصالح من المستعمر ومنهم بنو إسرائيل تخوفاً منهم من التآمر، وبهذا أحسَ أحفاد إسرائيل ﷺ بالضيق ومن ثم الاستعباد بعد أن

---

(١) التكوين، الإصحاح ٤٧، العدد ٥ ـ ٦.
(٢) أنبياء عاشوا في مصر، ص١٢٨.
(٣) أنبياء عاشوا في مصر، ص١٠٤.

استخدموا خدماً وعمالاً وجُردوا من كل المناصب التي حصلوا عليها زمن يوسف عليه السلام.

جاء على لسان كتبة التوراة: «وبعد ما طرد الهكسوس من مصر وكان اليهود ـ يقصدون بني إسرائيل لأن اليهود لم يظهروا بعد ـ أكبر نصير لهم بدأوا يتآمرون على المصريين ويعملون على مساعدة المغيرين»[1].

وجاء أيضاً: «ان فرعون مصر قال للمصريين عن اليهود ـ يقصد أحفاد إسرائيل ـ انهم إذا وقعت حرب ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويخرجون من الأرض»[2].

وبمرور الزمن تأزمت العلاقة بين المصريين والجالية العبرانية وكلما جاء فرعون جديد كبرت الهوة بينهم أكثر فأكثر حتى جاء دور (رعمسيس الثاني) الذي خلف الملوكية بعد أكثر من اربعمئة عام من الملك (الريان) الذي حكم عصر النبي يوسف عليه السلام.

تقول التوراة: «ولكي يأمن رعمسيس الثاني شرهم ودسائسهم قام بتجهيزهم في أعمال البناء وإنشاء الطرق وحفر الترع، وهي الأعمال التي كانوا يرفضون القيام بها، حيث تخصصوا في التجارة والتموين، كما فرض عليهم أعمال السخرة فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم، فبنوا للفرعون مدينتي مخازن فيثوم وبررعمسيس»[3].

هذا ما قالته التوراة، أما الكتب التاريخية فمصدرها التوراة لا غير، ولعل علم الآثار يكشف لنا الحقيقة من خلال ما كتب الفراعنة عن تاريخهم في بردياتهم وعلى جدران الأهرامات وما بقي من آثارهم، فمن خلال ترجمة ما كتبوا يمكن أن يأتي الحقيقة بصيص من نور، واقع بني

---

(١) التكوين، الإصحاح ٤٧، العدد ٦٦.
(٢) الخروج، الإصحاح الأول، العدد ١١.
(٣) الخروج، الإصحاح الأول، العدد ١١.

إسرائيل آنذاك وخطوات عائلة (إسرائيل) النبي يعقوب، لأن الاعتماد على التوراة في كشف بعض الحقائق باعتباره كتاب تاريخ غير كافٍ، لأن كاتبي التوراة اعتمدوا في تدوينه على الذاكرة أولاً وما حفظوه من الآباء والأجداد، وعلى ما شاع بين الناس من أخبار، وعلى قضايا سياسية فرضت نفسها، وأفكار استعمارية وذلك بسبب ما وقع عليهم من التعسف والاضطهاد والتشريد والتشتيت، ثم ظروف السجن الذي كان مكاناً لكتّاب التوراة، كلُ ذلك كان ظرفاً قاسياً على تدوين الحقيقة في التوراة، فجاءت مشوّهة والتبس الحق بالباطل.

أما إذا أردنا الحقيقة من كتاب التوراة فيجب أن تُعرض كل فكرة من أفكاره على ما لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من بين يديه (القرآن الكريم) وعلى ما جاء من الصحيح من السُّنة الشريفة، ومن عرضه ثم على علم الآثار وعلمائه.

وقد قرأت مقالاً للدكتور عبد الرحيم الكريمي عبر شبكة الأنترنيت يقول فيها: إن أي بنيان تاريخي وعلمي يبنى على اعتبار التوراة كتاب تاريخ، هو في الحقيقة مضيعة للجهد والوقت بلا طائل، كالحرث في الماء، ويبقى صحيحاً فقط ذلك البنيان الذي يبنى على حقيقة أركيولوجية أو أثر معروف وواضح تبدأ منه أبحاثنا.

اللقاء الأخير بين يوسف وإسرائيل:

دخل يعقوب عليه السلام مصر واستقبله يوسف عليه السلام أعظم استقبال قائلاً له ولمن معه ادخلوا مصر آمنين سالمين لا يمسكم السوء ما دمت فيكم. وتقول التوراة: «فشدّ يوسف مركبته وصعد لاستقبال إسرائيل أبيه إلى جاسان ولمّا ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زماناً»[1] وجاء فيها

(١) التكوين، ٤٦، ٢٩.

أيضاً: «أصعدُ وأخبر فرعون وأقول له إخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا إليَّ»[1].

وتزعم التوراة أن يعقوب ﷺ بقي سبع عشرة سنة في مصر ثم وافاه الأجل، وأن دخوله لها كان عن عمرٍ يناهز المئة والثلاثين: «وانحدر يعقوب على مصر وعمره مائة وثلاثون سنة»[2].

وقال يعقوب على حد تعبير التوراة لابنه يوسف ﷺ: «أموت الآن بعد ما رأيتُ وجهك إنك حيٌّ بعد»[3]. وقال له أيضاً: «لم أكن أظن أرى وجهك وهو ذا الله قد أراني نسلك أيضاً»[4].

بقي يعقوب ﷺ في مصر حتى أقعدته الشيخوخة واشتد به المرض فأحس بدنو أجله، جمع أبناءه الاثني عشر، وباركهم وأوصاهم بالله خيراً وقال لهم وهو يودع نسمات الحياة في صوت واهن، وأنفاس متقطعة، خوف تفرقهم من بعده عن عبادة الله قائلاً لهم يا بُنيَ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾[5] أجابوه قائلين﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[6].

أطمأن قلب يعقوب ﷺ بجمع كلمتهم على التوحيد فأكد لهم وهو يودع الحياة قائلاً: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[7].

وقد فارقت روحه الشريفة الحياة عن عمر يناهز «المئة وسبع وأربعين سنة»[8] حسب تعبير التوراة.

---

(١) التكوين، ٤٦، ١٣.
(٢) تاريخ مختصر الدول، ص١٦.
(٣) التكوين، ٤٦، ٣٠.
(٤) الخروج، الاصحاح الأول، العدد ١١.
(٥) سورة البَقَرَة: ١٣٣.
(٦) الخروج، الإصحاح الأول، العدد ١١.
(٧) سورة البَقَرَة: ١٣٢.
(٨) الخروج، الإصحاح الأول، العدد ١١.

وكان قد أوصاهم أن يدفنوه في الأرض المقدسة (كنعان) (فلسطين) وقد امتثلوا للأمر يرأسهم الوزير يوسف عليه السلام: «وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه.. وبكى عليه المصريون سبعين يوماً.. فصعد يوسف إلى كنعان ليدفن أباه.. ودفن في مغارة حقل المكفلية، عند مدينة الخليل..»[1].

وما زالت معالم قبره الشريف مهوى أفئدة الزّوار في مدينة الخليل، وإذا كان كتبة التوراة قد صدقوا في خبر تحنيط يعقوب عليه السلام فجسده الشريف لا بد أن يكون موجوداً لحد الآن بكماله وتمامه، ولو أن أجساد المعصومين بالحالة الطبيعية لا تبلى حسب الروايات الشيعية.

ويذكر أغلب المؤرخين والرواة أن يعقوب عليه السلام دُفن في مغارة المكفلية بجوار أبيه إسحاق وجده إبراهيم وجدته سارة.

دُفن يعقوب عليه السلام في مراسم بهية وعظيمة من خلال الموكب المهيب الذي هيأه له ابنه الوزير وبالتعاون مع الإخوة الأحد عشر.

وانتهت مراسم الدفن، ورجع أبناء إسرائيل (يعقوب عليه السلام) إلى مصر يترأسهم يوسف الصديق نبيُّ الله ليقضوا بقية حياتهم في مدينة (جاسان) التي اختارها لهم الملك، أمّا يوسف عليه السلام فقد رجع إلى مدينة (أورايس) عاصمة مصر آنذاك حيث هي مقر الحكومة والحكام، ولا تبعد كثيراً عن مدينة (جاسان)، وكان يتردد على إخوته بين الفينة والأخرى، وهم كذلك.

وفاة يوسف (ع):

وصل يوسف عليه السلام إلى نهاية المطاف، نهاية حياته ككل البشر وأشرف على الوفاة، وكانت حياته كلها عطاء كان غصناً طيباً من شجرة مباركة، ونجماً زاهراً يتراءى في علا، أضاء مصر ومن فيها ومن حولها حتى

---

(١) تاريخ مختصر الدول، ص١٥.

أقعدته الشيخوخة ووصل إلى سن المئة والعشرين كما يُقال، فجمع ما بقي من إخوته ودعا أبناءه وأبناء إخوته والأحفاد وأبناء الأحفاد ومن آمن بدينه ليوصيهم بالله والدين خيراً، مبيناً لهم نعم الله عليه نتيجة الصبر والثبات على الإيمان والتقوى، والبُعد عن الهوى ونزعات الشياطين، رافعاً عينيه إلى السماء قائلاً لربه يُسمعهم نجواه: ﴿۞رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾[1].

وبهذا تكون قد انتهت حياة أعظم إنسان في مصر وما حولها، توفاه الله تعالى مسلماً وألحقه بالصالحين. وقيل: إن المصريين حنطوه كبقية كبار البلاط الملكي من قبل أكبر أطباء مصر ووضعوه في تابوت من المرمر ودفنوه في مصر، ولعله في أحد الأماكن الأثرية الكثيرة في مصر، وعسى علم الآثار أن يعثر على سره.

وهناك بعض المزاعم الإسرائيلية تقول: «يُقال إنه دُفن في مصر في أحد الأماكن التي تمر بها مياه النيل، لتعم بركته، وحينما خرج بنو إسرائيل من مصر مع موسى ﷺ حملوا جثمان يوسف ﷺ معهم، ودفنوه في فلسطين»[2].

وهذا القول بعيد الاحتمال، لأن بني إسرائيل خرجوا هرباً من الفرعون وبطشه، وكانت جنوده تلاحقهم. خرجوا في ظلمة الليل فكيف استطاعوا حمل جثمان يوسف ﷺ، فالعملية تحتاج إلى وقت لإخراجه من مدفنه، ثم كيف حملوه وهم يتنقلون في صحراء سيناء، ثم التيه أربعين سنة، هل دخلوا بعد انقضاء التيه فلسطين مع الجنازة الشريفة لدفنها، وهذا ما لا يصدقه عاقل.

---

(١) سورة يُوسُف: ١٠١.

(٢) أنبياء عاشوا في مصر، ص١٣٠، الحاشية.

بنو إسرائيل بعد عهد يوسف (ع):

بعد العز والأمان الذي عاشه بنو إسرائيل في زمن يوسف عليه السلام الآمر الناهي المطاع الرأي والكلمة في مصر، انقلب أمرهم بعد رحيله عن دنياهم التي زهت بوجوده.

فتشتتوا أقساماً بعد أن تكاثروا وزاد عددهم، وقيل: إن فريقاً منهم انصهروا وذاب في المجتمع المصري من خلال المصاهرة وغيرها، وضاع ذكره، وفريقاً آخر هاجر إلى البلدان المجاورة بعد طرد الهكسوس من مصر ومطاردة المصريين لبني إسرائيل، والفريق الثالث بقي ينازع نفسه مضطهداً في مصر.

تقول التوراة: «ومات يوسف وكل إخوته وجميع ذلك الجيل... ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف.. فقال لشعبه هوذا بني إسرائيل شعب أكثر وأعظم منّا»[1].

وحاول البيت الفرعوني أن يقلل من كثرتهم وانتشارهم في البلاد قالوا: «هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدث حرب أنهم ينضمّون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض»[2].

واستمر التخوف من هذه الجالية حسب تعبير التوراة التي تصفهم كجالية مستقلة عن المصريين بكل عاداتها وتقاليدها وأفعالها وأنها كانت محاربة ومقصودة من قبل فراعنة مصر بعد وفاة النبي يوسف عليه السلام حتى ظهور النبي موسى عليه السلام، وإن أقسى فترة مروا بها هي فترة حكم الفرعون رمسيس الثاني الذي تنبأ له السحرة أن من بني إسرائيل مَنْ يكون السبب في القضاء على عرشه وجبروته، فغاظه ما سمع وهو المدعي بالألوهية، فقرر القضاء عليهم، لكنّ أحد مستشاريه، أشار عليه أن يقتل الذكور من

---

(١) الخروج، الإصحاح الأول، العدد ٦ ـ ٨ ـ ٩.

(٢) المصدر السابق، الإصحاح الأول، العدد ١٠.

مواليدهم للتخلص منهم، تقول التوراة في القرار الذي اتخذه الفرعون في حقهم إنه قال للمولدات: «حينما تولِّدنَ العبرانيات وتنظرانهن على الكرسي إن كان ابناً فاقتلاه وإن كان بنتاً فتحيا. . . ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلاً كل ابن يولد تطرحونه في النهر، لكن كل بنت تستحيونها. .»[1].

وأمر بتزويج البنات للمصريين. . وبذلك يكون الخلاص من خطرهم المحتمل. . وأمر بتشغيل الرجال في الأعمال الشاقة والثقيلة لغرض القضاء عليهم والتخلص من الذكور من بني إسرائيل. .

لكن رؤساء القبط ـ كما يذكر المؤرخون ـ تدخلوا في الأمر لخوفهم من تطبيق القرار عليهم باعتبارهم أصحاب حضارة ومدنية وهم المواطنون الأصليون في مصر، فقد أشاروا على رمسيس الثاني قائلين له: «إن الموت وقع في الكبار من بني إسرائيل من جرّاء الأعمال الشاقة ـ وأنت تقتل صغارهم فيوشك أن يقع العمل علينا ولا يبقى لنا أحد للخدمة غيرنا، فأمر أن يقتل الغلمان سنة ويتركوا سنة حتى لا يُهلك جميع أبناء إسرائيل»[2].

ولعل قبل التنبؤ بولادة من يقضي على عرش فرعون مصر، كانت وطأة العنف أقل على بني إسرائيل، ولعلهم كانوا كغيرهم من الأقليات يتمتعون بخيرات مصر. وفي كتاب (خطوات العائلة المقدسة في مصر) للكاتب فتحي فوزي عبد المعطي، توضيح لمجرى حياتهم من زمن دخولهم بقيادة النبي يعقوب عليه السلام، حتى ظهور النبي موسى عليه السلام، فراجع.

مصر قبل ظهور موسى (ع):

كانت مصر قبيل ولادة النبي موسى عليه السلام قد وصلت إلى قمة الهرم الحضاري في كل المجالات السياسة والاقتصادية والفنية والاجتماعية بل

---

(1) الخروج، الإصحاح الأول، العدد ١٦ ـ ٢٢.

(2) مع الأنبياء، عفيف عبد الفتاح طبّارة، ص٢١٨.

حتى في السحر والشعوذة والفلك والنجوم وبقية العلوم، حتى أن الفرعون رمسيس الثاني نظر يوماً ـ كما يقال ـ إلى عظمة ملكه وإلى طاعة رعيته فصاح (أنا ربكم الأعلى) أنا أُحيي وأُميت، فمن أطاعني أعطه الحياة ومن عصاني فالموت مصيره.

وقد وصفه القرآن الكريم بالطغيان والاستكبار، حقاً إنه طغى واستكبر فقد كان ينظر إلى عظمة البناء والعُمران والزراعة و. . . و. . الخ. كلٌ ذلك بأمره ومشورته، حتى أراه الله تعالى في منامه أن رجلاً من نسل النبي يعقوب عليه السلام سيقضي على عرشه وملكه وعظمته ويكسر طغيانه واستكباره.

استيقظ من نومه فزعاً وجلاً، قصَّ رؤياه على أحد الكهنة والسحرة فقال له نعم إنك تستعبد من هذه الفئة من الناس وقد جعلت الناس شيعاً أصنافاً منهم في الطبقة العُليا ومنهم في الطبقة الوسطى والذي في الطبقة السُفلى هُم عبيدك وعُمالك وإنك لا تنظر إليهم إلّا أنهم في قبضتك وأنت القادر عليهم لكن حلمك يوحي أن منهم من يكون أكثر قدرة منك فيقضي على عرشك وجبروتك.

وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾[1].

وقد سجل رمسيس الثاني أفعاله وأعماله على باب معبده في (أبو سمبل). ومن المعلوم أنه عاش في قمة تقدم الحضارة المصرية القديمة فكان أشهر الفراعنة كبرياءً وطغياناً نتيجة ما وصلت إليه مصر في عصره من التقدم والازدهار والتوسع.

وقد تُرجمت أغلب نصوصها وورد بعضها في قصة الحضارة. يقول ول ديورانت

«ويعتقد بعضهم أن رمسيس الثاني هو بعينه فرعون موسى الذي ورد

---

(١) سورة القصص: ٤.

ذكره في سفر الخروج. وأمر أن تخلد انتصاراته بغير قليل من المبالغة والتحيز على خمسين جداراً أو نحوها. وكلفَ أحد الشعراء بأن يشيد بذكره في ملحمة شعرية.

وكافأ نفسه على أعماله ببضع مئات من الزوجات وخلّف بعد وفاته مئة وخمسين ابناً ليبرهن على رجولته بعدد هؤلاء الأبناء وبنسبة الذكور منهم إلى الإناث. وتزوج عدداً من بناته حتى يكون لهن أيضاً أبناءً عظاماً»[1].

أما بنو إسرائيل فقد كانوا أقلية غير مرغوب فيها، فقد استضعفهم الفرعون وسخّرهم في أخس الأعمال باعتبارهم عمالاً وخدماً.

يقول موريس بوكاي: «ويمكن القول في أعمال سُخّروا بها. . . أما مدن رمسيس والبيتوم المذكورة في سفر الخروج، فهي الموجودة في المنطقة الشرقية من دلتا النيل وتنيس وكانتير الحاليتين الموجودتين على بُعد خمسة وعشرين كيلومتراً الواحدة عن الأخرى. . فهناك كانت عاصمة الشمال التي بناها رمسيس الثاني. . . فرمسيس الثاني هو فرعون الظالم. . »[2].

والظاهر أن المدن المذكورة كانت محل سكنى بني إسرائيل، وقد سخرهم الفرعون لبنائها ليشغلهم عن التآمر عليه وعلى ملكه. .

وقد جاء في التوراة: «فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف»[3].

وتقول التوراة أيضاً إن المصريين: «مرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل. كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفاً. . »[4].

وأغلب المؤرخين والمفكرين والكتاب يعتقدون أن رمسيس الثاني هو

---

(١) قصة الحضارة، مج١، ج٢، ص١٨١.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي، ص١٩٣.

(٣) الخروج، الإصحاح الأول، العدد ١٣.

(٤) الخروج، الإصحاح الأول، العدد ١٤.

الذي استعبد وظلم وطغى واستعلى وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] ومن بين الذين استعبدهم (بني إسرائيل) فقد استحل دماءهم وأعراضهم وقتل مواليدهم الذكور.

لكن السؤال الذي يُطرح دائماً هل هو نفسه الفرعون الذي أغرقه الله تعالى حين خروج موسى عليه السلام بقومه من مصر؟!!.

اضطراب التواريخ في التوراة:

وهنا لا بد من تسجيل ملاحظة مهمة وهي: حين نقرأ التوراة بغية الحصول على تواريخ دقيقة حول تاريخ دخول إبراهيم ويعقوب ويوسف عليهم السلام وحتى ظهور النبي موسى عليه السلام لم نعثر على تواريخ دقيقة تشفي الغليل، كما يدّعي اليهود وغيرهم..

وهذا دونالد ريدفورد المتخصص بالآثار والتاريخ القديم، يتحدث عن هذه التواريخ المضطربة، ويعتقد أن العثور على تاريخ دقيق من التوراة أمر غير ممكن، يقول: «.. ولمّا كانت التوراة تقرر، أن فترة الإقامة في مصر قد دامت (٤٣٠) سنة (سفر الخروج ١٢: ٤٠) فإن نزول يعقوب وعائلته في أرض جوشن لا بد وأن يكون قد حدث في سنة (١٩٢٦ق.م) وإذا ما أضفنا الآن أعمار أبراهام وإسحاق ويعقوب أي (٢٩٠) سنة فإننا نصل إلى (٢٢١٦ق.م) كتاريخ مولد إبراهام وهذا يعني أن وصول إبراهام إلى كنعان كان ليقع في سنة (٢١٤١ق.م) (قارن التكوين١٢: ٤) ونزوله إلى مصر (تكوين ١٢: ١٠ ـ ١٩) بين ذلك التاريخ وسنة (٢١١٦ق.م) أو تحت ظل الأسرة العاشرة التي حكمت البلاد من عاصمتها في هيراكليو بوليس (Herakleopolis) (الكاب حالياً في الكوم الأحمر ١٣ ك شمال إدفو. المترجم) ونزول يعقوب كان ليحدث خلال عهد الفرعون سنو سرت الأول وتستغرق اقامته طوال حكم الأسرة الثانية عشرة الغاربة،

---

(١) سورة النّازعَات: ٢٤.

وطوال عصر الأسرة الثالثة عشرة، والاحتلال الهكسوسي، وأوائل حكم الأسرة الثامنة عشرة حتى السنة التاسعة من عهد الملكة حتشبسوت! وفي ضوء سفر العدد ١٣ : ٣٢ الذي يفرد أربعين سنة للتيه فإن غزو كنعان تحت قيادة يشوع لا بد وأن يكون قد بدأ في سنة ١٤٥٦ق.م أو غداة سلسلة الحملات المظفرة التي شنّها الفرعون تحوتموس الثالث عندما كانت كنعان بأسرها جزءاً من ممتلكات مصر، وعشية عمليات ترحيل السكان المحليين التي قام بها الفرعون أمين ـ حوتب الثاني إلى وادي النيل والأكثر مدعاة للاندهاش هو ما يترتب، ضمنياً، على ذلك من وضع عصر (القضاة) بالتحديد في الفترة من (١٤٥٦) حتى (١٠٨٠ق.م)، وهو ما يتعاصر، تماماً أو يكاد مع الإمبراطورية في آسيا! ومع ذلك فمصاردنا المصرية لا تذكر شيئاً عن الآباء ولا عن إسرائيل في مصر ولا يشوع أو خلفائه، بينما تلزم التوراة الصمت تماماً عن الإمبراطورية المصرية في بلاد المشرق، حقيقة الأمر أن كتبة التوراة كانوا غير واعين، بصورة كاملة وسعادة غامرة بالتناقض الهائل بين تاريخهم (History) وتاريخهم (chronology)[١]»[٢].

وقد ذكر كذلك في جهل كتّاب التوراة في تعيين التواريخ والتسلسل الزمني للأحداث قائلاً «مثل هذا الجهل يصيبا بالحيرة، خصوصاً إذا استشعر المرء ميلاً نحو الانبهار بالمزاعم التقليدية حول عصمة (الكتاب المقدس) تلك التي تطرحها المسيحية المحافظة بالنيابة عن التوراة، والحقيقة أن الأسفار الخمسة والاسفار التاريخية تقدم بصورة جسورة تأريخاً (chronology) محدداً كان ليسند رواية التوراة خلال تلك الفترة التي كان الجهل والتناقض يسببان أكبر الحرج»[٣].

---

(١) يعني مصطلح كرونولوجي :(chronology) تقسيم الزمن إلى فترات. . وتعيين التواريخ الدقيقة للأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسها الزمني.

(٢) مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ترجمة بيومي قنديل، ص٣٩٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٩٢.

والنتيجة إن الذي يفقد أبسط متطلبات الوسائل اللازمة في تقسيم الزمن إلى فترات ومراحل ولا يولي اهتماماً لتعيين التواريخ للأحداث وترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمني، ويدوّن التاريخ بعشوائية ولا مبالاة، كيف يمكن الاعتماد عليه في حفظ شريعة وكتابة ما حفظ من كتابه المقدس في صدور أجيال ابتعدت عن الأصل حوالى (٨٠٠) عام أو أكثر من تدوين التوراة، إضافة إلى تدخل عوامل أخرى سبق أن ذكرناها!!

الفصل الخامس

تجمع بني إسرائيل في مصر

١ ـ سكن يوسف في مصر

٢ ـ نزول يعقوب وأتباعه في مدينة جاسان

٣ ـ علاقتهم بمدينتي بررعمسيس وفيتوم

٤ ـ فترة البقاء في مصر

٥ ـ أسباب التنكيل بهم

٦ ـ الأعمال التي مارسوها

٧ ـ طقوسهم الدينية

٨ ـ علاقتهم بالمصريين

٩ ـ علاقتهم بالهكسوس

١٠ ـ أماكن تجمعهم في مصر

تجمع بني إسرائيل في مصر

دخل بنو إسرائيل مصر كعائلة واحدة بقيادة الأب يعقوب عليه السلام الذي هو (إسرائيل) وبنوه وأحفاده وأهله وبعض من شاءوا صحبته ويُقال إن عددهم كان يقرب من الثمانين شخصاً يقل أو يزيد، دخلوا مصر في موكب ملكي أعدّه الوزير يوسف عليه السلام الذي هو الابن الحادي عشر (لإسرائيل) النبي الملهوف للقاء أبيه بعد فراق دام حوالى الثلاثين عاماً أو أكثر، وقيل: إن يوسف عليه السلام أقام له رجاله عريشاً على شاطئ البحر المتوسط ليستقبل قافلة الوالد العزيز.

تمَّ اللقاء ودخل بنو إسرائيل مصر وتجمعوا في مدينة واحدة أقرب إلى العاصمة التي تسكنها الحكومة والتي من ضمنها يوسف عليه السلام، وقد أسكنهم يوسف عليه السلام بأمر من الفرعون ـ على ما يقال ـ في المدينة التي تنسجم وطبيعتهم البدوية، حيث الرعي والزراعة وما إلى ذلك. .

مرَّ عليهم عدد السنين فصاروا اثنتي عشرة قبيلة كل واحدة أخذت اسم جدها إلّا أنهم ينتمون إلى جدهم الأعلى إسرائيل عليه السلام.

تفرقت القبائل وكلٌّ سعى لطلب معاشه، فمنهم من سافر إلى خارج مصر، ومنهم من جهد أن يبقى في مكانه ليؤدي طقوسه الدينية الخاصة بالتوحيد بعيداً عن الآلهة المصرية المتعددة، إلّا أن الظروف لم تسمح لهؤلاء إلّا أن تغيّر من عقيدتهم لتدخل وثنية الفرعون إلى قعر دورهم.

وهناك قسمٌ آخر حاول أن ينصهر في المجتمع المصري عن طريق الزواج أو غيره ليحظى بالعيش الرغيد كالمصريين من أبناء البلد.

وسيكون هذا الفصل خاصاً بأماكن تجمُّع بني إسرئيل وسكناهم والأعمال التي مارسوها وطقوسهم الدينية وأهم الأسباب التي أدت إلى التنكيل بهم ومدة بقائهم في مصر ليتسنى لنا بعد ذلك معرفة الذين خرجوا مع موسى ﷺ، فهل هم ذرية الذين دخلوها من قبل أم من؟

سكن يوسف (ع) في مصر:

حين وصلت قافلة التجار الإسماعيليين مصر ومعهم بضاعتهم ومن ضمنها الغلام (يوسف ﷺ) الذي اشتروه بثمن بخس من المديانيين في (مدين)، عرضوه فكان خير من عرض في السوق من الغلمان، تبارى المشترون وتغالوا في الثمن الذي يدفعونه، وتسابقوا كلٌ يريده.

حظي بشرائه عزيز مصر الذي يدعى (فوطيفار) أو (أطفير) لأنه دفع به ما لم يستطع المتبارون دفعه، فجاء به إلى قصره فرحاً ليبشر زوجه (زليخا) قائلاً لها: لقد حرمنا من الولد، ولعلنا نتخذ هذا الغلام ولداً، فأحسني رعايته، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1].

وكان قصر العزيز محاطاً بالخدم والعبيد والإماء، وكان من القصور الفارهة في عاصمة مصر ذات الموقع الاستراتيجي، فقد ورد أن «قصر إطفير عزيز مصر يقع على أحد فروع النيل التي تعددت في دلتا مصر في ذلك الوقت.. على مقربة من قصر (الملك الريان) في أورايس العاصمة»[2]. وقد «أثبتت الدراسات التاريخية أن أحداث قصة يوسف ﷺ قد وقعت حين كانت (مصر) تحت سيطرة الحكام الأجانب (الهكسوس)، وكان

(١) سورة يوسف: ٢١.

(٢) أنبياء عاشوا في مصر، ص٧٤.

هؤلاء قد اتخذوا عاصمة لهم مدينة أورايس (صان الحجر، إحدى مدن محافظة الشرقية حالياً). حتى يكونوا أقرب إلى موطنهم في الشرق، ومن أشهر ملوكهم (أبوفيس) الذي قام النزاع بينه وبين (سقنن رع) حاكم الصعيد، و(خيان) الذي عرف بالملك الريان، ملك مصر في عهد يوسف عليه السلام[1].

بقي يوسف في مدينة (أورايس) العاصمة حتى بلغ أشده ومرت عليه الاحداث المرة ودخل سجن العاصمة وخرج مرفوع الرأس وارتقى عرش الوزارة ولا يزال فيها حتى مجيء قافلة أبيه ليسكنهم في مدينة مجاورة لها أقرب لحياة الرعاة والبداوة.

تزوج يوسف عليه السلام إحدى بنات (أواريس) المصريات ورزقه الله منها ولدين، ولم يذكر التاريخ أنه اتخذ مدينة أخرى ليسكنها إلى نهاية عمره الشريف.

نزول يعقوب وأتباعه في مدينة جاسان:

لعل أهم سبب لهجرة بني إسرائيل ـ بل أغلب هجرات القدماء ـ هو انحباس المطر واجتياح الجفاف للمنطقة المسكونة مما يؤدي إلى نزوحهم هم ومواشيهم والارتحال عنها إلى مناطق تتوافر فيها أسباب العيش وفي مقدمتها المياه، وقد جاء في القرآن الكريم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[2]. وعلى هذا قامت في ربوع الرافدين ووادي النيل أقدم وأرقى حضارتين في التاريخ.

ومما لا جدال فيه أن سكان مصر زمن يوسف عليه السلام أصابهم الجفاف كما أصاب بقية بلدان المعمورة إلّا أن وجود النيل وتدبير يوسف عليه السلام الحكيم لم يدع مكاناً للأزمة في مصر، وكانت أفئدة الناس تهوى إليهم

(١) المصدر السابق، ص٧٥، الحاشية.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٠.

من البلدان المجاورة وحتى الشامات، وهذا ما جعل يعقوب عليه السلام وأبناءه يفكرون بالهجرة إلى مصر وترك فلسطين التي أصابها الجوع والجدب بعد استدعاء يوسف عليه السلام لهم.

هذا فضلاً عن إتقان وتخطيط حكيم من يوسف عليه السلام ـ كما ذكرنا في الفصل السابق ـ ليسحب أهله وأقرباءه إليه في مصر لينعموا بما أنعم الله عليه من المكانة الرفيعة والسمعة الطيبة والغنى الوافر والجاه الراقي بعد أن خانه إخوته وأرادوا الوقيعة به، ولكن الله أبى إلّا أن يحقق الحلم الذي رآه بقدرة الله تعالى في صغره، حيث قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[1] فكانت الشمس والقمر أمه وأباه والكواكب إخوته وبقية الأسرة كلهم أصحبوا تحت حكمه وسلطانه خاضعين طائعين لما يُملي عليهم من الأوامر.

وقد ذكر القرآن الكريم بعض تفاصيل الهجرة وأسبابها وكيفية إرسال يعقوب عليه السلام بنيه لمصر ليبتاعوا طعاماً لأهلهم (وقد ذكرنا ذلك في فصلٍ سابق من هذا الكتاب).

والتوراة بدورها ذكرت الحادث مع بعض الاختلافات، حيث جاء في سفر التكوين الإصحاح ٤٢ كيفية خروجهم من مصر والأسباب التي دعتهم إلى الهجرة والسفر إلى مصر، وجاء أيضاً أن يوسف عليه السلام عرفهم في المرة الأولى، لكنه تنكّر لهم وحبسهم ثلاثة أيام وحجز أحد إخوته ليأتوا بصغيرهم من فلسطين الذي هو (بنيامين) أخوه لأمه وأبيه، وقال لهم: إني أخاف الله في أمركم فإن كنتم أمناء ولستم جواسيس فليحبس واحد منكم فقط. وانطلقوا أنتم وخذوا قمحاً لسدّ رمق أهلكم وأحضروا أخاكم الصغير إليَّ لأتأكد من صدقكم.

وقد بيّنّا هذا الأمر في فصل سابق من هذا الكتاب وبالتحديد في فصل

---

(١) سورة يُوسُف: ٤.

(يوسف وزيراً في مصر)، وذكرنا عن التوراة أن يوسف عليه السلام تزوج في مصر ونسي أيام السجن وسنوات العبودية وأنجبت له زوجته المصرية ولدين هما (منسي) و(إفرايم). ومرّت بضع سنين إلى أن جاءت فترة القحط وعمَّ الأرض الجفاف، وشمل ذلك أرض كنعان، فأرسل يعقوب أبناءه إلى مصر لشراء القمح من هناك. وعرف يوسف إخوته إلّا أنهم لم يعرفوه، ثم تحايل عليهم في السفر الثاني ليحتفظ بشقيقه الأصغر بنيامين معه، عندئذ تذكروا ما فعلوه بيوسف عندما ألقوه في البئر للتخلص منه. وقال بعضهم لبعض حقاً إننا مذنبون بحق أخينا الذي رأينا بغية نفسه لما استرحمنا ولم نسمع، لذلك جاءت علينا الضيقة، وهم لم يعلموا أن يوسف يعرف ما يقولون لأن الترجمان كان بينهم، فتحول يوسف عنهم وبكى، ودعاهم إلى الغداء في منزله وفي لحظة عاطفية كشف لإخوته عن حقيقته.

هذه خلاصة ما جاء في التوراة أما القرآن الكريم كما تبين سابقاً، فقد ذكر تفاصيل أخرى، أكثر ما يمكن أن نستخلص منها المعلومات التي تبين لنا طبيعة مقام النبوة والامتحانات التي مرَّ بها يعقوب ويوسف عليهما السلام والمعاجز التي تحققت على يد يوسف عليه السلام وكيفية إظهار الحق لصدقه وإخلاصه حتى رفعه الله مكانة سامية يستطيع من خلالها أن ينتقم من خصومه، لكنه عفا عن الجميع (إخوته وزوجة الملك والنسوة وغيرهم) وأبى أن يتمتع في الدنيا لزهده فيها، حتى متّع الجميع وغفر زلة إخوته، وزلة امرأة العزيز ونسوة المدينة ودعا للجميع بالتوفيق.

وشكر الله تعالى أن أخرجه من السجن وخلّص أهله من حالة البدو والحياة الصعبة وجاء بهم إلى نعيم مصر وخيراتها قائلاً لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾[1].

(١) سورة يُوسُف: ١٠٠.

«وأعدّ يوسف نفسه للقاء الملك، وأخذ معه أباه وبعض إخوته، فسعد الملك بلقائهم، وحينما علم أنهم أهل رعي... أسكنهم في منطقة رعوية هي أرض (جاسان) (جوشن). لتمضي بهم الحياة يسعدون بخيرات مصر، ويجدون الرعاية من يوسف»[1].

وأرض جوشن تقع في شرق الدلتا بمحافظة الشرقية كانت أرض رعي وزراعة على ما يبدو.

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم لم يذكر لنا شيئاً عن سكن بني إسرائيل وأحوالهم في مصر وأوضاعهم فيها منذ أن قال لهم يوسف ﷺ ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله، ومنذ أن رفع أبويه على العرش وغفر خطيئة إخوته بحقه، أما بعد هذا الموقف إلى عهد ولادة موسى ﷺ والأحداث التي جرت قبيل ولادته من القتل والاستحياء والعذاب أي بين هاتين الفترتين، فلم يذكر القرآن الكريم شيئاً. لكن كتبة التوراة ذكروا أن يعقوب ﷺ أسكنه الملك (الريان) بمشيئة يوسف ﷺ، أسكنه ومن معه في ارض جاسان أو جاشان أو جوشن، يقول النجار:

«وطلب يوسف إلى فرعون أن يسكنهم أرض جاسان أو جاشان وهي في شمال بلبيس من بلادها سفط الحنة الآن. ويقول العلماء إنها نواحي الصالحية وكانت العلة في طلب يوسف ذلك لهم أنها أرض مراع وهم رعاة ماشية»[2].

علاقتهم بمدينتي بررعمسيس وفيتوم:

أمر فرعون أن تُبنى مدينتي بررعمسيس وفيتوم بناءً حضارياً ينسجم ومكانة مصر آنذاك، وبناءً على ذلك جمع المسؤولون عشرات العمال للقيام بالمهام المأمور بها، وكان التركيز في جمع الأيدي العاملة على

---

(١) أنبياء عاشوا في مصر، ص١٢٨.
(٢) قصص الأنبياء، النجار، ص١٥٠.

رجال بني إسرائيل (على ما ورد في التوراة) لأنهم يتمتعون بقواهم الجسمانية أولاً وليكونوا تحت الانظار ثانياً ثم لإبعادهم عن أيّ عمل تجسسي أو أي عمالة مع أعداء مصر كما ذكرنا سابقاً.

وقد ذكرت التوراة أنهم: «بنوا للفرعون مدينتي مخازن فيثوم وبررعمسيس»[1].

و«فيثوم هو إله الشمس لمدينة أون سميت مدينة المخازن التي سخَّر بقايا الهكسوس لبنائها باسمه وقد ورد ذكرها مع مدينة المخازن التي سميت رعمسيس»[2].

واليهود اليوم تفتخر أنها ساهمت في بناء الحضارة المصرية وأنَّ لها يداً في بناء هاتين المدينتين، إلّا أن المتتبع لخطوات العائلة المقدسة في مصر والظروف التي أحاطت ببناء المدينتين المذكورتين يجد أنهم مارسوا دور العامل المنفذ المغلوب على أمره، لا المهندس والمخطط والآمر الناهي، ثم أين كانت يهود اليوم من أولاد (إسرائيل) وأحفاده وأحفادهم.

فترة البقاء في مصر:

دخل بنو إسرائيل مصر عام (١٦٥٦ق.م) وقيل قبل هذا التاريخ بقليل وقيل بعده، واعتقد بعض دخولهم بين (١٧٣٠ ـ ١٥٨٠ق.م).

وأجمع الجميع أن دخولهم كان عن طريق يوسف عليه السلام عندما كان عزيزاً لمصر حسب الآية القرآنية﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾[3] هذا قول إخوته له ثم إن الآيات التي تلي هذه الآية من السورة نفسها إلى آية (١٠٢) تؤكد دخولهم زمان النبي يوسف عليه السلام بقيادة النبي يعقوب عليه السلام حتى توفي

---

(١) جاء في سفر الخروج، وذكرت الحدث كتب التاريخ.

(٢) العرب واليهود في التاريخ، ص٤٨٩.

(٣) سورة يوسف: ٧٨.

يعقوب ﷺ وحنّطه يوسف ﷺ وبكى عليه بنوه والمصريون سبعين يوماً ثم أرسل إلى فلسطين ليُدفن فيها ومقامه معروف لحد الآن وقد تحدثنا عنه في فصل سابق..

ثم توفي يوسف ﷺ ودُفن في نابلس من أرض أفرايم واسمها القديم (شكيم) حسب رأي التوراة، وابتعد بنو إسرائيل عن الحكم والوزارة وانصهر بعضهم مع المصريين عن طريق الزواج وغيره وحافظ البعض الآخر على أصالته ليتميز عن المصريين في كونه موحداً لله حيث كان المصريون يعددون الآلهة، ولا نستبعد أن يكون قسم من المصريين قد تأثر بدين يوسف ﷺ فقد دعا إلى دين الله في السجن وقبله وبعده وكانت زوجته مصرية قد آمنت به وبدينه.

وقد ذكرت التوراة أنهم كانوا يتكاثرون بشكل بالغ وكان مجتمعهم مغلقاً وكانوا لا يتزوجون من غيرهم ولا يختلطون بالمجتمع المصري ولا يزوجونهم بناتهم ولا يتزوجون منهم ولا.. ولا...

وهذا بعيد على المتتبع لتقلبات الطبيعة في مصر وغيرها من البلدان حيث الجفاف والفيضانات و..و..الخ فالتنقل كان عادة لحياة البدو، وقلّما تتفق أُسر كبيرة على الانتقال لمكان واحد وتحتفظ إلى آخر الزمان بأصالتها ونسبها، ومن المعلوم أن بني إسرائيل تفرقوا في مدن عديدة وتنقلوا في أكثر من مدينة من مصر، وليس ببعيد أن تحتفظ بعض أسرهم بهذه الأصالة والنسب للنبي يعقوب ﷺ.

فالبقية الباقية من بني إسرائيل وغيرهم ممن وحّد الله تعالى وتحمَّل الأذى في سبيله من خلال التاريخ الديني الممتد من دخول الموحدين، يعقوب ﷺ وأبنائه مصر حتى خروج من تبقى منهم ومن أتباع موسى ﷺ من المصريين والفرار بدينهم من بطش فرعون وعذابه هي المدة بين نبوة يوسف ﷺ ونبوة موسى ﷺ، وهي مدة بقاء بني إسرائيل على أرض مصر، حيث يعتقد المؤرخون أن خروج موسى ﷺ ببني

إسرائيل وأتباعه من غيرهم كان في عام (١٢١٨ق.م) في عهد الأسرة التاسعة عشرة.

وبذلك تكون إقامتهم في مصر على ما يعتقد البعض وحسب رواية التوراة قد استمرت (٤٤٨) سنة كما كان عددهم يوم خروجهم كما ورد في سفر الخروج: (ثم ارتحل بنو إسرائيل بنحو ستمائة ألف ماش من الرجال خلا الأطفال).

وكان عددهم حسب الرواية نفسها يوم دخولهم مصر سبعين شخصاً.

والقرآن الكريم يؤكد أن مدة ضيافتهم تُقَّدر بما بين فترة يوسف ﷺ وموسى ﷺ في مصر حيث قال لهم يوسف ﷺ ادخلوا مصر آمنين وقال موسى ﷺ لفرعون أن أرسل معي بني إسرائيل للخروج من مصر، ولكن كم هو مقدارها بالسنين؟ هذا ما سكت عنه القرآن الكريم فالقرآن ليس كتاباً تاريخياً وإنما هو دستورُ عملٍ للبشر فيه الهداية والخير.

أما كتبة التوراة فقد حددوا المدة بالسنين والعدد والله اعلم كم هي نسبة الصدق في هذا التحديد، فقد ذكروا أن المدة تُقدر بحوالى (٤٥٠) أو أقل.

أما ما حدد المؤرخون والآثاريون من مدة بقاء بني إسرائيل في مصر فهي تتراوح بين (٤٠٠ ـ ٦٠٠) سنة تزيد أو تنقص، ولعل الزمن يكشف لنا الحقيقة عن طريق العثور على كتابات البرديات وغيرها. والتنقيبات سارية على قدم وساق إلى يومنا هذا، والآتي أعظم...

أما ما نشرت صحيفة الأهرام تحت عنوان (الآثار المصرية) في عام (١٩٣٨م) قال العالم الأثري الأستاذ (ألن رو): «وأرى، قبل البحث في اكتشافاتي هذه، أن أصف حجراً عمودياً من معالم القبور ورد على المتحف المصري منذ عهد قريب، وترجع أهميته إلى اتصاله بعهد يوسف الصديق الوارد في التوراة اليهودية قبل عهد الحفريات العلمية في

مصر وفلسطين، كانت الاكتشافات الخاصة باليهود وتاريخ إقامتهم في مصر نادرة جداً، ولكن الأعمال التي قامت بها البعثات الأثرية، ومنها أعمال الأستاذ سليم بك حسن وغيره من الاساتذة المصريين، أخذت لحسن الحظ تبدد شيئاً فشيئاً ذاك الضباب القائم الذي كان مخيماً على هذا القسم المهم من رواية التوراة»[١].

ثم يضيف قائلاً: «فالثابت إجمالاً، بين كثير من الخبراء، أن العبرانيين دخلوا مصر في عهد الهكسوس وهو العهد الذي يمثل الأسرتين المصريتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة والذي بدأ حوالى سنة (١٨٠٠) ق.م»[٢].

ثم يُعرّف الهكسوس قائلاً: «وقد كان الهكسوس، أو (الملوك الرعاة) في عُرف الكتّاب والمحدثين، من الشعوب الآسيوية بلغت سلطتهم أوجها إلى شمال مصر وأرض كنعان من مدينة أفاريس في دلتا النيل، ثم طردهم من مصر أحمس الأول، أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة، حوالى عام (١٥٨٠ق.م) وقد خرج العبرانيون من مصر في ذلك الوقت أو بعده بقليل. أما الملك الذي لم يعرف يوسف الصديق (سفر الخروج ص١٠ ع٨٠) فقد كان أحمس الأول أو غيره من الملوك الذين عادوا إلى حكم مصر الشمالية بعد طرد الهكسوس منها»[٣].

هذا ما ذُكر لنا في بدايات القرن العشرين، أما الآن وبعد فتح الاهرامات والقبور والعثور على مومياءات بعض الفراعنة كمومياء رمسيس الثاني وتوت عنخ آمون وغيرهم، فيمكن أن يعثر المنقبون على أسرار تدلنا على أخبار يعقوب وبنيه ويوسف الصديق بتفاصيلها، والزمن شاهد.

---

(١) جريدة الأهرام، مقال في الآثار المصرية، ٣ يناير/كانون الثاني ١٩٣٨.
(٢) المصدر السابق.
(٣) نفس المصدر.

أسباب التنكيل بهم:

كان بنو إسرائيل أكبر نصير للهكسوس وكانوا منعمين بالقرب من البلاط الفرعوني الملكي حتى طُردَ الهكسوس من مصر.

ويحكي د.احمد سوسة قضية طردهم قائلاً: «ولما كان أمراء مصر العليا قد بقوا محافظين على استقلالهم بعد احتلال الهكسوس لمصر السفلى فقد صاروا يتحينون الفرص للقضاء على الهكسوس وطردهم من مصر، وبعد حروب دامت زهاء نصف قرن من الزمن تمَّ طردهم نهائياً من مصر على يد القائد المصري الشهير (أحموسة) وهو مؤسس السلالة الثامنة عشرة، وبها ابتدأ عهد جديد في تاريخ مصر هو عهد الإمبراطورية الذي دام زهاء خمسة قرون (١٥٨٠ ـ ١٠٨٥ق.م) ولم يكتف ملوك هذه السلالة بطرد الهكسوس من مصر بل لاحقوهم إلى فلسطين وسورية وحاربوهم هناك في مقرهم القديم الذي غزوا منه مصر، فاستطاع أحد ملوك هذه السلالة أن يقضي على كيان الهكسوس في بلاد الشام في معركة كبرى وقعت في (مجدّو) عام (١٤٧٩ق.م)، فثبّت بذلك النفوذ المصري هناك وأسست الإمبراطورية المصرية التي شملت سورية وفلسطين»[١].

يقول د. سيد كريم «بعد ما طرد الهكسوس من مصر وكان اليهود ـ يقصد بني إسرائيل ـ أكبر نصير لهم، بدأوا يتآمرون على المصريين ويعملون على مساعدة المغيرين. وتروي التوراة أن فرعون مصر قال للمصريين عن اليهود أنهم إذا وقعت حرب ينضمون إلى أعدائنا يحاربوننا ويخرجون من الأرض»[٢].

بقوا على حالهم هذا حتى عهد رمسيس الثاني الذي خاف من غدرهم وقيل: إنه رأى في الحلم يخرج منهم من يقضي على عرشه وملكه «ولكي يأمن

(١) العرب واليهود في التاريخ، ٧٨.

(٢) فرعون موسى، مقال، مجلة الهلال، عام ١٩٧٥، العدد٥، ص٥٤.

رمسيس الثاني شرهم قام بتسخيرهم في أعمال البناء وإنشاء الطرق وحفر الترع، وهي الأعمال التي كانوا يرفضون القيام بها، حيث تخصصوا في التجارة والتموين، كما فرض عليهم أعمال السخرة في مدينتي فيتوم وبررعمسيس»[١].

«كما ذكرت إحدى البرديات القديمة أن كبير كهنة معبد طيبة تنبأ لفرعون بأن نهايته ستكون على يد مولود من بني إسرائيل يولد خلال العام الجديد، وهي النبوءة التي يفسر بها المؤرخون أمر فرعون بقتل جميع المواليد الذكور الذين يولدون مع بداية العام الجديد، وهو التاريخ الذي ولد فيه موسى وألقته أمه في اليم على شاطئ بررعمسيس»[٢].

وجاء في القرآن الكريم في صدد بيان التنكيل ببني إسرائيل في مصر. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾[٣].

وكانت ضربة الدهر القاصمة لبني إسرائيل حينما طُرد الهكسوس على يد أحمس رأس الأسرة الثامنة عشرة المصرية، حيث أُبعدوا عن البلاط وبدأ تسخيرهم في عمل اللبن والبناء وغير ذلك من الأعمال الشاقة، ووكل بهم من يتبعهم حتى لا يجدوا الراحة ولا يتآمروا مع الغرباء على المصريين.

وكان رمسيس الثاني أكثر وبالاً على بني إسرائيل، حيث أخبره الكهنة أن وليداً من بني إسرائيل سيقضي على ملكه وعرشه، وقد تحدث القرآن الكريم عن بطشه بهم وتنكيله وتعذيبه لهم في آيات عديدة..

وقد ذكرنا أن الفرعون رأى في المنام أن أحد العبرانيين يقتله ويقضي

---

(١) فرعون موسى، مقال د. سيد كريم، ص٥٥.
(٢) المصدر السابق، ص٥٦.
(٣) سورة إبراهيم: ٦.

على ملكه فثارت ثائرته عليهم وقيل: إنه أمر قابلتين من المصريات اسم إحداهما (شفرة) والثانية (فوعة) بقتل كل ذكر تلده عبرانية. وأما الأنثى فتبقى حتى تكبر أو تهدى للمصريين. وتدّعي التوراة أن القابلتين لم تفعلا ذلك ولما سألهما الفرعون قالتا له إن العبرانيات قويات. فهن يلدن قبل أن تأتي القابلة، فأمر أن يرمى كل ذكر عبري في النهر حتى يموت.

وحينما أرسل الله تعالى موسى عليه السلام نبياً منقذاً للمستضعفين في الأرض منذراً من طغى واستكبر، جاء موسى عليه السلام وأخوه هارون عليه السلام ليُنذرا الفرعون وقومه، ينقل القرآن الكريم ردهم: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[1].

فالآية القرآنية صريحة في بيان عبودية بني إسرائيل وبقية قوم موسى وهارون عليهما السلام.

ومن أشد أنواع التنكيل، العبودية والاستضعاف والاستخفاف وقد تعرض قوم موسى عليه السلام في مصر إلى هذا النوع من التنكيل حتى أنهم لن يستطيعوا ممارسة طقوسهم الدينية مهما كانت، سوى العبودية لمن ادعى الربوبية وقال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[2].

فما كان لهم إلّا أن يعبدوه أو يتظاهروا بالعبودية له وحده ولا يمكن لهم أن يُشركوا به شيئاً، ومن أشرك به فمصيره الموت.

الأعمال التي مارسوها

كان بنو إسرائيل ـ أولاد يعقوب ـ رعاة غنم وكانوا من البدو، وبعد الجفاف الذي عمَّ فلسطين وما حولها اتجهوا إلى مصر للتجارة، وحينما هاجروا إليها للسكن فيها اشتغلوا بالتجارة والتموين حيث مهنة أخيهم

---

(١) سورة المؤمنون: ٤٧.

(٢) سورة النّازعَات: ٢٤.

الوزير ـ يوسف ﷺ ـ وما أن توفي يوسف ﷺ وإخوته بدأ الأبناء والأحفاد بممارسة مهن أخرى لأنهم ابتعدوا عن البلاط، وحين طُرد الهكسوس انقلب الأمر على العبرانيين وبدأ التنكيل بهم وصاروا خدماً يسيّرهم المصريون ويضطهدهم الأرباب.

وقيل: إنهم سُخروا في أعمال البناء وإنشاء الطرق وحفر الترع وكل هذه أعمال شاقة، فبناء الأهرام والمعابد والقصور الفرعونية وغيرها يؤدي إلى موت العشرات من العمال من التعب والأحمال الثقيلة، وقطع المسافات الطويلة لحمل مواد البناء والجوع والعطش والمرض وما إلى ذلك من الصعوبات، فكان العبرانيون في مقدمة هؤلاء حسب ما يروي المؤرخون وما وجد من إشارات وعلامات على برديات الفراعنة.

هذا بالإضافة إلى ما ذكرت التوراة من تسخير بني إسرائيل عند بناء مدينتي (فيثوم) و(برعمسيس) بضغط من رمسيس الثاني، لإشغالهم عن المصريين والأمان من شرهم.

وقد ذكر ول ديورانت: «وإن قصة استعباد اليهود في مصر، وتسخيرهم في أعمال البناء الضخمة، وتمردهم وهروبهم إلى آسية لتحمل في ثناياها أدلة كثيرة على صدقها. وإن اختلط بها بطبيعة الحال كثير من الأقوال الغريبة وخوارق العادات كما يحدث عادة في جميع الكتابات التاريخية في الشرق القديم»[1].

إذن لم تسمح السلطات الفرعونية لبني إسرائيل بالوصول إلى المناصب البرّاقة والعليا في الدولة باستثناء ما كان منهم في زمن يوسف ﷺ حيث وصل بعضهم إلى بعض المستويات والمسؤوليات والمناصب في الدولة، وكان دورهم ـ في الغالب ـ دور المنفذ وليس المخطط، فهم ـ حسب نظر المصريين جالية بدوية غريبة عن مصر، في

(١) قصة الحضارة، ج١، ص٣٢٥.

حين كان المصريُّ صاحب حضارة لا يمكن له فسح المجال للغرباء بالسيطرة على مصر وخيراتها فاستضعف العبراني ليكون خادماً وعاملاً ومزارعاً وفلاحاً حتى تتم السيطرة عليه ـ .

طقوسهم الدينية:

يذكر بعض المؤرخين أن بني إسرائيل منذ دخولهم مصر، مارسوا طقوساً دينية خاصة بهم، وأنهم بنوا معابدهم بكل حرية زمن النبي يوسف ﷺ ومارسوا تعاليم دينهم بلا قيود ولا ضغوط تُذكر وكان على رأسهم النبي يعقوب ﷺ والنبي يوسف ﷺ، وبعد ذلك بعد الانصهار بالمجتمع المصري عن طريق الاختلاط والمعاملة والمصاهرة وغير ذلك بدأت تعاليم دينهم تأخذ منعطفاً آخر لكنهم كانوا موحدين لله تعالى، لهم معابد خاصة وطقوس خاصة تختلف عما كان عليه المصريون. وكان المصريون يحقدون على بني إسرائيل لتصورهم أن هذه المعابد أوكار للعمل السري ضد المصريين بعد طرد الهكسوس من البلاد.

ويروي بعض المؤرخين: «كهنة طيبة كانوا يحقدون على اليهود ومعبدهم الخاص الذي يعبدون فيه إلههم (ياهو) ويمنعون المصريين من الاختلاط بهم والاطّلاع على أسرار طقوسهم وتعاليمهم الدينية السرية، فاقنع كهنة طيبة فرعون بأن معابدهم كانت أوكاراً يتآمرون فيها على البلاد ويتعاملون مع الأعداء المغيرين وفلول الهكسوس ويساعدون الأجنبي على إعادة احتلال البلاد، لذا فقد بدأت ثورة المصريين عليهم في طيبة، حيث حطّم المصريون معابدهم وخرّبوا مقابرهم»[١].

فاتجه العبرانيون في عبادتهم وطقوسهم بعد ذلك إلى الخلط بين التوحيد والشرك فعبدوا البقر تارة والعجل أخرى وبعل ثالثة وغير ذلك، حتى جاءهم النبي موسى ﷺ بشريعة السماء ليبلغهم دين الله وأملى

---

(١) فرعون موسى، مقال د. سيد كريم، ص٥٦، مصدر سابق.

عليهم تعاليمها واتبعوه وما أن ذهب إلى مقياتِ ربه حنّت نفوسهم إلى العجل وعبادته وعادوا إلى الشرك.

يقول وِل ديورانت: «وكان اليهود في ظهورهم على مسرح التاريخ بدواً رحلاً يخافون شياطين الهواء، ويعبدون الصخور والماشية والضأن وأرواح الكهوف والجبال. ولم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش والحمل، وذلك أن موسى لم يستطع منع قطيعةُ من عبادة العجل الذهبي لأن عبادة العجول كانت لا تزال حيّة في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر، وظلوا زمناً طويلاً يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمَزاً لإلههم»[1].

«وفي تاريخ اليهود الباكر شواهد كثيرة تدل على أنهم عبدوا الأفعى ومن هذه الشواهد صورة الأفعى التي وجدت في أقدم آثارهم»[2].

«وكان بعض اليهود يعظمون بَعْل، الذي كان يرمز إليه بحجارة مخروطية قائمة كثيرة الشبه بلبخا إله الهندوس، وذلك لأنه في رأيهم الجوهر الذكر في التناسل، وزوج الأرض الذي يخصبها»[3].

«وكما أن آثار عبادة الآلهة الكثيرة البدائية قد بقيت في عبادة الملائكة والقديسين، وفي الأصنام الصغيرة المتنقلة التي كانوا يتخذونها آلهة لبيوتهم»[4].

أغلب هذه العقائد انتقلت إليهم من المصريين وغلبت عليهم بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام. وكان بعض آبائهم في مصر قبل دعوة موسى عليه السلام قد مارسها ونقلها إلى خلفه.

وعلى الرغم من ذلك يذكر لنا التاريخ أن المؤرخين يثنون على

(١) قصة الحضارة، ج١، ص٣٣٨.
(٢) المصدر السابق، ص٣٣٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) قصة الحضارة، ص٣٣٩.

العبرانيين أنهم كانوا أقرب للتوحيد في ديانتهم ممن عاصروهم من المصريين والبابليين و. . و. . الخ.

ذكر وِل ديورانت: «أن الديانة العبرانية حتى في هذه المرحلة اليهودية[1] كانت أقرب إلى التوحيد من كل دين آخر قبل عصر الأنبياء إذا استثنينا عبادة الشمس القصيرة الأجل في عهد إخناتون. ولقد كانت اليهودية تسمو كثيراً على غيرها من أديان ذلك الوقت في عظمتها وسلطانها، وفي وحدتها الفلسفية، وفيما تنطوي عليه من حماسة أخلاقية ومن أثر في نفوس أهلها، وكانت تضارع في عواطفها وشعريتها شرك البابليين واليونان إن لم تفقه من هاتين الناحيتين»[2].

قد يكون لهذا الكلام شيء من الصحة، لكن الخطأ كما تبين من الفصول السابقة أن اليهودية ظهرت بعد السبي البابلي أي في زمن كتابة التوراة إلّا أن الكتّاب والباحثين لا يفرقون بين التسميات، وقد أكد القرآن الكريم أن الأنبياء لم يكن أحد منهم يهودياً ولا نصرانياً إنما أسماء ابتدعها اليهود. لم ينزل الله بها من سلطان.

علاقتهم بالمصريين:

تضاربت الأقوال في درجة علاقة بني إسرائيل بالمصريين، فمنهم من يؤكد انصهارهم في المجتمع المصري عن طريق الزواج والتنقل والعمل وما إلى ذلك، ويستدل بزواج يوسف ﷺ من مصرية وزواج أولاده ثم لا يستبعدون زواج إخوانه أو أبنائهم وبناتهم بالمصريين.

ومنهم من له رأي آخر مؤكداً رأي التوراة التي تقول إن بني إسرائيل كانوا انطوائيين معزولين عن المجتمع المصري لم يؤثروا ولم يتأثروا، ولهم أعمالهم الخاصة وديانتهم وطقوسهم ومعابدهم وأسرار لم يطلّع عليها

---

(١) والحقيقة أن اليهودية لم يكن لها وجود في تلك الفترة الزمنية.

(٢) المصدر السابق، ص٣٤٤.

المصريون، وكانوا لا يتزوجون ولا يزوجون للغرباء من المصريين وغيرهم. وكانوا لا يتعاونون إلّا مع الغرباء في السياسة، مما أثار ضغينة الحكومة المصرية وشعبها على بني إسرائيل وحقدت عليهم وسامتهم سوء العذاب.

وفريقٌ آخر يتوسط بين الرأيين، قائلاً إن بني إسرائيل انقسموا إلى قسمين منهم من ذابَ في المجتمع المصري وانصهر، وقسم آخر حافظ على أصالته ونسبه حتى مجيء موسى عليه السلام ودعاهم إلى دين الله بعد أن اختلط دينهم بوثنية المصريين واكتسب شكلاً آخر وعبدوا ما عبد المصريون من العجل والحية والبغل و. .الخ.

والحقيقة أن كل جالية في كل زمان ومكان لا تستطيع أن تحفظ وحدتها وتماسكها إلى حد لا تنفك ولا تنقسم على مر الزمان، فالظروف القاسية أو إغراءات المعيشة وغير ذلك تؤثر على الكثير وتجرهم إلى الانصهار في المجتمع الغريب ليكونوا كأي فرد من ذلك المجتمع. حتى التعاليم الدينية والطقوس وغيرها قابلة للتغير إذا ما مضى عليها الزمان، ولذلك يرسل الله تعالى بين الفينة والأخرى رسله وأنبياءه لينذروا الناس.

وقال تعالى في كتابه العزيز﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

علاقتهم بالهكسوس:

كان دخول إسرائيل عليه السلام وأتباعه مصر بسماح من غرباء مصر الهكسوس المحتلين على ما يُعتقد وكما ذكرت التوراة، وقد أحسنوا لهم وقربوهم إلى البلاط من خلال يوسف عليه السلام، وكانوا حلفاء لهم حتى طردهم المصريون من بلادهم فبقي بنو إسرائيل تحت رحمة المصريين يبحثون عمن يمد يد العون لهم ليكون سنداً لهم، فالمصريون لا يطيقون الرعاة من هكسوس وعبرانيين.

---

(١) سورة مَريَم: ٥٩.

وقد ذكر د.أحمد سوسة في تاريخ دخول بني إسرائيل مصر والزمن الذي عاشه يوسف عليه السلام وأبوه إسرائيل وقومه: «ويُعتقد أن نزوحهم هذا قد تمَّ في عهد حكم الهكسوس في مصر في الفترة ما بين (١٧٣٠ ـ ١٥٨٠ق.م)..»[١].

ويقول د.سيد كريم: دخل اليهود ـ يقصد بني إسرائيل ـ (عام١٦٥٦ق.م) عن طريق يوسف عليه السلام في عهد الملك أبو فيس ملك الهكسوس في الأسرة السادسة عشرة، وكان عددهم ـ كما ورد في التوراة ـ سبعين شخصاً. وبدأت هجرتهم الجماعية في عهد الملك فوطيفار الذي قرّب يوسف إليه وعيّنه وزيراً على مصر ومخازنها.

وتروي التوراة في سفر التكوين: «أن فرعون وهو من الهكسوس المحتلين لمصر، شجّع وجود اليهود ـ يقصد بني إسرائيل ـ ليقاوم بهم حركة المقاومة في الجنوب حيث أصبحت لهم في طيبة جالية كبيرة ومعبد خاص، ومقابر خاصة بهم..»[٢].

وقد أوردت التوراة قول فرعون ليوسف عليه السلام وهو يحثّ أهله للمجيء إلى مصر: «خذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إليّ أعطيكم خير أرض مصر وتأكلوا دسم الأرض واصنعوا هذا وخذوا لكم من أرض مصر عجلات لأطفالكم ونسائكم واحملوا آباءكم وتعالوا ولا تحزن عيونكم على أثاثكم. إن خير أرض مصر هو لكم، وصنع كذلك بنو إسرائيل، وأعطاهم يوسف عجلات بأمر فرعون وأعطاهم زاداً للطريق»[٣].

وحين اطمأن بنو إسرائيل أنهم سيعيشون في مصر بأمان وسلام ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قرّبهم إليه ووزع عليهم المناصب والأعمال وأخرجهم من العوز إلى الغنى وعرفوا التدبير والتجارة وبعض

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص٢٣١.
(٢) الهلال، مجله شهرية مصرية، لعام ١٩٧٥، العدد ٥، فرعون موسى.
(٣) سفر التكوين.

الصناعات وصاروا سنداً للهكسوس المحتلين «وكان المصريون يسمّون الهكسوس (شاسو) أي البدو وعُرفت دولتهم بدولة البدو، وكان العرب يسمونهم العمالقة أو العرب البائدة»[1].

وأصل الهكسوس بدو عرب، هاجروا من الجزيرة العربية والشامات إلى مصر واحتلوها و«اقتبسوا الحضارة المصرية أثناء حكمهم في مصر وأصبح ملوكهم فراعنة مثل ملوك مصر، وقد أدخلوا على مصر استعمال الخيل والعربات الحربية التي تجرّها الخيول مما ساعدهم على الفتح وإحداث الرعب والفزع بالمصريين الذين لم يشاهدوها من قبل.. وقد أدخل الهكسوس أيضاً السيف المقوس المصنوع من الحديد والقوس المركب، وهو القوس الذي ظهر لأول مرة في العراق في عهد السلالة الأكدية، كما أدخلوا تحسينات مهمة في فن التعدين.

وترجع إلى عهد الهكسوس طائفة من التآليف العلمية التي كانت نسخاً من أصول أقدم، ولكنها دوّنت في هذا العهد، كما أن جزءاً مهماً من المعرفة بالرياضيات المصرية مستمدة من نصوص هيروغليفية من عصر الهكسوس»[2].

«وبعد ما طرد الهكسوس من مصر وكان اليهود أكبر نصير لهم، بدأوا يتآمرون على المصريين ويعملون على مساعدة المغيرين»[3].

والمقصود باليهود هنا هم بنو إسرائيل ـ أحفاد النبي يعقوب ﷺ ـ لأن تسمية اليهود لم تظهر إلّا بعد النبي موسى ﷺ بسنين وهذا الخلط جاء حين كتابة التوراة في السبي البابلي فقد ركّز الكتبة على هذه التسمية حتى أطلقوها على إبراهيم ﷺ وإسحاق ويعقوب وأبنائه إلّا أن القرآن الكريم صحّح

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص٧٤.

(٢) المصدر السابق، ص٧٥.

(٣) الهلال، مصدر سابق، د. سيد كريم.

الفكرة للناس قائلاً لهم: إن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وكذلك إسحاق وأيضاً يعقوب عليه السلام.

وتروي التوراة: «أن فرعون مصر قال للمصريين عن اليهود إنهم إذا وقعت حرب ينضمون إلى أعدائنا يحاربوننا ويخرجون من الأرض»[(١)].

فالظاهر أن بني إسرائيل كانوا جالية غير مرغوب فيها من قبل المصريين بعد طرد الهكسوس المحتلين وتحرير مصر، فقد تفككت العلاقات المصرية الإسرائيلية أكثر فأكثر حين علم المصريون أن بني إسرائيل لهم علاقات خارجية مع أعداء مصر من الهكسوس وغيرهم، فحاول المصريون أن يحدّوا من حركتهم فاستخدموهم عمالاً وخدماً ليكونوا تحت الأنظار.

أماكن تجمعهم في مصر:

تذكر التوراة أن إسرائيل (يعقوب عليه السلام) وأبناءه وعشيرته حينما استدعاهم يوسف عليه السلام إلى دخول مصر آمنين أسكنهم مدينة جاسان: «وسكن إسرائيل في أرض جاسان وتملّكوا فيها وأثمروا وكثروا جداً»[(٢)].

وقد اختلف الباحثون والمؤرخون في تحديد موقع مدينة (جاسان) إلّا أن الباحث السويسري هنري نافيل استطاع تحديدها عام ١٨٨٣م. حيث قال: (إنها مدينة تقع عند مدينة فاقوس بالقرب من دلتا النيل غرباً، حيث قرأ اسمها القديم (جسم) الذي يصبح (جسن) ـ جاسان ـ في العبرية لتحول الميم المصرية نون في هذه اللغة»[(٣)].

وجاء في كتاب العرب واليهود في التاريخ في تحديد مدينة جاسان: «هي المنطقة التي أعطاها يوسف في مصر لأبيه وإخوته فسكنوا

---

(١) سفر التكوين.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح ٤٧، رقم ٢٧.

(٣) أحمد عثمان، جريدة الشرق الأوسط، العدد٦٦٧٦.

فيها، وتقع هذه المنطقة في القسم الشمالي الشرقي من أرض مصر وتمتد بين التخم الجنوبي من أرض كنعان إلى نهر النيل، تعرف اليوم بالشرقية الممتدّة من جوار (أبو زعبل) إلى البحر»[١].

والظاهر من أقوال المؤرخين أن بني إسرائيل سكنوا في دلتا النيل في أرض (جاسان) وتذكر التوراة أن جاسان في أخصب البقاع وتقع جاسان بالقرب من العاصمة (طيبة) وطيبة شهيرة: «عاصمة مصرية قديمة ومركز ديني، تقع على الضفة الشرقية للنيل حوالى «٧٠٠كم» جنوب القاهرة»[٢].

ويذكر أنهم بعد ذلك سكنوا (طيبة) و(منف)، ويُستدل على ذلك من وجود اسم موسى ﷺ في إحدى لوحات طيبة التي ترجع إلى أواخر عهد رمسيس الثاني.

ومدينة منف: عاصمة من أقدم عواصم الدنيا، وثانية عواصم المملكة المصرية المتحدة القديمة.. ينسبون بناءها إلى مينا عام «٣٤٠٠ ـ ٣٢٠٠ق.م» ولد فيها فرعون موسى ﷺ (منفتاح) الذي أخرج بني إسرائيل من مصر»[٣]. وأحياناً يذكرها المؤرخون باسم «ممف»[٤] أو باسم «منفيس»[٥].

ومن المؤكد أن بني إسرائيل انشأوا مدينتي فيتوم وبررعمسيس ودلت التنقيبات الأثرية على ذلك، وقيل: إن رمسيس الثاني أبعدهم عن المصريين ليأمن شرهم، ومن المفروض أنهم سكنوا المدينتين فترة من الزمن لصعوبة التنقل.

وتذكر التوراة أنهم كانوا جماعة واحدة أو شعباً منعزلاً بطقوسه

---

(١) د. أحمد سوسة، ص٤٦٣.
(٢) موسوعة علم الآثار، ج٢، ص٣٦٦.
(٣) الموسوعة العربية الميسرة، ج، حرف الميم.
(٤) موسوعة علم الآثار، ج٢، ص٥٣٢. وتاريخ الحضارات العام، ج١، ص١١٧.
(٥) موسوعة علم الآثار، المصدر نفسه، وقصة الحضارة، ج١، ص٤٦.

وعبادته وعاداته، لا يتزوجون من المصريين ولا يزوجونهم وتنامت هذه الحالة حتى أصبحوا يشكلون خطراً كبيراً على المنطقة، وقد توجس منهم المصريون وظهرت بوادر الغضب من الشعب والحكومة وحقدوا عليهم، فأمر الفرعون بجمعهم من أنحاء البلاد وأسكنهم مدينة واحدة تسمى (تل اليهودية) وهي منطقة أثرية بجنوب الدلتا بمصر تبعد (٣كم) من شبين القناطر أسماها اليونانيون ليونتوبوليس، وعثر فيها على بقايا معبد لرمسيس الثالث، نقلت بعض أنقاضه إلى المتحف المصري، شيد فيها الكاهن اليهودي أونياس، بإذن من بطليموس الرابع (١٧٠ق.م) معبداً للجالية اليهودية على غرار معبد أوشليم وادّعى أن ذلك كان تحقيقاً لنبوءة أشعيا... وقد كشف العالم الآثاري (بتري) عن آثار ذلك المكان»[1].

وقد أكد البعض أن (تل اليهودية) هو المكان الذي تمّ فيه قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم بالإضافة إلى أن الفرعون كان يسومهم سوء العذاب للقضاء عليهم حتى لا يخرج منهم من يقضي على عرشه وملكه كما تنبأ له الكهنة.

(١) الموسوعة العربية الميسرة، مج٢، ص٧٤١.

الفصل السادس

موسى (ع) والفراعنة

١ ـ الحكم الفرعوني والوضع الاجتماعي
٢ ـ نشأة موسى (ع) وهويته
٣ ـ العناية الإلهية بموسى (ع)
٤ ـ مدين وزواج موسى (ع)
٥ ـ بعثته واصطفاؤه
٦ ـ دعوته للتوحيد في مصر
٧ ـ الحوار الساخن بين موسى والفرعون
٨ ـ من هو فرعون موسى (ع)؟
٩ ـ من آمن بموسى (ع) قبل معاجزه
١٠ ـ الرجل المؤمن من آل فرعون
١١ ـ معاجز موسى (ع)
١٢ ـ نجاة موسى (ع) ومصير فرعون
١٣ ـ بحر العبور
١٤ ـ عصا موسى (ع) وقدرة الله
١٥ ـ استهزاء الفرعون بموسى (ع)

موسى (ع) والفراعنة

أما الدخول في تفاصيل حياة الكليم موسى عليه السلام فهو لإماطة اللثام عن الوضع الاجتماعي الذي كان يعيشه بنو إسرائيل في ظل الحكم الفرعوني، والعناية الإلهية التي أبقت موسى عليه السلام على قيد الحياة ليهد عرش الفرعون طاغية زمانه وليكون له عدواً وحزناً ولينقذ بني إسرائيل من الظلم والاستعباد إلى الحرية والحياة الكريمة. .

ذكرت التوراة بعض تفاصيل حياة النبي موسى عليه السلام منذ ولادته حتى بعثته ثم رحيله إلى الرفيق الأعلى، لكن لا يمكن الاعتماد عليها ففيها الغث والسمين، فيها ما يقرَّه القرآن الكريم وفيها ما لا يصدقهُ حتى العقل، فبالرجوع إلى ما يذكره لنا القرآن الكريم وتفاسيره المعتمدة، يتسنى لنا كشف الحقائق عن حياة النبي موسى عليه السلام ووضع بني إسرائيل وقومه، قبل بعثته عليه السلام وبعدها إلى نهاية شوطه معهم. .

سنحاول جهد الإمكان إماطة اللثام عما يقوله الإسرائيليون اليوم حول مساهمتهم في بناء الحضارة المصرية القديمة وفيما إذا كان لهم شأن فيها، فمن خلال ما وفرته لنا المصادر والمراجع المتاحة من حقائق سيظهر لنا الجواب على شاشة الواقع ليحكي لنا صدق الإسرائيليين اليوم أو كذبهم على التاريخ. .

وسيتوضح أكثر عند استقرائنا قصة موسى عليه السلام وسردها وعرضها على مسرح الأحداث التي رافقت ولادته عليه السلام حتى إكمالهم شوط التكليف الإلهي الذي آلَ إليه، ومعاناته مع الفراعنة والمصريين من جهة ومع بني

إسرائيل وقومه من جهةٍ أخرى، من خلال هذا الفصل والفصول القادمة إن شاء الله.

ومن خلال هذا الفصل والفصول الأخرى يتوضح من هم بنو إسرائيل الذين خاطبهم القرآن وما هي علاقتهم ببني إسرائيل اليوم وصهاينة العصر...

الحكم الفرعوني والوضع الاجتماعي

الإيمان بالسحر والسحرة والشعوذات والتنبؤات والتنجيم والأحلام كان من صميم وميزات المجتمع الفرعوني قديماً، فالفرعون وغيره يرتب الأثر على كل قول وإشارة من ساحرٍ أو متنبئ أو مفسّر للأحلام أو منجم، فيسجن ويقتل ويشرّد ويعذب وما إلى ذلك، بناء على مايملي عليه كاهنه..

والمنجم كان يفسر الحلم حسب الحسابات اليومية للنجوم والأبراج وحسابات خاصة لا يعرفها إلّا هو، فالحياة الفرعونية كانت قائمة على هذه الحسابات والتنبؤات.

فعلم النجوم يعتبر من العلوم العقلية في الحضارة المصرية مارسها المصري وورثها أباً عن جد وأورثها أبناءه، والتاريخ يذكر لنا أُسراً معينة ربّت أبناءها لتمارس هذا المجال المهم وإن الكهنوت أو رئيس الكهنوت أو أي درجة من درجات الكهنة كـ(النبي الاول) أو (أعظم الأنبياء)، وبكلمة كان رئيس الكهنة أو أيّ لقب من هذه الألقاب يهتم بتدريس علم النجوم إضافة إلى العلوم الأخرى وأهم مهام هؤلاء هو التملق للفرعون وبلاطه ولذوي المناصب الرفيعة، وإذا استطاع أن يكسب ثقة البلاط وأهله فسوف يحقق نجاحاً في منصبه بالرقي وكسب ألقاب عالية جداً «وإليك مثلاً عن نجاح كهنوتي باهر أحرزه أحدهم في عهد رعمسيس الثاني: دخل أحد أبناء (بني آمون الثاني) المدرسة في سن الخامسة،

أصبح (طاهراً) في السابعة عشرة، و(أباً إلهياً) في الحادية والعشرين، و(نبياً ثالثاً) في الثالثة والثلاثين، و(نبياً ثانياً) في الثامنة والأربعين، و(نبياً أولاً) في الستين حتى مماته في السادسة والثمانين.

وهذا مثل آخر يعود إلى عهد متأخر: أحد رؤساء كهنة أمون يعلن باعتزاز وكبرياء أن ابنه البكر (نبي ثان) في معبده وحفيده (أب إلهي) إن لم يكن (نبياً رابعاً)، بينما يرتبط ابنه الثاني بمعبد آخر»[1]. فمن مهمة هؤلاء أن يستجيبوا للفرعون إذا دعاهم وينالوا رضاه، فيتنبؤوا له في حروبه واقتصادياته و. . و. . الخ.

وفي ذات يوم رأى الفرعون كابوساً وهو أن رجلاً من بني إسرائيل يقضي على ملكه وعرشه، فطلب حضور المتنبئين والمنجمين ومفسري الأحلام، فأشاروا عليه أن يقتل مواليد بني إسرائيل من الذكور كي يتسنى له النوم رغداً بدل التفكير في الكابوس القاتل. .

استجاب الفرعون للرأي الذي تصوره ناصحاً، فأخذ يقتل المواليد من ذكور بني إسرائيل حتى ضجّ أعوانه لقراره بقولهم من سيخدمنا إذا انقطع نسل بني إسرائيل، اقتلهم سنة واتركهم سنة أخرى، فشاء الله تعالى أن يولد هارون في سنة العفو ويترك في أحضان والديه، أما موسى عليه السلام فقد ولد في سنة القتل، خبأته والدتهُ عن عيون من يطلبون أطفال بني إسرائيل لقتل ذكرانهم فمكث عندها ثلاثة أشهر حسب ما تذكر التفاسير، فلما خافت افتضاح أمرها، أوحى إليها الرحيم الرؤوف أن تصنع له ما يشبه الصندوق وتطليه بالقطران والزفت وتلقيه في اليم، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾[2]. وقال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ

(١) تاريخ الحضارات العام، مج١، ص٨٢.

(٢) سورة القصص: ٧.

﴿أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾[1].

فعلت أم موسى ما أوحى الله تعالى إليها، وأناطت بابنتها مريم أخت موسى وهارون عليهما السلام، أن تتبع أثره وتعلم علمه، وكان الله تعالى قد أعلمها أنه راده إليها وجاعله من المرسلين، فلم تزل أخته تراقبه حتى علمت أنه التقط وأُدخل دار فرعون، ووقعت عين زوجة فرعون عليه وألقى الله تعالى محبتهُ في قلبها، فأشارت إلى فرعون أن يبقيه ليكن قرة عين له ولها راجية أن ينفعهما أو يتخذاه ولداً، وهذا تدبير من الله تعالى لموسى وأمه لأنه سيعود إليها لتكون ظئراً له وتتقاضى على إرضاعه أجراً وهي آمنة كيد الكائدين وسعي الساعين، قال تعالى في قرآنه الكريم: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾[2].

تبنى الفرعون وزوجته موسى عليه السلام ولم يعلما أنه من بني إسرائيل من رجل عبري ينادى عمران (عمرام بالعبرية) بن قاهت بن لاوي بن يعقوب عليه السلام الذي تزوج يوكابد بنت لاوي عمته أخت أبيه على زعم التوراة: «وأخذ عمرام يوكابد زوجة له فولدت له هارون وموسى.. الخ»[3].

والله يعلم صحة هذا الخبر، إلّا أن عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء يقول: «قد ينكر بعض الناس صحة زواج العمات، وأنا أقول إنه ثابت تزويج آدم أولاده من بناته.. ثم يقول: نحن أسراء

---

(١) سورة طه: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) سورة القصص: ٨ ـ ١٠.

(٣) سفر الخروج، الإصحاح الثاني، العدد ٢٠.

النص، فمن أراد أن يثبت حرمة هذا النوع من الزواج في ذلك العهد فعليه أن يأتي بالنص القاطع على ذلك»[1].

هذا رأي البعض لكن الله تعالى حينما يذكر في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[2] أليست تعاليم الله تعالى ـ وخصوصاً في قضايا الزواج والأسرة ـ واحدة، فكيف يحرّم العمات في الإسلام ويحللها في غيره وعمران كان على دين يعقوب ويوسف أي على دين إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي يقول عنه الله تعالى كان: (مسلماً حنيفاً).

فعلى كل حال قد تكون أم موسى ابنة عمة عمران والعلم عند الله.

نشأة موسى (ع) وهويته

حرّم الله تعالى المراضع على موسى عليه السلام ليرجعه إلى أمه كما وعدها ووعد الله حق، وزهد في المراضع فلم يقبل على ثدي أية مرضعة، وكانت أخته تقص أثره وتتبعه أينما سير به حتى رأت إعراضه عن المراضع، فاقترحت على آل فرعون تدلهم على امرأة عبرانية تكفل رضاعته وحضانته قال تعالى: ﴿۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[4].

بقي موسى عليه السلام في حضن أمه حتى انتهت فترة الحضانة والرضاعة أخذه الفرعون ليربيه في بيت العزّ والمال والجاه والسلطان، في بيت الفرعون الطاغي المتجبر والعدو لبني إسرائيل والمتوجس من ظهور ذكر

(١) قصص الأنبياء، ص١٥٨، الحاشية.
(٢) سورة آل عِمرَان: ١٩.
(٣) سورة القَصَص: ١٢-١٣.
(٤) سورة طه: ٤٠.

منهم يقضي على عرشه وكبريائه، شبّ موسى عليه السلام في ذلك البيت محاطاً برعاية الله تعالى وحراسته حتى بلغ أشده، أي بلغ ثلاثة وثلاثين عاماً وقيل أربعين عاماً على قول الراغب الأصفهاني[1].

فلما بلغ أشدّه أنعم الله تعالى عليه بالعلم والحكمة بالإضافة إلى ما تعلمه من التعليم الراقي في بيت مربيه ـ الفرعون ـ حيث كانوا يربون أبناء الملوك في ذلك العهد على يد الكهنة ورجال الدين وعلى حسب التقاليد التي كانت لذلك البيت في تلك الأيام[2].

لكنَّ رعاية الله ولطفه الذي أحاط بموسى عليه السلام أن أتاه الله تعالى علماً وحكمة ألهمه بها إلهاماً: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾[3].

وقد يشذ البعض ويشكك في انتماء موسى عليه السلام وهل هو من بني إسرائيل أم هو مصري الهوية كما فعل عالم النفس فرويد الذي قال في كتابه (موسى والتوحيد) «إن النبي موسى عليه السلام لم يكن يهودياً بل كان مصرياً من أتباع إخناتون وأن اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة إخناتون للشمس»[4].

ويقصد به أنه ليس من نسل يعقوب عليه السلام الذي عُرف نسله ببني إسرائيل، وقد ردّ هذا القول عدد من الباحثين نذكر منهم عبد الوهاب النجار الذي رده رداً جميلاً نستغني به عن ردود الآخرين ومن جملة ما قال: أما ما زعَم فرويد، من أن موسى كان من أتباع إخناتون فهو

---

(١) قال الراغب الأصفهاني في كتابه المفردات ص٦٠ (بلغ أشده) أي بلغ أربعين سنة، وجاء في مجمع البيان في تفسير الآية قال: بلغ أشده: أي بلغ ثلاث وثلاثين وكتب البعض على القول الأول وآخرون على الثاني.

(٢) قصص الأنبياء، النجار، ١٦٠.

(٣) سورة القَصَص: ١٤.

(٤) انظر قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص١٥٥ ـ ١٥٧. وكذلك كتاب النشاط السري اليهودي في الفكر والممارسة، غازي فريج، ص٧٠.

مناقض للحقيقة لأن موسى عليه السلام ثبت عقيدة جده إبراهيم عليه السلام بتوحيد الله. ثم جاء بالتوراة أساس الشريعة الموسوية ووصاياها من أوامر ونواه من بينها الوصايا العشر التي نهت عن عبادة آلهة أخرى من أي نوع كانت[1].

إذن موسى عليه السلام من نسل النبي يعقوب عليه السلام وأبناؤه عاشوا في مصر بعد أن جاء بهم يوسف عليه السلام عندما كان وزيراً عند المصريين يأمر وينهى، وبانتهاء حياته الشريفة تحول بنو إسرائيل إلى خدم وعمال في البلاط الفرعوني بشكل خاص وفي المجالات كافة بشكل عام..

فموسى عليه السلام من بيت لاوي الذي هو أحد أبناء يعقوب عليه السلام الاثني عشر، وهو عليه السلام إسرائيلي النسب، مصري النشأة، نشأ في البلاط الفرعوني بعد أن أتم مرحلة الحضانة في بيت أمه وأبيه اللذين كانا على دين يعقوب وإسحاق وإبراهيم الخليل عليه السلام، وقد رضع من ثدي الإيمان لبن التقوى والإخلاص لله الواحد الأحد وحمل خصال أولياء الله الصالحين في الصدق والأمانة ونصرة المظلوم والمستضعف، ولم يحمل خصال من تربى عندهم من رجال البلاط الفرعوني.

العناية الإلهية بموسى (ع)

شبّ موسى عليه السلام في بيت أعداء التوحيد وأعداء بني إسرائيل وتربى تربية ملوكية وحصل على أحسن رعاية، وهو الإسرائيلي ومن ذلك الشعب الذي اضطهده فرعون وآله، تشملهُ الرعاية الإلهية في كل خطوة ويحيطهُ اللطف الرباني أينما حلّ وماذا فعل؟ إنها يد العناية لأوليائه الصالحين وأنبيائه المنتجبين، فكان موسى عليه السلام بالرغم من التربية والتعليم التي حصل عليها في بيت الطاغية إلّا أنه رضع اللبن الطاهر من أمّه الطاهرة وحظي بالرعاية الصافية في أسرته خلال مدة حضانته وحينما شبَّ وبلغ أشده واستوى أتاه الله تعالى الحكمة والعلم الإلهي، فكان

(١) المصدر السابق نفسه.

يختلف أشدَّ الاختلاف عن البيت الفرعوني، فقد كان ظهيراً للمظلوم بشكل عام ولقومه بشكل خاص.

فقد كفَّ موسى عليه السلام عادية المصريين عن بني إسرائيل، فكان المظلوم منهم ومن غيرهم يرى فيه الظهير والنصير وقد عاهد موسى عليه السلام ربه أن يكون هكذا: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾[1].

وهناك حادثة في حياة موسى عليه السلام كانت سبباً لخروجه الأول من مصر (الى مدين) حيث جعل الله فيها له خيراً كثيراً، وقد ذُكرت الحادثة في القرآن الكريم وفي التوراة وكتب التفاسير والتاريخ.

وقد جاء في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[2].

فكانت الوكزةُ قاضية، فواراه التراب ولم يعلم بذلك الأمر سوى الرجل العبراني ـ الذي نصره موسى عليه السلام ـ فندم موسى عليه السلام لأنه لم يكن يعلم أن الرجل سيموت، فاتجه إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾[3].

وقد غفر الله تعالى لموسى عليه السلام لأن القتل لم يكن عمدياً وكان دفاعاً عن مستجيرٍ به، لكن الفرعون لم يغفر لموسى وائتمر الملأ ليقتلوه لأن التهمة ثبتت عليه باعتراف الإسرائيلي الذي أنجاه موسى عليه السلام من الفرعوني وقد وضحت آيات القرآن الكريم هذا الأمر بكل تفصيل قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ

(١) سورة القَصَص: ١٧.
(٢) سورة القصص: ١٥.
(٣) سورة القَصَص: ١٦.

عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[1].

وبذلك انتشر الخبر في البيت الفرعوني وفي الملأ إلّا أن العناية الإلهية لم تترك موسى عليه السلام وحيداً فأرسل إليه من يخبره بالمؤامرة التي حيكت ضده قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾[2].

امتثل موسى عليه السلام للساعي سامعاً النصيحة: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾[3]. استجاب له ربه قائلاً: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾[4].

أما التوراة فقد ذكرت القصة بقليل من التفصيل حتى خروج موسى عليه السلام من مصر قائلة: «فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البئر..»[5].

مدين وزواج موسى (ع)

مدين: أرض أو بالأحرى مدينة واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية وشمال الحجاز وجنوب فلسطين، وتنسب إلى مدين أو مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام سميت القبيلة باسمه وهي الآن ضمن بلاد الأردن، وجاء في معجم الحضارات السامية: مديان (منطقة) في الشمال الغربي من شبه جزيرة العرب، تمتد من خليج العقبة شمالاً إلى مؤاب وطور سيناء.. وهي موطن ثيرون حمي موسى[6].

---

(١) سورة القصص: ١٨ ـ ١٩.
(٢) سورة القصص: ٢٠.
(٣) سورة القَصَص: ٢١.
(٤) سورة طه: ٤٠.
(٥) الخروج، الإصحاح الثاني، العدد ١٥.
(٦) انظر معجم الحضارات السامية، هنري سن.عبودي، ص٧٨٠.

وفي الطبري عن سعيد بن جبير أن ما بين مصر ومدين ثمان ليال، وكانت مدين هي البلاد التي وقع اختيار موسى عليه السلام على قصدها والنُّزول بها ولعله راعى صلة القرابة بين مديان بن إبراهيم وإسحاق بن إبراهيم الذي ينتمي موسى إليه.

والظاهر أن موسى خرج من مصر على عجل، فلم يتزود للطريق ولم يعدّ للسفر عدته. معتمداً على الله في هدايته إلى السبيل السوي. فلم يكن في قافلة أو رفقة في ذلك السفر الشاق، لأن من يطلب النجاة بخيط رقبته، لا يمكن أن يروي في أمره أو يعد لسفره عدته.

وفي الطبري عن سعيد بن جبير ايضاً أن موسى عليه السلام لم يكن له طعام سوى ورق الشجر. وأنه خرج حافياً، فما أن وصل إلى مدين حتى وقع خف قدمه. أي إن الجلدة الملاصقة للأرض من قدمه قد أضرّ بها السير الحثيث المتواصل حتى سقطت. وعن ابن عباس أن خضرة البقل لتتراءى من بطنه من الهزال[1].

موسى عليه السلام الذي تربى على العزّ والنعيم في مصر الفراعنة في بيت طاغيتهم يمتحنه الله تعالى هذا الامتحان الصعب ليهيئه للنبوة والرسالة والمسؤولية الكبرى، والآيات الكريمة من سورة القصص تكمّل مسيرة موسى عليه السلام إلى مدين: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾[2].

أحسَّ موسى عليه السلام بالمسؤولية تجاه البنتين بالرغم من التعب والإعياء المسيطرين عليه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ

(١) انظر قصص الأنبياء، النجار، ص١٦٥.
(٢) سورة القَصَص: ٢٢-٢٣.

خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[1] فأغناه الله تعالى من حيث لا يشاء: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾[2] طمأنه الشيخ بأن الله تعالى قد أنجاه وأغناه بالأمان والاطمئنان وأن الظلمة لن ينالوا منه شيئاً بعد اليوم.

ذُكرت الحادثة في التوراة مع بعض الاختلافات والحق مع ما قصّهُ القرآن الكريم، ومن المعلوم أن كتبة التوراة اعتمدوا على الذاكرة وعلى ما قصهُ لهم الآباء والأجداد من تاريخ الأنبياء. وقصة موسى عليه السلام بالخصوص أدخلوا فيها الغث والسمين وما أملت عليهم الأهواء.. على كل حال فقد ذكرت التوراة أن النسوة كن سبعاً لا اثنتين وإنهن قد ملأن الحياض لسقيا غنمهن، فجاء الرعاة وطردوهن وأبعدوا الغنم عن الحوض، وأخذوا في سقي ماشيتهم، فغضب موسى لهذا العمل وطرد الرعاة وسقى لهن وما إلى ذلك من الكذب والتزوير[3].

بعد أن اطمأن موسى عليه السلام في بيت الشيخ وابنتيه، اقترحت إحداهما على أبيها أن يستأجره لرعي ماشيتهم لتستريحا من هذا العمل الشاق فموسى هو القوي الأمين، فأما قوته فقد أدركتها من خلال سقيه للماء وأمانته في النظر الطاهر إليهن ومشيته التي تعمد أن تكون إلى الأمام كي لا ينظر إلى مشيتهن وحركتهن و...الخ.

قَبِل الشيخ اقتراح ابنتيه كما يحكي لنا القرآن الكريم: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ

(١) سورة القَصَص: ٢٤.
(٢) سورة القَصَص: ٢٥.
(٣) انظر سفر الخروج.

عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

وافق موسى عليه السلام ووقّع مع الشيخ ما اتفقا عليه، أما الشيخ الكبير الذي لم يذكر اسمه القرآن الكريم فقد اختلف المفسرون في اسمه ومن يكون وأغلبهم اتجه إلى أنه النبي (شعيب عليه السلام) وقال آخرون: إنه (يثرون) ابن أخي شعيب عليه السلام ذكره هنري س. عبودي في كتابه (معجم الحضارات السامية) وذكر فريقٌ آخر أنه (يثرى) صاحب مدين نقلاً عن روايتين عن ابن عباس، وقد خصص عبد الوهاب النجار فيه بحثاً خاصاً في كتابه (قصص الأنبياء)، فراجع ذلك، أما ما يذكره العلامة الطباطبائي بشأن الشيخ الكبير فإنه يقول: «الشيخ الكبير لم يسمَّ في القرآن الكريم لكن روايات أهل البيت عليهم السلام وبعض روايات أهل السنة أنه هو شعيب النبي المبعوث الى مدين»[2].

قضى موسى عليه السلام الأجل الذي بينه وبين الشيخ وهو أبعد الأجلين أي عشر سنين على رأي مفسري القرآن الكريم اعتماداً على رواية عن الرسول محمد صلى الله عليه وآله[3].

تزوج من ابنة الشيخ وبارك الله تعالى فيه وفي عمله وزاد البركة عليه في إعطاء الشيخ له نتاج غنمه، فكوّن ثروة ورزقه الله الولد، وقيل: إن زوجته كانت (صفورة) حسب رواية التوراة، وعزم موسى عليه السلام العودة إلى مصر حيث أهله ومسقط رأسه لينقذهم من ذل العبودية ومن جبروت فرعون، فسار بأهله باتجاه مصر بأمرٍ من الله تعالى وكان يبلغ من العمر ـ حسب ما تذكر التوراة ـ ثمانين عاماً، وهذا مخالف لما يقوله القرآن الكريم، والحقُّ مع ما يقوله القرآن، فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز

---

(١) سورة القصص: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) الميزان، تفسير الآية ٢٢ من سورة القصص.

(٣) تفسير الميزان، الطباطبائي، تفسير الآية ٢٧ من سورة القصص.

أن موسى عليه السلام لما بلغ أشده[1] أعطاه الله العلم والحكمة وحدث له ما حدث في مصر ثم خرج منها إلى مدين والمسافة بين مصر ومدين ثماني ليالي على أغلب الأقوال، ثم قضى عشر سنين في مدين فيكون عمره الشريف نحو خمسين عاماً، أو أكثر بقليل ولا يمكن أن يكون ثمانين عاماً وتذكر التوراة أيضاً أن عمره الشريف في التيه كان قد بلغ مئة وعشرين عاماً..

ترك موسى عليه السلام أرض مدين وسار بأهله ـ زوجه وولده ـ وضلَّ الطريق في ليلةٍ باردة، أراد أن يوري ناراً، رأى ناراً من بعيد استبشر قائلاً لأهله لعلي أستطيع أن آتيكم جذوة منها لتصطلوا بها في البرد الشديد. قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩﴾[2].

استبشر موسى عليه السلام برؤيته للنار لأنه قد ضلَّ الطريق ولعله يجد من يدله عليه، فالنار تدل على ان هناك أُناساً يصطلون بها أو يطبخون عليها، فقال لأهله إما ان آتيكم بخبر عن الطريق أو آخذ جذوة منهم تصطلوا بها.

وصل موسى عليه السلام بالقرب من النار وكانت المفاجأة التي لم تخطر ببال موسى عليه السلام إنها شجرة علقت بها نار، والنار لا تنطفئ والعليقة لا تشتعل، ولم يجد أحداً من البشر يسأله عن الطريق وما هي إلّا دقائق سمع منادياً ينادي يا موسى إني أنا الله.

وهكذا اختاره الله تعالى لنفسه واصطفاه ليدخل التوحيد وكلمة لا إله إلا الله إلى مصر بعد أن انحرفت عن الصراط المستقيم.

(١) تذكر كتب اللغة بلوغ الأشد في الأربعين أو ثلاث وثلاثين.
(٢) سورة القصص: ٢٩.

بعثته واصطفاؤه

امتثل موسى عليه السلام للنداء وأصغى جيداً وإذا به يأمره أن اخلع نعلك لأن المكان الذي أنت فيه في منتهى القدسية وإنك أنت المخُتار من بين الناس جميعاً في عصرك وأنت المصطفى وأنا ربك ولا إله غيري فلتكن عبادتك لي، وأمره أن يقيم الصلاة، والآيات الكريمة من القرآن الكريم توضح ذلك: قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾[(١)].

وفي آيات أُخر يبين الله تعالى نعمته عليه وأنه اصطفاه لنفسه بعد اختبارات وامتحانات: ﴿...فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾﴾[(٢)].

والاصطناع هو الاصطفاء وهو الاختيار، وبارك الله تعالى له ولقومه في ذلك المكان المقدس: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾[(٣)].

وكان النداء الذي سمعه موسى عليه السلام من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة التي كان بجانبها موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾[(٤)].

وكانت بعثتهُ عليه السلام في الوادي المقدس طوى وأول التكليم وأول الوحي بعد الاختيار: ونزلت التعاليم على موسى عليه السلام من العلي الأعلى وهو يكلمه ويوحي إليه ويأمره وينهاه ويبين له أنَّ الساعة آتية قال تعالى

---

(١) سورة طه: ١١ ـ ١٤.
(٢) سورة طه: ٤٠-٤١.
(٣) سورة النّمل: ٨-٩.
(٤) سورة القصص: ٣٠.

لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾[2].

دعوته للتوحيد في مصر

ومن الأوامر التي أمر بها الله تعالى موسى عليه السلام أن يذهب إلى مصر داعياً أن لا إله إلا الله بالدليل والحجة القاطعة. خاف موسى عليه السلام من هذه المهمة الصعبة، وخاف تكذيبهم له، ثم إنهم حكموا عليه بالقتل بعد أن قتل منهم نفراً، فخاف أن لا يؤدي المهمة على أكمل وجه فهو يحتاج إلى من يشدّ عضده، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾[3]، فطلب من الله تعالى أن يشرك معه أخوه هارون لأنه أفصح منه لساناً، وأنه أخوه الأكبر، أراده أن يكون له عضداً ووزيراً ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾[4]. وقال أيضاً: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾[5].

استجاب الله تعالى لموسى وأعطاه ما طلب وأجاب دعوته: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾[6]. بعد هذه الطمأنة الصريحة لموسى عليه السلام أمره الله تعالى أن يمضي في المهمة هو وأخوه قال مخاطباً لهما: ﴿...فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[7]. وقال تعالى أيضاً مخاطباً موسى عليه السلام. مؤكداً العناية واللطف الإلهي

---

(١) سورة طه: ١٣.
(٢) سورة طه: ١٥-١٦.
(٣) سورة الشُّعَرَاء: ١٠-١١.
(٤) سورة طه: ٢٩ ـ ٣٢.
(٥) سورة القَصَص: ٣٤.
(٦) سورة القصص: ٣٥.
(٧) سورة الشُّعَرَاء: ١٥-١٦.

الذي سيحيط به وبأخيه واستعجله أن لا يتأخر في الدعوة قال له: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[1].

هذا ما جاء في القرآن الكريم من أمر الله تعالى لموسى ﷺ لنشر دعوة التوحيد في مصر، والتوراة ذكرت الموضوع بالتفصيل مع فروق ليست بذات بال، في الإصحاح الثالث والرابع من سفر الخروج، ولا مجال لذكر التفاصيل فالقرآن الكريم فصّل ما فيه الكفاية وهو الكلام الصدق.

أخبر موسى ﷺ أخاه هارون بأنه شريك له في الرسالة وعضيد له على تبليغ حجة الله فامتثل لأمر الله تعالى في إبلاغ رسالة الله لآل فرعون بشكل عام وفرعون بشكل خاص وأمر الله تعالى أن يبلغا فرعون أن لا يعذب بني إسرائيل وأن يتركهم ليخرجوا من مصر مع موسى وهارون، قال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾[2].

امتثلا للأمر وذهبا إلى فرعون ودخلا عليه وبادر موسى ﷺ بمحاجة فرعون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾[3]. وكان هارون يصدقه ويشدّ عضده فيما يقول، وجعل الله لهما سلطاناً كما وعدهما أي رهبةً وعظمة في قلب الفرعون وآله وحتى في نفوس بني إسرائيل، فجعل الهيبة والغلبة لهما في كل حجة وحوار مع الفرعون وآله كما قال الله تعالى لموسى في الوادي

(١) سورة طه: ٤٢-٤٦.
(٢) سورة طه: ٤٧.
(٣) سورة الأعراف: ١٠٤-١٠٥.

المقدس طوى حينما خاف موسى عليه السلام من القيام بالمهمة الشاقة وطلب من الله أن يشرك معه أخاه هارون قال له﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾[1]. أي لا يتمكنوا منكم قيد أنملة إنّي معكم أحيطكم باللطف والرعاية وأجعل لكم الغلبة والسيطرة في الكلام والحوار وإلقاء الحجة والبيّنة.

وبهذا يكون موسى عليه السلام قد أدخل التوحيد إلى مصر بعد أن أنساهم الفرعون من هو الخالق الحقيقي وادعى الربوبية لنفسه وقال أنا ربكم الأعلى ونسي المصريون ربهم الذي دعاهم إليه من قبل يوسف ويعقوب وإبراهيم ولوط، يلقي عليهم الله تعالى الحجة مرةً أخرى لكي لا تخلو الأرض من حجة.

الحوار الساخن بين موسى والفرعون

بدأ موسى عليه السلام وأخوه هارون بالحوار اللين كما أمرهم الله تعالى في محاججة الفرعون، وقالا له: هل لك أن تزكي وتهتدي إلى وحدانية الله تعالى وتتنزل عن عرش الربوبية الذي ادعيته لنفسك وتخشى ربّ العالمين خالق كل شيء وخالقك إلى آخر ما أمرهم به الله تعالى، لكن الفرعون أخذ يستخف بالكلام ولا يصدق نفسه ما يسمع منهما، وأخذ يذكر موسى عليه السلام كيف تربى في هذا البيت والرعاية التي توافرت له في هذا البلاط وقيامهم برعايته منذ نعومة أظفارهِ ومكوثه فيهم منذ صغره حتى بلغ أشده وهل هذا جزاء الإحسان وهل هذا يقتضي مخالفة الفرعون ومعتقداته، وهل تلك المودة والاهتمام أوجبا هذا الموقف الذي يغيظ الفرعون وآله، لكي يُروعون بمعتقد غريب عنهم غير معروف، فهم لا يعرفون غير عبادة الفرعون وآله.

لقد قال له صراحة إمّا أن تبادر إلى عبادة الفرعون أو تعذّب، ثم ذكّره

---

(١) سورة القَصَص: ٣٥.

بفعلته التي قتل فيها الرجل القبطي وهروبه على أثرها. فمن كان آثماً فلا يجوز أن يأتي بما هو أعظم منه وهو حملهم على ترك آلهتهم، والتوجه لعبادة ربه الذي لا يعرفه الفرعون ومن حوله والآيات الكريمة من سورة الشعراء توضح هذا الحوار. قال تعالى على لسان الفرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾[1].

أجاب موسى عليه السلام مقراً بذنبه ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾[2]. لكن الله تعالى رحمني وتلطف بي وأعطاني الحكمة وجعلني نبياً مرسلاً بعد أن تبتُ إلى الله تعالى لأن قتلي لم يكن عمدياً بل عفوياً بغير قصد﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[3].

بعد أن تمَّ الحوار في هذا الموضوع دخل الفرعون في حوار آخر مع موسى عليه السلام وهو سؤاله عن رب العالمين، بطريقة الاستهزاء والاستخفاف بغية الانتقاص من موسى عليه السلام النبي المعصوم الذي أثبت جدارةً لا يفوقها شيء في مجال الحوار والمناقشة، سأل فرعون موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾[4]. أجابه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾[5].

لم يصدق الفرعون ومن حوله والتفت إلى الحاشية وإلى المستمعين جميعاً قال لهم: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾[6]. فأخذ يتهم موسى عليه السلام بالجنون.

نعم موسى عليه السلام في منطق الفرعون مجنون لأنه يقول شيئاً غير مألوف في واقعهم، ففرعون هو الربّ ولا غيره، لكن موسى عليه السلام أصرَّ على موقفه

---

(١) سورة الشُّعَرَاء: ١٨-١٩.
(٢) سورة الشُّعَرَاء: ٢٠-٢١.
(٣) سورة الشُّعَرَاء: ٢١.
(٤) سورة الشُّعَرَاء: ٢٣.
(٥) سورة الشُّعَرَاء: ٢٤.
(٦) سورة الشُّعَرَاء: ٢٥-٢٧.

وإن الله خالق كل شيء لا الفرعون، وأشار إلى شروق الشمس وغروبها، حيث لا يجرؤ فرعون أن يقول: إنه يأتي بها من المشرق، ويرسلها إلى المغرب ولذا بهت فرعون حيث سمع هذا القول من موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾[1] تماماً كما بهت نمرود من قبله حيث تحداه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾[2].

استمر الفرعون في لجاجته وعتوّه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾[3]. أجابه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[4] وسأل فرعون سؤالاً آخر: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾[5] أجابه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾[6] هذه الآيات وغيرها تبين الدلائل التي استدل بها موسى عليه السلام على وجود الله وقدرته وعظمته وخالقيته للبشر وإماتتهم ثم بعثهم للحساب والكتاب، وكل هذا لم يحرك في فرعون مشاعر الإيمان، بل أخذ بالاستهزاء والتفت إلى رعيته يكلمهم: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨﴾[7].

أراد فرعون أن يبلغ أسباب السماوات من خلال صعوده إلى الصرح

---

(١) سورة الشُّعَرَاء: ٢٨.
(٢) سورة البَقَـرَة: ٢٥٨.
(٣) سورة طه: ٤٩.
(٤) سورة طه: ٥٠.
(٥) سورة طه: ٥١.
(٦) سورة طه: ٥٢-٥٥.
(٧) سورة القَصَص: ٣٨.

ليرى إله موسى وهو يعلم انه لن يراه ولكن أراد أن يؤكد للناس ان موسى عليه السلام كذّاب مجنون، لكن الله تعالى جعل كيد فرعون في تباب وأفشل كل خططه، والآيات الكريمة من سورة غافر توضع فشل كيد فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝٣٦ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾[1].

ظلَّ الحوار ساخناً بين الفرعون وموسى عليه السلام ويأس فرعون من إيجاد سبيل لإقرار موسى وهارون بأنه الإله الحق، ثم لجأ إلى تعجيزهما متصوراً أن موسى عليه السلام غير قادر على الإتيان بمعجزة وآية بيّنة، وتوجه فرعون إلى موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۝١٠٦﴾[2] لم يتوان موسى عليه السلام من الإتيان بالآية البينة: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ۝١٠٨﴾[3] بهت الذي كفر ولم يسع قومه إلّا أن ينصروه ويرموا موسى عليه السلام بالسحر والحيلة: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩﴾[4].

أخذ الفرعون يتخبط هو ومن تبعه، فلا سبيل له إلّا قتل موسى وأخيه أو سجنهم للتخلص منهم: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩﴾[5] وقال أيضاً: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ۝٢٦﴾[6] بل أكثر من هذا فقد توعدوا أن يقتلوا أبناء كُل من يؤمن بموسى عليه السلام: ويستحيون النساء: ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾[7].

---

(١) سورة غافر: ٣٦ ـ ٣٧.
(٢) سورة الأعراف: ١٠٦.
(٣) سورة الأعراف: ١٠٧-١٠٨.
(٤) سورة الأعراف: ١٠٩.
(٥) سورة الشعراء: ٢٩.
(٦) سورة غافر: ٢٦.
(٧) سورة غافر: ٢٥.

من هو فرعون موسى (ع)

اختلف المؤرخون وعلماء الآثار في تحديد هوية الفرعون الذي عاصر النبي موسى ﷺ وهل الفرعون المربي هو نفسه الذي أباده الله تعالى غرقاً في اليم بعد لجاجته وعناده وعتوه، أم المربي غير الثاني ـ المُباد ـ

البعض اعتمد على مقولة التوراة، والبعض الآخر اعتمد على إشارة في القرآن الكريم، وآخرون اعتمدوا على علم الآثار والاكتشافات الحديثة وفريق رابع فنّد الأقوال كلها وأرجع العلم إلى الله تعالى، فقد ذكر ول ديورانت اعتماداً على التوراة: «ويعتقد بعضهم أن رمسيس الثاني هو عينه فرعون موسى الذي ورد ذكره في سفر الخروج»[1].

علماً أن التوراة تكلمت عنهُ ثم ذكرت أن الرب قال لموسى ﷺ: (اذهب ارجع إلى مصر لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك). وتوحي هذه العبارة أن الفرعون المربي لموسى ﷺ قد مات بعد أن حكم (٦٧) عاماً كما جاء في معجم الحضارة المصرية القديمة: «رمسيس الثاني (١٣٠١ ـ ١٣٢٥ق.م) استمر في الحكم مدة ٦٧ عاماً وتزوج بخمس أو ست زوجات عظيمات وكان أباً لأكثر من مائة ولد ملكي وأقام عدداً كبيراً من التماثيل الضخمة، وشيّد كثيراً من المدن الكبيرة في جميع أنحاء مصر وعندما مات كان عمره أكثر من مئة عام»[2] أما في قصة الحضارة فقد جاء: أنّ «رمسيس الثاني أسلم الروح وهو في التسعين من عمره بعد عهد يعد من أشهر العهود»[3].

أما القول الآخر في فرعون موسى ﷺ فيرجح أن يكون منفتاح: «منفتاح (مري نبتاح): أحد أبناء رمسيس الثاني ورابع فراعنة الأسرة ١٩، تجمعت في بداية عهده عناصر الفتنة من شعوب البحر وصحراء

---

(١) قصة الحضارة، وِل ديورانت، مج١، ص١٨١.
(٢) معجم الحضارات المصرية القديمة، ترجمة أمين سلامة، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.
(٣) قصة الحضارة، مصدر سابق، ص١٨٢.

ليبيا وقبائل مختلفة من اللاجئين والمغيرين في أقاليم الدلتا، فقضى عليها ودمرهم جميعاً، ومن بينهم إسرائيل، ولذا يرجح أكثر المؤرخين أنه فرعون موسى»[1].

أما إشارة القرآن الكريم أن الفرعون الذي حاجّهُ موسى عليه السلام قال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[2] البعض يرجع قول فرعون (نربك) إلى أنه ليس هو المربي لأنه لم يقل (ألم أربك) أو أنا بمنزلة والدك، أو أنت بمنزلة ولدي وما إلى ذلك مما يذكّر المربي والأب ولده عندما يخرج عن طاعته، بل قال (نربك) يعني نحن أهل هذا البلاط، وهذا ما يوعز أن المتكلم غير المربي ولعله ابنه، وهناك إشارة أخرى من القرآن الكريم اتفقت مع علم الآثار الحديث تشير إلى أن المتحدث ليس رمسيس الثاني قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً... ﴿٩٢﴾﴾[3].

ولقد أنجى الله تعالى بدن منفتاح (مري نبتاح) فقد عثر علماء الآثار على مومياته كاملة في هرمه الخاص، وبعد إجراء البحوث عليه والفحوصات تبين أن الجثة تعرضت إلى الغرق ففي رأسه آثار ضربة أرجعوها إلى أنه تعرض إلى حادث قبل الغرق..

وقد ذكر د. سيد كريم في مقال له: «لقد أثبتت البحوث الحديثة التي قام بها كل من فلندز بتري وادوار ماير ونافيل وحققها العالم المصري د. سليم حسن، أن فرعون موسى هو منفتاح بن رمسيس الثاني، وهو الذي انقلب على اليهود بعد أن كان يقوم بحمايتهم والدفاع عنهم أثناء حكم أبيه واضطهاده المعروف لهم»[4].

وجاء على لسان النجّار: «وحيث إن الملك رعمسيس الثاني[5] قد

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة، مج٤، الطبعة الثانية المحدثة، ص٢٣٥٥.
(٢) سورة الشُّعَرَاء: ١٨.
(٣) سورة يونس: ٩٢.
(٤) مجلة الهلال المصرية، مقال د.سيد كريم، فرعون موسى، العدد ٥، ص٥٨.
(٥) رعمسيس الثاني هو نفسه رمسيس الثاني.

أشرك ابنه (منفتاح) معه في الحكم قبل وفاته وكان (منفتاح) الولد الثالث عشر لرعمسيس. وقد بلغ أولاده (١٥١) وكان مسناً حين ولايته للعهد. فيكون قد عاصر موسى في بيت أبيه. وبحق قال لموسى ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[١] ويكون منفتاح هو فرعون الخروج»[٢].

«وظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهيئاً كما يجب لدفن ملك مثله، لأن موته لم يكن منتظراً فلم يهيأ له قبر خاص»[٣].

«وقد عثر العلامة فلندرس بتري على حجر من الغرانيت القاتم ورقمهُ في الدار (٥٩٩) وهو عبارة عن لوحة كبيرة يبلغ ارتفاعها ٣ أمتار و١٤سم وهو منقوش من الوجهين أحدهما للملك (أمنحتب) الثالث من الأسرة ١٨ يذكر فيه كل ما عمله لمعبد آمون.

أما الوجه الآخر فقد استعمل في شأن منفتاح بن رعمسيس الثاني من الأسرة ١٩ وذكر فيه عبارات بأسلوب شعري يفتخر فيها بانتصاره على اللوبيين، ويشير إلى سقوط عسقلان وجيزر ويانوعيم في فلسطين. وجاء ضمنها عبارة تشير إلى بني إسرائيل ونصها الحرفي (لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لهم بذر) وهذا أول نص رسمي في الآثار ذُكر فيه بنو إسرائيل. وقد عثر على هذا الحجر في كوم الحيتان بطيبة الأقصر»[٤].

أما الفريق الرابع فيرجع العلم لله تعالى فقد لا يكون رمسيس الثاني ولا يكون منفتاح بل غيرهم لأن علماء الآثار وجدوا نصاً يشير إلى أن رمسيس الثاني وابنه منفتاح قد قضوا على بني إسرائيل، والحقيقة أن بني إسرائيل هم الذين قضوا على عرش فرعون الخروج بقيادة النبي

---

(١) سورة الشُّعَرَاء: ١٨.
(٢) النجار، قصص الأنبياء، ص ٢٠٢.
(٣) المصدر السابق، ص٢٠٣.
(٤) المصدر السابق نفسه.

موسى عليه السلام بعد خروجهم من مصر بلطف من الله تعالى، حيث غرق فرعون وجنوده في اليم ولم يبق منهم أحد.

وقد يُفهم من النص أن فرعون محا أثر بني إسرائيل من مصر أي خرجوا جميعهم بقيادة موسى عليه السلام ولم تبق لهم باقية في مصر.

من آمن بموسى (ع) قبل معاجزه:

عندما بُعث موسى عليه السلام نبياً دعا قومه إلى عبادة الله تعالى فآمنت به جماعة لكن سراً خوفاً من فرعون وبطشه وتنكيله لأنه كان طاغية زمانه ومسرفاً في القتل والفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

آمنت هذه الذرية بموسى عليه السلام، والذرية في اللغة: النسل، لكنّ المفسرين اختلفوا في تفسير ذريّة من تكون هذه الفئة وهل هي من قوم موسى أم من قوم فرعون؟ «ذكر بعض المفسرين أن الضمير في (قومه) يرجع إلى فرعون، والذرية الذين آمنوا من قومه كانت أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط فتبعوا أمهاتهم في الإيمان بموسى، وقيل الذرية بعض أولاد القبط، وقيل أريد بها امرأة فرعون ـ آسيا ـ ومؤمن آل فرعون، وقد ذُكرا في القرآن الكريم وجارية وامرأة هي ماشطة امرأة فرعون»[2].

واتجه آخرون في تفسير آخر لهذه الذرية قائلين: «إن الضمير لموسى عليه السلام والمراد بالذرية جماعة من بني إسرائيل تعلموا السحر وكانوا من أصحاب فرعون، وقيل: هم جميع بني إسرائيل وكانوا ستمائة ألف

---

(١) سورة يُونس: ٨٣.
(٢) تفسير الميزان، ج١٠، ص١٠٦.

نسمة سمّاهم ذرية لضعفهم، وقيل: ذرية آل إسرائيل ممن بعث إليهم موسى وقد هلكوا بطول العهد»[1].

أما الشيخ محمد جواد مغنية فله رأي آخر، يقول «أمّا قبل إلقاء العصا فقد آمن به الفتيان والشبان من بني إسرائيل، لأن الشباب من كل قوم كانوا ما زالوا يتحمسون لكل جديد، ولكنهم آمنوا بموسى، وهم خائفون من فرعون، ومن رؤوس الإسرائيليين أيضاً أن يضطهدوهم ويستعبدوهم ويعذبوهم ليرتدوا عن دينهم، فلقد كان أرباب المصالح منهم يتآمرون مع فرعون، ويناصرونه على المستضعفين من قومهم، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أهل الأديان في كل زمان ومكان»[2].

والعلامة الطباطبائي يقول: «والذي يفيده السياق وهو الظاهر من الآية أن يكون الضمير راجعاً إلى موسى والمراد بالذرية من قوم موسى بعض الضعفاء من بني إسرائيل دون ملئهم الأقوياء والشرفاء، والاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعاً كانوا أسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم، والعادة الجارية في أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء والأقوياء بأي وسيلة أمكنت إلى حفظ مكانتهم الاجتماعية وجاههم القومي، ويتقربوا إلى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال والتظاهر بالخدمة ومراءاة النصح والتجنب عما لا يرضيه فلم يكن في وسع الملأ من بني إسرائيل أن يعلنوا موافقة موسى عليه السلام على بُغيته، ويتظاهروا بالإيمان به»[3].

والقرآن الكريم يذكر إيمان (آسيا) زوجة الفرعون، إيمانها بموسى عليه السلام ويضرب بها المثل في الايمان والدرجة العالية في التقوى والإخلاص، وجاء في سورة التحريم: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) تفسير الكاشف، ج٤، ص١٨٥.
(٣) الميزان، ج١٠، ص١٠٦.

ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾[1].

قيل إن فرعون عذّب امرأته عذاباً شديداً لما رأى إيمانها بإله موسى وترك آلهتهم، وحريٌّ بامرأةِ فرعون أن تؤمن هذا الإيمان الراسخ بموسى وشريعته الغرّاء، فهي التي قالت لفرعون أبقه لنربه لعلنا نتخذه ولداً، وهي التي ربته ووجدت فيه خصالاً لم تجدها في أحد، وجدت فيه الصدق والأمانة والإخلاص ونصرة المظلوم و. . و. . من خصال الأولياء الصالحين، فكيف لا تؤمن به وتصدقه، فهو الصادق في القول ولم تلمس منه كذبة منذ فتح عينيه على الدنيا.

وبعد أن أتى موسى عليه السلام بالحجج والبراهين البينات والمعاجز آمن به من عنده أرضية للايمان إلّا من لجّ وكفر، حتى أن السحرة سجدوا تعظيماً وتبجيلاً لموسى عليه السلام وآمنوا بإلهه وصدّقوا معاجزه، وعجز فرعون عن القضاء على التيار الإيماني الجارف، حتى قرر أن يقتل كل من آمن بموسى، بل أخذ يخطط للقضاء على موسى عليه السلام أيضاً . .

الرجل المؤمن من آل فرعون

آل فرعون كباقي البشر، منهم الذي ران على قلوبهم فلا يفقهون قولاً ومنهم من خشعت قلوبهم لقول الحق، فالسحرة الذين تحدث عنهم القرآن الكريم خرّوا ساجدين وأحسّوا بصغرهم أمام الحق وأهله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[2] وهناك من هو أقرب منهم إلى فرعون آمن بموسى وكتم إيمانه خوفاً على نفسه من القتل، آمن بالله عن صدقٍ ويقين، ولما أراد فرعون الشر بموسى دفعته حرارة الإيمان الخالص إلى أن يُحذِّر ويستنكر، ولكن بأسلوب العالم العاقل المشفق، فقد حاجج

---

(١) سورة التحريم: ١١.

(٢) سورة الأعراف: ١٢١-١٢٢.

فرعون قائلاً ماذا جنى هذا الرجل حتى استحق منكم القتل؟ لِأنه قال: ربي الله ومعه الحجة القاطعة التي أفحمتكم وأعجزتكم كاليد البيضاء والعصا التي تلقف ما تأفكون أم ماذا؟

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾[1].

وقال الشيخ المراغي في تفسيره ما نصه «الرجل المؤمن هو ابن عم فرعون وولي عهده وصاحب شرطته، وهو الذي نجا مع موسى»[2].

تحدث القرآن الكريم عن تفاصيل موقف هذا الرجل الصالح المخلص لله ولنبيه موسى عليه السلام، وكان موقفه مشرّفاً، يدعو القوم إلى سبيل الرشاد وإلى الصلاح ومحذراً بأس الله تعالى وما فعل في أمم عاد وثمود وقوم نوح وغيرهم، فمن انتقم الله منهم جزاءً وفاقاً بما صنعت أيديهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾[3].

وكان الرجل حريصاً عليهم من عذاب يوم القيامة ﴿وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾[4] مؤكداً عليهم أن ذلك اليوم ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾[5].

وذكّرهم بأن الدعوة التي جاء بها موسى عليه السلام اليوم ليست جديدة، فقد جاء النبي يوسف إلى آبائهم وإليهم ضمناً بالبينات، فلم يصدّقوه حتى إذا

---

(١) سورة غافر: ٢٨.

(٢) تفسير المراغي، في تفسير الآية ٢٨من سورة غافر.

(٣) سورة غافر: ٣٠ ـ ٣١.

(٤) سورة غافر: ٣٢.

(٥) سورة غافر: ٣٣.

هلك قالوا لن يبعث الله من بعده رسولاً: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[(١)].

ومن حرص الرجل المؤمن على قومه بيّنَ لهم أن متاع الحياة الدنيا قليل والآخرة هي دارُ القرار وأن الله لا يهمل الحسنات ولا السيئات بل يجازي على كل شيء، وأن للمؤمنين الجنات يرزقون فيها بغير حساب، والآيات الكريمة من سورة غافر من الآية ٣٨ إلى الآية ٤٦ توضح حرص الرجل المؤمن عليهم وتحذيره لهم وتبشيره بمتاع الآخرة الأبدي.

لكنهم تمادوا وجهدوا أن يردّوه إلى دينهم، فلامهم بالقول لهم إنه يريد بهم السعادة وهم يريدون له الشقاء الدائم، فهو يدعوهم إلى الإيمان وهم يدعونه إلى الكفر بالله العزيز الغفار فقال لهم: ﴿۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾[(٢)].

بعد هذه المواقف الحريصة عليهم همّوا أن يقتلوه كما همّوا بموسى عليه السلام، لكن الله تعالى نجّاه مع موسى عليه السلام وقومه وأنزل سوء العذاب على فرعون وآله فكانوا إلى جهنم وبئس المصير كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[(٣)].

معاجز موسى (ع):

لموسى عليه السلام آيات ومعجزات كثيرة ذكرها القرآن الكريم أولها تيسير رسالته قال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن

---

(١) سورة غافر: ٣٤.
(٢) سورة غافر: ٤١ ـ ٤٢.
(٣) سورة غافر: ٤٥-٤٦.

لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾[1] استجاب له الله تعالى وحلَّ عقدة اللسان التي كان معروفاً بها منذ صغره ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾[2].

فلعل المقصود من ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾[3] أي هناك (منٌّ) على موسى عليه السلام قبل هذا وهو نعمة إبقائه على قيد الحياة وعدم التعرض له بسوء من قِبل الفرعون واتباعه، ثم إعادته لأمه كي ينعم بحنانها ولبنها ويقضي مدة حضانته.

وهناك تسع معاجز خاصة لدعوة فرعون فيما يذكره القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾[4].

وجاءت هذه الآيات أو المعجزات نتيجة العزة بالإثم الذي لازم فرعون وآله والتمادي في تكذيبه لموسى واستمرارهم في إعنات بني إسرائيل وإيقاع ضروب الإذلال والإهانة بهم. لقد حذرهم موسى عليه السلام بأن الله تعالى سيوقع بهم العذاب جرّاء تكذيبهم وعتوهم هذا، فلم يبالوا فجازاهم الله تعالى بالجدب تارة ونقص من الثمرات أخرى والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس على أموالهم ونقص في الأنفس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ[5] وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[6] وقال أيضاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[7] ودعاء موسى وهارون عليهم: ﴿رَبَّنَا

---

(١) سورة طه: ٢٥ ـ ٢٨.
(٢) سورة طه: ٣٦-٣٧.
(٣) سورة طه: ٣٧.
(٤) سورة الإسراء: ١٠١.
(٥) السنين ومنها أسنت القوم أي أصابتهم السنة أي الجدب والجفاف.
(٦) سورة الأعراف: ١٣٠.
(٧) سورة الأعراف: ١٣٣.

اَطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1] وأجابهم الله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[2] وكانت آخر الآيات التسعة هو النقص في الأنفس حينما أراهم الله تعالى الآية الكبرى وهي غرقهم في اليم حيث انفلق لموسى عليه السلام وأخيه وقومهم وانطبق على فرعون وآله.

أما معجزات موسى عليه السلام في بداية دعوته لفرعون فهي العصا واليد. فأمّا العصا فهي عصاه التي كان يهشُ بها على غنمه ويتكئ عليها، فأوحى إليه الله تعالى أن يلقيها فصارت حيةً تسعى خاف موسى عليه السلام للوهلة الاولى منها فقال له تعالى: ﴿...خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[3] وأما اليد فكذلك أوحى الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾[4].

هاتان الآيتان أراهما الله تعالى لموسى في الوادي المقدس طوى وأوعده أن يريه آيات أكبر منها وأكثر، قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾[5] ثم أمره أن يذهب إلى فرعون ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[6] ذهب موسى عليه السلام إلى مصر وأول ما استعمل في دعوته لفرعون هاتين المعجزتين، وقف أمام فرعون متحدياً وفي المقابل تحداه فرعون أن يأتي بآية: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾[7] ولم يتوان موسى عليه السلام: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾[8] وكذلك الآية الأخرى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[9] ظن فرعون وآله أن ما قام

---

(١) سورة يُونس: ٨٨.
(٢) سورة يُونس: ٨٩.
(٣) سورة طه: ٢١.
(٤) سورة طه: ٢٢.
(٥) سورة طه: ٢٣.
(٦) سورة طه: ٢٤.
(٧) سورة الأعراف: ١٠٦.
(٨) سورة الأعراف: ١٠٧.
(٩) سورة الأعراف: ١٠٨.

به موسى شيء من السحر فتوعده يوم الزينة، وكان أعظم أعيادهم. انتظر الجميع ذلك اليوم، بفارغ الصبر، فراود السحرة موسى عليه السلام هل يلقون سحرهم أو يلقي سحره أولاً؟ وكان الجمع حافلاً يوم الزينة، ويظن أنه يوم وفاء النيل. فهو أعظم أعيادهم. فقال لهم موسى: القوا ما أنتم ملقون. وكان عتادهم العصا والحبال، فألقوها فامتلأ المكان حيات وثعابين، وخيل إلى موسى من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة، لكن الله تعالى طمأن موسى عليه السلام أن ألقِ عصاك ووقعت المعجزة غير المنتظرة ولا تخطر ببال فرعون وآله وسحرته ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[(١)].

الموقف رهيب حقاً لفرعون وآله الذين جاءوا بالسحرة من كل أنحاء مصر وكانوا معتدّين بأنفسهم واثقين من مقدرتهم على السحر والتصرف في الأعيان والعيون، وإذا بهم انقلبوا صاغرين ساجدين لموسى وهذا الموقف بحقيقته آية مبينة ومعجزة واضحة وهي انقلاب كبار السحرة صغاراً أمام موسى عليه السلام لكن الفرعون الذي ران على قلبه ليس بوسعه إلّا أن يخرج من هذا المأزق المهيب فقال لهم: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ﴾[(٢)].

وإذا استقرأنا سفر الخروج من العهد القديم وجدنا أنَّ كتبة التوراة ذكروا اثنتي عشرة معجزة لموسى عليه السلام: أولها انقلاب العصا حية ثم انقلاب نهر النيل دماً لمدة سبعة أيام وموت السمك في النهر ونتن مائه وصعود الضفادع من النهر إلى أرض مصر ومضايقتها للمصريين حتى غطت أرض مصر، وكثرة البعوض وكثرة الذباب وتفشّي الوباء في مواشي المصريين وانتشار الدماميل في الناس والبهائم ونزول البرد الشديد الذي أصاب المواشي والناس، وهيجان الجراد بكثرة وأكله

(١) سورة الأعراف: ١١٧-١٢٠.

(٢) سورة الشُّعَرَاء: ٤٩.

الزرع والثمار، وانغمست أرض مصر ثلاثة أيام بالظلام، وكذلك موت كل بكر من الناس والبهائم في المصريين وآخرها اليد، هذه هي الآيات التي ذكرتها التوراة من الإصحاح السابع حتى الثاني عشر وليس بالإمكان الإتيان بنصوصها كلها، وقد أتحفنا القرآن الكريم بما هو أدق وأصدق كما سيأتي في الفصل الثامن والتاسع.

نجاة موسى (ع) ومصير فرعون:

لقد أوعد الله تعالى موسى عليه السلام أن يريه من آياته الكبرى بعد معجزة العصا واليد وغيرها حتى جاء يوم الخروج من مصر هو وقومه من الذين آمنوا: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾[1].

جاء موسى عليه السلام بآيات ومعجزات عظيمة أدركتها تماماً نفوس آل فرعون وفرعون نفسه، لكنهم جحدوها وكذّبوها لما في قلوبهم من رين وصدأ الكفر والعناد: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[2] وقال تعالى في هذا الصدد أيضاً: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾[3].

وكانت النتيجة الطبيعية للسنن الكونية أن أخذهم الله تعالى بالعذاب بعد النُّذر الكثيرة التي جاءت إليهم من العلي العزيز قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾[4].

وجاءت الآية الكبرى من آيات الله الكثيرة التي نزلت في آل فرعون ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[5] وظهر بعد التكذيب والعصيان مرة أخرى

---

(١) سورة طه: ٢٣.
(٢) سورة النّمل: ١٣-١٤.
(٣) سورة الزّخرُف: ٤٧-٤٨.
(٤) سورة القمَر: ٤١-٤٢.
(٥) سورة النازعات: ٢٠.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١﴾[1] وانفلق البحر بقدرة الله تعالى لموسى عليه السلام وقومه وكانت آية كبرى حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٤٨﴾[2]

وآية انفلاق البحر معجزة لا تدركها العقول القاصرة حيث أوحى الله تعالى لموسى عليه السلام بعد خوف أدرك بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ۝٧٧﴾[3] امتثل موسى عليه السلام وضرب بعصاه البحر فانفتح لهم، كأنه جسر بعد أن انفلق البحر وكان كل فِرْقٍ كالطود العظيم أي كالحبل الشامخ ليكون لهم ستراً عن عيون فرعون وجنوده: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣﴾[4].

خرج موسى عليه السلام ليلاً هو قومه خائفين من أن يتبعهم فرعون وجنوده، ساروا باتجاه البحر حتى وصلوا إليه مشرقين وتبعهم آل فرعون فأدركوهم في ذلك الوقت أي عند شروق الشمس في الصباح الباكر، وأصبح قوم موسى عليه السلام يرون قوم فرعون، قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١﴾[5] أخذ موسى عليه السلام بطمئنتهم وتذكيرهم بأن لطف الله تعالى وعنايته وهدايته ترعاهم: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾[6] فهداه الله تعالى أن يضرب بعصاه البحر لينفتح لهم طريقاً يهديهم إلى الاتجاه الآخر من البحر.

تبعهم فرعون وجنوده ليعبروا البحر كما عبره موسى عليه السلام وقومه ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، فأغرقهم جميعاً جزاءً بما كانوا يكفرون بآيات

---

(١) سورة النازعات: ٢٠ ـ ٢١.
(٢) سورة الزخرف: ٤٨.
(٣) سورة طه: ٧٧.
(٤) سورة الشُّعَرَاء: ٦٣.
(٥) سورة الشُّعَرَاء: ٦٠-٦١.
(٦) سورة الشُّعَرَاء: ٦٢.

الله ويظلمون عباده ويتكبرون على الله وعلى عباده فانتقم الله تعالى منهم جزاءً وفاقاً قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾[1].

يركضون ويلهثون لإدراك موسى ﷺ وقومه لكن الله لم يمكنهم: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[2].

أراد فرعون أن يُخلي أرض مصر من بني إسرائيل بالقتل والأسر والتشريد، فدارت عليه دائرة السوء كما تدور على كل طاغية، أغرقهم الله تعالى بعد أن أظهر لهم الحجج الواضحة، والدلائل الظاهرة فأبوا تمادياً في الكفر والطغيان: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾[3].

بحر العبور:

يتساءل الكثير من الباحثين عن البحر الذي عبره بنو إسرائيل، وأصبح مقبرةً لجنود فرعون حيث نجّا (بدنه) من الغرق بعد أن زهقت نفسه الظالمة المتكبرة على الله وعباده كما وعد الله تعالى ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[4] فأين موقع هذا البحر من الخارطة الجغرافية، وهل بُركة فرعون في خليج السويس هي مكان العبور أم هُناك مكان آخر شمال البحر الأحمر أو شرقه أو غربه أم البحر المتوسط.

القرآن الكريم لم يذكر الموقع الذي عبر منهُ موسى ﷺ وقومه، القرآن الكريم لم يذكر سوى كلمة (البحر) و (اليم) وما إلى ذلك من أسماء البحر في اللغة، أما أيّ بحر كان، فذلك ما لم يذكره... وقد ذكر النجار: «أما موضع العبور فلم يعلم بالضبط. والتوراة تورد أسماء أمكنة مرّ بها بنو

---

(١) سورة يُونس: ٩٠.
(٢) سورة الأعراف: ١٣٦.
(٣) سورة الإسراء: ١٠٣.
(٤) سورة يُونس: ٩٢.

إسرائيل حتى أتوا مكان العبور. وهذه الأمكنة ليست مسمياتها معروفة اليوم، والبحّارة في البحر يسمون مكاناً في خليج السويس (بُركة فرعون) ويقولون إن العبور كان بها وهي بعيدة عن السويس كثيراً تمر بها السفن البخارية بعد نصف الليل إذا قامت من السويس في الماء وإني لا أستبعد ذلك كثيراً وأعتقد أن خليج السويس كان يمتد في تلك الأزمان إلى البحيرة المرة أو يقرب منها، وفي هذا الخليج من تلك الناحية كان عبورهم. وبعبارة أخرى أنهم عبروا إلى مكان شمالي المكان المعروف بـ(عيون موسى) في البر الاسيوي وهو لا يبعد عن السويس كثيراً»[1]

ويضيف أيضاً: «وبين يدي أطلس تاريخي للأستاذ محمد رفعت وقد رسم فيه طريق عبور بني إسرائيل بين السويس كان متصلاً بالبحيرة المرة. وأحسب أنه على صواب»[2].

عصا موسى (ع) وقدرة الله:

من أين جاء موسى عليه السلام بهذه العصا التي رافقته طيلة دعوته إلى الله تعالى، وكانت وراء الكثير من المعاجز والآيات التي رافقتها فكانت السند والمعين لموسى عليه السلام.

لقد كانت البداية أن سأله الله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾[3] والسؤال المطروح على موسى عليه السلام كان في الوادي المقدس حينما أنس ناراً وسعى إليها وكان في اعتقاده أن أُناساً هناك قد يرشدونه إلى الطريق في تلك الليلة الباردة أو يصطلي لأهله منهم بعض النار، فكلّمه الله تعالى هناك وكانت البعثة النبوية الشريفة لموسى عليه السلام، فأعلمه الله تعالى

---

(١) النجار، مصدر سابق، ص٢٠٣.

(٢) النجار، مصدر سابق، ص٢٠٣.

(٣) سورة طه: ١٧ ـ ١٨.

أن هذه العصا التي بيده ستكون عونه في رسالته السماوية، فأوحى إليه الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[1] قال له الله تعالى ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾[2].

طمأن الله تعالى قلب كليمه موسى عليه السلام بالعصا وقدرة الله تعالى أن يجعلها عونه وسنده وقد بيّن الله تعالى في القرآن الكريم قدرته تعالى في هذه العصا وكيفية إنقاذها لموسى عليه السلام من مآزقٍ شتى:

١ ـ ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾[3] أي فرعون يحاج موسى عليه السلام.

٢ ـ معجزته يوم الزينة (يوم عيدهم العظيم): ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾[4] وكذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾[5].

٣ ـ انفلاق البحر، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾[6].

٤ ـ إخراج الماء من الحجر: ﴿...وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[7].

استهزاء الفرعون بموسى (ع)

كانت حجج موسى عليه السلام بينات واضحات وما عسى فرعون أن يفعل

---

(١) سورة القَصَص: ٣١.
(٢) سورة القَصَص: ٣١.
(٣) سورة الأعرَاف: ١٠٦-١٠٧.
(٤) سورة طه: ٦٩.
(٥) سورة الأعرَاف: ١١٧.
(٦) سورة الشعراء: ٦٣.
(٧) سورة الأعراف: ١٦٠.

ليبعد الملأ عن دعوة موسى عليه السلام لإلهه الواحد، كيف وفرعون هو الرب الأعلى، كيف تؤمن مصر بإله غير فرعون؟

وقف فرعون خطيباً رافعاً رأسه مشمراً بيديه يحاجج الملأ بكبرياء المتكبر وبهوان موسى وضعفه وعدم امتلاكه شيئاً، والفرعون هو المتفضل على موسى حيث التقطه من البحر وربّاه في بلاطه وأطعمه وكساه، وأن كل ما في مصر ملك فرعون حتى الأنهار التي تجري من تحته.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾[1] ثم قال لهم مقارناً بينه وبين موسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[2] ثم يبين فقر موسى وعدم امتلاكه ذهباً ولا جنوداً من الملائكة تحيط به لتدفع عنه الأذى أو تُعينهُ على دعوته قال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[3].

فصدقه أصحاب النفوس الضعيفة وأطاعوا قوله وأصبحوا عوناً له لحالة الفسوق التي جمعتهم، قال تعالى في فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[4] لكنَّ الله تعالى انتقم منهم حين ابتعدوا عن دعوة الحق ليكونوا مع الباطل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾[5].

أما موسى عليه السلام فيذكر القرآن الكريم أنه خاطب الذين آمنوا به ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[6] أجابوه بكل

(١) سورة الزّخرُف: ٥١.
(٢) سورة الزّخرُف: ٥٢.
(٣) سورة الزّخرُف: ٥٣.
(٤) سورة الزخرف: ٥٤.
(٥) سورة الزخرف: ٥٥ ـ ٥٦.
(٦) سورة يُونس: ٨٤.

ثقة وإيمان: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾[1]

استجاب الله تعالى لمن آمن بموسى ونأى عن ملك فرعون وإغراءاته المادية، حتى زوجته تخلت عنه وعن ملكه وذهبه وفضته وفضّلت أن يكون لها بيت في الجنة لإيمانها الراسخ بخلود الآخرة وفناء بيوت الدنيا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾[2]

---

(١) سورة يُونس: ٨٥-٨٦.

(٢) سورة التحريم: ١١

الفصل السابع

الموسويون واليهود والصهاينة

١ ـ الموسويون: أصلهم ونسبهم

٢ ـ جذور كلمة يهودي

٣ ـ موسى (ع) والديانة اليهودية

٤ ـ كتاب موسى (ع)

٥ ـ موسى (ع) واليهود

٦ ـ التهوّد في التاريخ

٧ ـ القرآن الكريم يذم الذين هادوا

٨ ـ مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل

٩ ـ اليهود وفلسطين

١٠ ـ الموسوي واليهودي والصهيوني

١١ ـ اليهود ووعد بلفور





الموسويون واليهود والصهاينة

الجدل القائم بين المؤرخين وعلماء الآثار والمعنيين بالموضوع هو: من هم الموسويون ومن هم اليهود؟ وما العلاقة بين الاثنين وهل الموسوي هو اليهودي؟ أم هناك فرق بين هذا وذاك كما يعتقد البعض.

فالموسوي مَنْ يرجع نسباً إلى النبي موسى عليه السلام أو من قوم موسى وصحابته في زمن خروج موسى هارباً من الفرعون.

واليهودي من دان بالدين اليهودي، في أيِّ زمن كان ومن أي قومية ومن أي نسب.

هناك مَنْ لا يفرق بين اليهودي والموسوي، ويرجع الاثنين إلى أصلٍ واحد هو الانتماء إلى دين موسى عليه السلام بغض النظر عن انتمائه العرقي، فالانتماء العرقي يعود إلى إسرائيل (النبي يعقوب عليه السلام).

هذا ما يمكن معرفته من خلال البحث عن هوية اليهودي وهوية الموسوي وما هي علاقتهم بفلسطين ومن هو الشعب المختار هذا أم ذاك! والأسطورة التي تشبثوا بها عبر التاريخ لمآرب ارتأت لهم نفوسهم الوصول إلى الغاية التي رسمها لهم كتبة التوراة.

ثم ما علاقتهما بالصهيوني، وهل الصهيونية لها تاريخ أم ولدت مؤخراً، وهل هو مصطلح قومي أم ديني أم ماذا؟ وكيف ولد وأين ترعرع ومَنْ غذّاه وما أصله، وفصله؟!

مصطلحات استعملت كثيراً ـ يهودي، موسوي، صهيوني ـ وأُلفت فيها الكتب العديدة، وطرحت على مسرح الحياة وفُعّلت.

الموسويون: أصلهم ونسبهم:

الاختلاف والجدل الذي أثاره فرويد حول انتماء النبي موسى ﷺ لمصر وعدم علاقته ببني إسرائيل جعل الكثير من المؤرخين والباحثين يشككون فيه وفي قوميته يقول د. أحمد سوسة: «ظهر النبي موسى ﷺ في حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أي بعد زمن إبراهيم الخليل بسبعمائة عام، وهو على رأي الباحثين مصريٌّ قح تربى في البلاط الفرعوني وكان قائداً مصرياً وقد تولى قيادة الحملة المصرية على الحبشة التي سجل فيها ظفراً كبيراً فتزوج هناك من (تربيس) بنت ملك الحبشة، كما كان النبي موسى على دين التوحيد الذي اعتنقه إخناتون فرعون مصر (١٣٧٩ ـ ١٣٦٢ق.م) القائم على عبادة الإله الواحد..»[١].

الظاهر أن ما أورده د.سوسة من رأي الباحثين لا يوافق قول الله تعالى في القرآن الكريم أن فرعون مصر كان يقتل بني إسرائيل ويذبح أبناءهم الذكور حتى أن أم موسى وهي من بني إسرائيل خافت على وليدها من القتل فأوحى لها الله تعالى أن تلقيه في اليم فيلتقطه عدوٌّ لله ولموسى الذي ينتمي إلى بني إسرائيل، ولو لم يكن موسى ﷺ من بني إسرائيل وكان مصرياً قُحاً كما ذكر أحمد سوسة من رأي الباحثين! فلماذا خافت عليه أمه من الذبح، ومن المعلوم أن فرعون مصر لا يقتل المصريين، وقد جاء في الفصل السابق من هذا الكتاب قصة موسى ﷺ والفرعون في الذكر الحكيم حيث ذُكرت قصة موسى ﷺ في القرآن الكريم جملة وتفصيلاً.

ومن يستقرىء: القرآن الكريم عن موسى الكليم ﷺ لا يختلف ولا

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، أحمد سوسة، المقدمة ط ط.

يشك في نسب موسى ﷺ وتفاصيل حياته وهروبه الى مدين والخدمة هناك عشر سنين وزواجه في مدين المذكورة في سورة القصص.

يبقى الحديث عن الموسويين من هم، فهل هم أصحابه أم أسرته أم قومه الذين آمنوا بدينه ودين آبائه أم الذين انحدروا منه كتسمية أبناء النبي يعقوب (إسرائيل) وأحفاده باسمه (إسرائيل) فكانوا (بني إسرائيل).

لعل التسمية (الموسويون) جاءت من الانتساب إليه ديناً أو نسباً أو الاثنين معاً، فمن أثبت موسى ﷺ مصرياً فالمنتسبون إليه نسباً مصريون، ومن تبعه لدينه فهم خليط من أقوام شتى، ومن أكد أن موسى ﷺ من بني إسرائيل، وهذا قول القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالمنتسبون لموسى ﷺ نسباً هم من بني إسرائيل والمنتسبون ديناً فهم خليط من أقوام شتى، يقول د. أحمد سوسة: «والموسويون كما تدل الأحداث على أرجح الاحتمالات معظمهم من بقايا الهكسوس، كانوا يدينون هم والنبي موسى ﷺ بدين التوحيد الذي ورثوه عن إخناتون فرعون مصر»[١].

وقال أيضاً عن موسى ﷺ وقومه: «وأن حملته على أرض كنعان (فلسطين) التي أطلق عليها كتبة التوراة (خروج بني إسرائيل) هي حملة مصرية مؤلفة من جماعة من الجنود المصريين ومعهم فلول من بقايا الهكسوس الذين كانوا يدينون بدين التوحيد، وقد ورثوه عن إخناتون، وقد جاءوا بقيادة النبي موسى ليحتلوا بقعة من الارض المعمورة في كنعان يأوون إليها، وهؤلاء هم (قوم موسى) جاءوا إلى أرض كنعان وهم غرباء عنها يتكلمون اللغة المصرية الفرعونية ولم تكن لهم أية صلة ببني إسرائيل الذين كانوا قد جاءوا إلى مصر في عهد يوسف قبل عصر

(١) المصدر السابق المقدمة ق.

موسى بحوالى ستمائة عام والذين انصهروا واندمجوا بشعب مصر وببيئة مصر نهائياً»[1].

لا يمكن أن يكون الموسويون مصريين كلهم، بل يمكن أن يكون قسمٌ منهم مصريين، فموسى عليه السلام دعا للتوحيد في مصر فآمن به من آمن وتبع فكره وخطاه، ومن المحتمل أنه أُطلق عليهم (موسويون) كما في زماننا هذا حينما يتبع الشعب قائداً أو مفكراً أو يتبنى فكر مَن سبقه أو عاصره، والأمثال كثيرة في عصرنا هذا فمن تبع عبد الناصر وحذا حذوه سُمي ناصرياً، ومن تبع الخميني سُمي خمينياً وهكذا فمن تبع موسى عليه السلام في مصر سُمي (موسوياً) فالتسمية مختصة بذلك الوقت بالذات.

أما أن موسى عليه السلام قاد حملة مصرية مؤلفة من جماعة من الجنود المصريين ومعهم فلول من بقايا الهكسوس الذين كانوا يدينون بدين التوحيد، فلم يحدثنا القرآن الكريم عن غزو موسى مع جنودٍ مصريين لا قبل الخروج ولا بعده، والذي جاء في القرآن الكريم أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يسري بعباده الذين آمنوا بموسى، هرباً من فرعون وبطشه: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾[3].

وقال تعالى عن كيد فرعون: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾[4].

هؤلاء هم القوم الذين خرجوا مع موسى عليه السلام هم الذين آمنوا به واتبعوه فارّين من كيد فرعون وبطشه بهم من استحياء نسائهم وذبح

(١) المصدر نفسه، المقدمة ط ط.
(٢) سورة الشعراء: ٥٢.
(٣) سورة يونس: ٩٠.
(٤) سورة الإسراء: ١٠٣-١٠٤.

أبنائهم وما إلى ذلك، لكن الله أنجاهم أجمعين: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾[١].

أما أن لا يكونوا على صلة ببني إسرائيل الذين كانوا قد جاءوا إلى مصر في عهد يوسف فهذا متفقٌ عليه لأن عصر يوسف عليه السلام سبق عصر موسى بـ(ستمائة عام) فلعصر يوسف عليه السلام مميزاته الخاصة ولعصر موسى مميزات أخرى، فأبناء إسرائيل (يعقوب) النبي عليه السلام أسسوا جالية من الأقليات في مصر وانصهروا بشعب مصر عن طريق المصاهرة والعمل وغير ذلك، لكنهم كانوا مميزين حتماً، فكيف يميز فرعون مصر ذكورهم عن ذكور المصريين ونساءهم عن نساء المصريين ورجالهم عن رجال المصريين، فيذبح ذكورهم ويستحيي نساءهم كما ذكر القرآن الكريم: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[٢] ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾[٣].

إذن هناك تمييز بين آل فرعون وبني إسرائيل في ذلك الوقت، وبنو إسرائيل المميزون في ذلك الوقت اقترن اسمهم بالنبي موسى عليه السلام لأنه طلبهم بقوله لفرعون: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾[٤] وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾[٥].

فالذين اقترن اسمهم بموسى عليه السلام وسموا فيما بعد بالموسويين هم بنو إسرائيل الذين كانوا مستضعفين، وعمالاً وعبيداً، ومتضررين في مصر

---

(١) سورة الشُّعَرَاء: ٦٥.
(٢) سورة البقرة: ٤٧.
(٣) سورة البقرة: ٤٩.
(٤) سورة الشُّعَرَاء: ١٧.
(٥) سورة الأعرَاف: ١٠٤-١٠٥.

وشريحة أخرى من آل فرعون ومن القبط المصريين والذين آمنوا بما أتى به النبي موسى عليه السلام لهدايتهم..

وتعقيباً على قول فرويد، ومن تبنى فكرة هوية موسى عليه السلام المصرية أنه مصري قُح، لا يختلف اثنان أن موسى عليه السلام مصري المولد والتربية والتنشئة حتى أنه تربى في بيت فرعون مصر إلى أن بلغ أشده، فأعطاه الله تعالى الحكمة والكتاب وأعدّه للنبوة بعد أن كان مصدر ثقة الناس في صدقه وسلوكه وعدله وحميته، وبعد أن توافرت الأسباب لخروجه من مصر فاراً خائفاً من القتل، بقي في مهجره (مدين) عشر سنوات حنَّ إلى أهله وعشيرته ووطنه، فعاد إلى الوطن بعد أن بُعث نبياً وجاء برسالته إلى فرعون وآله عامة وإلى بني إسرائيل خاصة، ثم خرج بقومه فاراً من بطش فرعون بهم، وكانت وفاته في زمن تيه بني إسرائيل في صحراء سيناء، فلن يعرف وطناً له غير مصر، فهو مصري الهوية: لكنه يبقى من نسل أولاد إسرائيل (يعقوب) النبي عليه السلام ولا ينكره عاقل.

موسى (ع) والديانة اليهودية:

جاء موسى عليه السلام بشريعة السماء ليهتدي بها من يهتدي ويضل من يضل كمن سبقه من الأنبياء ولحقه بعد ذلك، وقد بعثه الله تعالى نبياً مبشراً ونذيراً وأنزل عليه الصحف لتكون دستوراً لحياة من آمن بالله واتبع كليمه موسى عليه السلام، لكن السؤال يكمن في التسمية التي حملها هذا الدين فهل كانت من الله أم من موسى عليه السلام أم من قومه، أم جاءت متأخرة؟ وهل الديانة اليهودية وتعاليمها جاءت على يد الكليم موسى عليه السلام، أم ابتدعت بعده ونسبت إليه؟

الظاهر أن التسمية جاءت متأخرة ولا علاقة لها بالنبي موسى عليه السلام لأن الدين عند الله الإسلام لا يفرق الله تعالى بين النبيين، هذا يهودي وهذا نصراني وهذا غير ذلك: يقول القرآن الكريم: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ

إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾[١].

أما كلمة يهود فترجع إلى يهوذا: «اليهود لم يظهروا إلى عالم الوجود إلّا بعد عصر النبي موسى وأن كلمة (يهود) مشتقة من مملكة يهوذا التي ترجع إلى عهد الانقسام»[٢].

وتتحدث التوراة عن عهد الانقسام: «تُحدثنا التوراة عن الخلافات التي ظهرت بين الموسويين بعد موت سليمان سنة (٩٣١ق.م). تمخض عنها قيام دولتين هزيلتين، الأولى في الشمال باسم مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة(سبسطية) والأخرى في الجنوب باسم مملكة يهوذا عاصمتها أورشليم»[٣].

«وبعد أن انحرف اليهود عن ديانة موسى بعد عهد موسى عبدوا الأوثان، ثم ابتدعوا الإله (يهوه) عندما دوّن الكتبة التوراة، وهو إلههم الخاص بهم، الإله الذي لا يهمّه في العالم والخلق غير اليهود (شعبه المختار) على غرار مبدأ التفريد الذي اعتنقته الأقوام القديمة حيث كانت القبيلة أو المدينة تعبد إلهاً واحداً من بين مجموعة الآلهة من غير أن تنبذ عبادة الآلهة الأخرى.

والأرجح أن اليهود أخذوا بهذا المبدأ من البابليين عندما دوّنوا توراتهم في الأسر في بابل»[٤].

فكلمة يهود ويهودي ترجع لكل من تبع يهوذا فصار يهودياً وهي مرحلة متأخرة عن النبي موسى عليه السلام ودعوته، والديانة اليهودية لا علاقة لها بدعوة موسى سوى بعض التعاليم والأحداث التي حفظها الكهان وغيرهم من أتباع

---

(١) سورة البَقَـرَة: ١٣٦.

(٢) العرب واليهود في التاريخ، المقدمة وو.

(٣) المصدر السابق، ٣٠٢.

(٤) المصدر السابق، المقدمة.

النبي موسى عليه السلام وتناولت جيلاً من بعد جيل حتى الأسر البابلي لتدخل الديانة الموسوية مرحلة جديدة وهي مرحلة كتابة التوراة والتعاليم المحرفة لشريعة موسى عليه السلام....

والحقيقة أن شريعة موسى الأصلية لا يعرف شيء عنها، إذ لم يُعثر على أي أثر لها، لذلك فغير معلوم بأية لغة كتبت، ولكن القرائن كلها تدل على أنها كتبت باللغة المصرية وبالهيروغليفية وهي لغة موسى وأتباعه. أما التوراة المتداولة في الوقت الحاضر فقد كتبها الكهنة والأحبار اليهود في فترة الأسر في بابل (٥٨٦ ـ ٥٣٩ق.م)، أي بعد عصر النبي موسى بحوالى ثمانمائة عام وبعد أن انحرف الموسويون عن دين موسى وعبدوا الأصنام ثلاثمائة قرن في فلسطين قبل سبيهم. وهؤلاء هم بقايا مملكة يهوذا المنقرضة وقد عاصروها في أواخر أيامها[١]...

فعندما يتحدث القرآن الكريم عن كتاب موسى عليه السلام الذي جعله هدى لبني إسرائيل، فهل يقصد به التوراة المتداول بينهم اليوم، فالقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾[٢] ويقول تعالى أيضاً: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[٣].

جذور كلمة يهودي:

الظاهر أن كلمة (يهودي) أطلقت على كل من عبد الإله (يهوه) فصار يهودياً، وقد استخدمت متأخرة عن النبي موسى عليه السلام بل بعد قيام مملكة (يهوذا) بعد الانفصام الذي جرى في مملكة العبرانيين إثر وفاة النبي (سليمان عليه السلام) حوالى (٩٥٣ ق.م) فصارت لإسرائيل مملكة وليهوذا مملكة.

أما أصل يهوذا فيرجع إلى أنه رابع أبناء يعقوب، أمه ليئة، أعطى اسمه

(١) المصدر نفسه، المقدمة ـ ل ل ـ.
(٢) سورة السَّجدَة: ٢٣.
(٣) سورة المَائدة: ٤٤.

لأحد أسباط إسرائيل. قرّر إخوته قتل أخيهم الصغير يوسف ولكن يهوذا لم يوافق على قرارهم ونصحهم بأن يبيعوه إلى تجّار إسماعيليين إلى مصر. حين هاجر يعقوب وأبناؤه إلى مصر رحل يهوذا معهم ومات فيها[1] ويهوذا السبط الذي أعطي اسمه فهو: «أكثر قبائل بني إسرائيل عدداً. وقد أقام في القسم الجنوبي الغربي من فلسطين وكانت منطقته خلال أجيال طويلة مركز الحياة الروحية والسياسية للأمة اليهودية وتحتوي على العديد من المدن المهمة أمثال أورشليم وعزيقة وبيت صور ولخيش وحبرون. واثر الانشقاق الحاصل بعد قيام المملكة اليهودية الإسرائيلية الأولى انضم سبط يهوذا إلى سبط بنيامين وشكّلا معاً مملكة يهوذا في المرحلة الهلّنستّية، شكّلت منطقة يهوذا نواة لمملكة الأشمونيين ومعقِلاً أخيراً للقومية اليهودية»[2].

واليهود لا يشكلون عِرقاً بالمعنى الاناسي للمملكة، بل هم إثنّية، أي جماعة تربط فيما بينها عوامل ثقافية وتاريخية[3].

وأمّا (يهوه) فهو: «إله العبرانيين. يقول كتاب العهد القديم إن اسمه أُنزل على موسى إذ كان يرعى غنم حمّيهُ الكاهن يرثون، جاء في سفر الخروج الإصحاح الثالث، أن ملاك الرب ظهر لموسى بلهيب نار من وسط عليقة فكانت هذه تتوقد بالنار دون أن تحترق. وتقدّم موسى ليتبيَّن هذه الظاهرة عن قرب، فخاطبه الرب وطلب منه إخراج الشعب العبراني من مصر. ولما سأل موسى الرب عن اسمه أجابه: (أهيه الذي أهيه)، أي أكون الذي أكون. وأعلمه أنه يهوه إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب»[4].

هذا ما زعم به اليهود في توراتهم المكتوب بأيديهم، أما القرآن الكريم فحينما يتحدث عن تجلّي الرب لموسى ﷺ في الوادي المقدس طوى يقول:

---

(١) معجم الحضارات السامية، ص٩٢٩.
(٢) انظر معجم الحضارات السامية، ص٩٢٩.
(٣) المصدر السابق، ص٩٢٣.
(٤) المصدر السابق، ص٩٢٩.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۞ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۞﴾[1].

(فيهوه) الذي ابتدعه اليهود لا أصل له في كلام الله تعالى فالذي كلّم موسى عليه السلام هو الله الذي لا إله إلا هو، أما (يهوه) فهو: «إله قمري كان يعبده المديانيون في جنوب صحراء سيناء. كان مقامه في خيمة، وتُقدَّم له القرابين من الماشية»[2].

ولعل هناك آراءً أخرى في أصل الإله يهوه: «وثمة رأي يقول إن اسم يهوه محرّف عن اسم (يهوب) الإله البركاني»[3] للمديانيين.

بعد السبي البابلي وبعد كتابة التوراة تأصّل الإله (يهوه) في نفوس من سمّوه أنفسهم (باليهود) نسبة إلى إلههم..

أما تسمية اليهودي في الوقت الحاضر، فيقول د.عبد الوهاب المسيري: «فعُرّف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية أو تهوّد. وهذا التعريف هو الذي ساد منذ ظهور اليهودية الحاخامية مع بدايات العصور الوسطى في الغرب حتى بداية القرن التاسع عشر، وبالتالي فهو التعريف الذي يُعَدُّ الإطار المرجعي لكثير من الكتابات والإشكالات التي تُثار حول الهوية اليهودية»[4].

ثم يضيف: «وهو تعريف ديني اثني مُغلق يشبه إلى حدٍّ ما تعريف نحميا وعزرا ولكنه متحرر من الارتباط بالهيكل»[5].

إذن فتسمية (يهود) و(يهودي) و(يهودية) كلها أسماء وضعية اصطبغت

---

(١) سورة طه: ١١ ـ ١٤.
(٢) معجم الحضارات السامية، ص٩٢٩.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) من هو اليهودي، د.المسيري، ص١٣.
(٥) المصدر السابق.

بها فئة بل فئات من البشر عبر عدة أزمنة وأمكنة لا يربط بينها رابط في كثير من الأحيان والهويات اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً في غاية التعقيد، لا يمتُّ بصلة إلى ما جاء به موسى ﷺ إلّا بعض المصطلحات التي تخدم مصالحهم ليس إلّا.

أما مخاطبة القرآن الكريم لهم بهذه التسمية، مثلاً كقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾[1] أو قوله تعالى ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾[2] أو قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[3] أو غير ذلك من الآيات الكثيرة التي خاطبت هذه الفئة من الناس بهذا الاسم (اليهود) فلأنهم عرفوا بهذه التسمية والقرآن الكريم خاطبهم بما عُرفوا به وليس اسم اليهودية اسم دين سماوي إلّا أن التسمية اقترنت بهم ولا مجال للفصل.

واليهود اليوم أقوام مختلفة منهم (الصهاينة) ومنهم أقليات في دول شتى، يقول د.عبد الوهاب المسيري: «... وإنما بالعودة إلى التشكيلات الحضارية والتاريخية المختلفة التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية والتي تفاعلوا معها وأثروا فيها وتأثروا بها، وإن كانت درجة تأثيرهم تفوق درجة تأثرهم كما هو الحال عادةً مع أعضاء الأقليات. فهناك هوية بابلية يهودية وأخرى فارسية يهودية، وثالثه أميركية يهودية، ورابعة عربية يهودية..»[4].

«والفكر الصهيوني يصدر عن نموذج اختزالي ينكر واقع الجماعات اليهودية الحضاري الفسيفسائي الجيولوجي التراكمي، ويطرح فكرة الهوية اليهودية العالمية الواحدة، وتتم عملية تسمية الواقع وتصنيفه من هذا المنظور. ومن ثم، فإن هناك مصطلحات مثل (يهود الدياسبورا) و(يهود

---

(١) سورة المَائدة: ٨٢.

(٢) سورة آل عِمرَان: ٦٧.

(٣) سورة البَقَـرَة: ١١٣.

(٤) من هو اليهودي، مصدر سابق، ص١٦ـ ١٧.

المنفى) و(الشعب اليهودي، وهي جميعاً مصطلحات تفترض وحدة اليهود وتجانسهم. ولكن حين يصل أصحاب هذه الهويات إلى إسرائيل، يتضح للجميع أنهم ليسوا مجرد يهود»[1].

يقول ليلينشال: «إن العبرانيين، والإسرائيليين، واليهود والشعب اليهودي كل هذه مسميات استخدمها صانعو الأساطير للإيحاء بوجود استمرار تاريخي. لقد كانوا في الحقيقة شعوباً مختلفة في فترات مختلفة من التاريخ»[2].

أما الكاتب أحمد عثمان فيقول: «إن غالبية يهود إسرائيل من سلالة خزر والقوقاز، ولا تنتمي سلالياً إلى يعقوب ولا الجنس السامي ولا أهل المنطقة»[3].

ومن يستقرىء تاريخ اليهود ينكشف له اللثام فكلمة (يهودي) لا تمت بصلة إلى الانتساب إلى النبي إبراهيم عليه السلام ولا إلى يعقوب عليه السلام ولا إلى أحد أسباطه الاثني عشر ولا إلى موسى عليه السلام أو أي من أنبياء الله تعالى سوى الانتماء إلى إلههم الخاص بهم (يهوه) أو (يهوذا) الذي ظهر بعد موسى عليه السلام بثلاثمائة عام تقريباً مستوطناً (أورشليم).

والقرآن الكريم يؤكد ان أنبياء الله تعالى لم يكن أحد منهم يهودياً ولا نصرانياً، كلهم مسلمون لله تعالى، وشريعة السماء واحدة لا يفرق الله بين أنبيائه. . قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾[4].

وهناك آيات تؤكد عدم يهودية أيٍّ من الأنبياء وخاصة النبي إبراهيم عليه السلام

(١) راجع كتاب من هو اليهودي، ص١٧.
(٢) انظر، التوسع في الاستراتيجية الإسرائيلية، ص١٨.
(٣) تاريخ اليهود، أحمد عثمان، ج٣، ص١٧١.
(٤) سورة البَقَرَة: ١٣٦.

الذي ادعت اليهود الانتساب إليه، فالقرآن الكريم يصرح بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾[1].

وهذا يؤكد أن لا أصل ولا جذور لهذه الكلمة (يهود) في تاريخ الأنبياء والرسل، فتأكيدهم بالانتماء إلى إبراهيم عليه السلام أو إسحاق ويعقوب أو أي من الأسباط الاثني عشر أو النبي موسى عليه السلام لا أساس له من الصحة، فالقرآن الكريم خاطبهم قائلاً: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾[2].

كتاب موسى (ع):

المعروف بين اليهود وغيرهم أن كتاب النبي موسى عليه السلام هو التوراة المتداول بينهم أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام بعد بعثته رسولاً نبياً لبني إسرائيل، فيه كل تعاليم دينهم التي يجب تطبيقها والأخذ بها لأنها من السماء، بيد أنهم غفلوا أن السماء لا تأمر بالنهب والقتل وظلم الآخرين وغصب الحرمات و. . . و. . . الخ.

لكن أغرب ما ورد في هذه التوراة التي حاكها الكهنة في الأسر البابلي أن تعاليمها الخاصة بالحرب مع أهل فلسطين توصي بل تأمر بقتل الأطفال والنساء والشيوخ والبهائم، كما توصي بإحراق المدن وإبادة أهلها وعدم استبقاء نسمة ما منهم، وقد جاء في القرآن الكريم تحذير لبني إسرائيل من مغبة هذه الأعمال المنكرة التي أدخلوها في كتبهم وقالوا هذا من عند الله، فنزلت الآية الشريفة: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3] وفي القرآن الكريم آيات أخرى تأمر بالمودة، وتجنب المعاداة، والبر بمن لا يقاتل، تقييماً للنفس حتى بالنسبة

---

(١) سورة آل عِمرَان: ٦٧.

(٢) سورة البَقـرَة: ١٤٠.

(٣) سورة المائدة: ٣٢. .

للأعداء. فقد جاء في سورة الممتحنة: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾[1] وبمثل ذلك يأمر الإنجيل الأمة المسيحية فيقول: زيدوا على إيمانكم الفضيلة، وعلى التقوى المودة الأخوية، وعلى المودة الأخوية المحبة[2].

ولو استقرأنا التوراة المتداول اليوم لوجدنا فيه الغث والسمين من التعاليم التي تبرأ منها السماء، وهي خيانة النبي موسى ﷺ وخيانة أخيه هارون فهم يزعمون أنهم ـ اليهود ـ أبناء الله وكأن لله زوجة أنجبتهم، ثم التجسيم وأنهم شعب الله المختار وأن الأرض خُلقت لهم لا لغيرهم وأن الحياة لهم والموت لغيرهم وكل ما في الكون مسخرّ لليهود دون غيرهم، وكل الدماء مهدورة إلّا دماء اليهود فهي مقدسة، وهكذا مزاعم لا حدود لها.

هذه هي التوراة المتداولة بين يهود العالم منذ السبي البابلي وإلى اليوم، أي بعد وفاة موسى ﷺ بثمانمئة سنة..

أما كتاب التوراة الذي يتحدث عنه القرآن الكريم فهو ذلك الهدى والنور، هو الكتاب الذي أُنزل على موسى ﷺ والذي أضاعه اليهود وأضاعوا تعاليمه واختلفوا فيه فذمهم القرآن الكريم على ذلك بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾[3].

وقيل: إن شريعة موسى ﷺ حُفظت في تابوت العهد أو تابوت الشهادة وهو عبارة عن: «صندوق من خشب حفظ فيه موسى ألواح الشريعة التي أُنزلت عليه في جبل سيناء. يرمز تابوت العهد إلى وجود يهوه بين شعبه. وقد صُنع بناء على طلب موسى في سيناء(القرن الثالث عشر ق.م). ورافق

---

(١) سورة الممتحنة: ٧ ـ ٨.

(٢) العرب واليهود في التاريخ، المقدمة ـ ع ع..

(٣) سورة هُود: ١١٠.

العبرانيين في مسيرة وعبور الأردن، واحتلال أريحا، والانتشار في بلاد كنعان. وقد حُفظ أيام القضاة في معبد شيلو.

استولى عليه الفلسطينيون إثر انتصارهم في معركة أفيق، ووضعوه في (قرية يعاريم). وقام داود بنقله في موكب رسمي إلى أورشليم حيث بنى له سليمان هيكلاً. وحفظه في قدس الأقداس.

زال تابوت العهد أثناء حريق الهيكل (عام٥٨٧ أو ٥٨٦ق.م) على يد نبوخذ نصّر.

وشكلُ هذا التابوت غير معروف بصورة دقيقة. فهو عبارة عن صندوق أو عرش أو مذبح مصنوع من الخشب المصّفح بالذهب وكان في أعلاه ملكان مجنحان. وعلى جانبيه حلقات يمكن إدخال قضيبين فيها عند حمله»[1].

على كل حال ذُكر كتاب موسى عليه السلام في آيات عديدة من القرآن الكريم: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[2] و﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[3] ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[4].

فهل في التوراة الموجودة والمتداولة، الصفات المذكورة في القرآن الكريم من الإمامة والرحمة والتفصيل لكل شيء والنور والهدى وما إلى ذلك ككل كتاب سماوي غير محرف؟ كلا ثم كلا، الحقيقة أن التوراة المتداول هو الكتاب الذي كتبته أيدي اليهود في الأسر بعد السبي البابلي، وليس فيه الهدى ولا الرحمة، بدليل حثه على القتل والإرهاب والاستعمار والاستكبار واحتلال الشعوب واستباحة الدماء إلّا دم اليهودي..

---

(١) معجم الحضارات السامية، ٢٦٣-٢٦٤.
(٢) سورة الأحقاف: ١٢.
(٣) سورة الأنعام: ١٥٤.
(٤) سورة الأنعام: ٩١.

أما بالنسبة إلى لغة كتاب موسى عليه السلام واللغة التي كتب بها التوراة فيقول د.أحمد سوسة: «ومن الثابت أن هؤلاء الموسويين أخذوا بالآرامية بعد انتشارها في الشرق فصاروا يتكلمون بها فيما بينهم، وفي غضون ذلك تكوّنت لدى كهنتهم اللهجة الآرامية الخاصة بهم، وهي التي صارت تعرف فيما بعد بالعبرية، وأخذوا يكتبون بها فاستعملوا حروفاً فينيقية قديمة في بداية الأمر ثم أخذوا يكتبون بالخط السامري.

وبعد السبي البابلي وضع الكهنة في الأسر في بابل توراتهم بهذه اللهجة وهي مقتبسة من اللغة الآرامية لذلك صارت تُعرف بآرامية التوراة وقد استعملوا الخط المسمى بالخط المربع الذي اقتبسوه من أقدم الأقلام الآرامية بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد فحفظوه إلى يومنا هذا ويسمى الآن بالخط الآشوري المربع. وهذه بالطبع غير لغة موسى عليه السلام المصرية التي نزلت فيها توراة موسى الأصلية، كما أن مضمون هذه التوراة غير مضمون توراة موسى»[1].

ثم يضيف قائلاً: «فهذه التوراة التي يصح تسميتها بتوراة الكهنة التي وضعوها في الأسر في بابل فأضفوا عليها صبغة قدسية وفرضوها على أتباعهم بعد رجوع بعضهم إلى فلسطين على عهد عزرا كاتب شريعة إله السماء كما تلقّبه التوراة»[2].

موسى (ع) واليهود:

ثمة سؤال يطرح نفسه، ما علاقة النبي موسى عليه السلام باليهود وما علاقتهم به، وهل هو الذي هودهم أم تهودوا بعده، وهل لليهود وجود قبل وجوده، ولماذا قرنوا أنفسهم به؟

ولعل الجواب يظهر مما تقدم في موضوع جذور كلمة (يهودي)، فبعد

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص٣٢١.
(٢) المصدر نفسه.

وفاة موسى عليه السلام بثلاثمئة عام ظهر (يهوذا) على مسرح الحياة في فلسطين وكان من نسل (يهوذا) أحد أسباط النبي يعقوب عليه السلام كما يدّعون، فانتسبوا إليه وتبعوه، وظهر فريقٌ آخر نسبوا أنفسهم إلى بقية أسباط النبي يعقوب عليه السلام وشكلوا مملكة إسرائيل وقد قُوّضت هذه المملكة عام (٥٨٦ق.م)، أما من تبع يهوذا فسمي يهودياً وعاش في كنف المملكة اليهودية التي سُميت وقتها (مملكة يهوذا) وكان إلههم (يهوه) وقد سبق ذكره.

فموسى عليه السلام النبي الكليم وُلد في مصر وعاش فيها وحياته معروفة، وقد ذُكرت في القرآن الكريم والتوراة جملةً وتفصيلاً، وقومه عُرفوا ببني إسرائيل، وحين يذكر القرآن الكريم (اليهود) زمن موسى عليه السلام يذكرهم بمصطلح (بني إسرائيل) في غالب الأوقات.

أما حين يذكرهم في عصر النبي محمد ﷺ فيصطلح عليهم بمصطلح (يهود) أو (يا أهل الكتاب) في غالب الأحيان. أما في الوقت الحالي فقد ساد اصطلاح الإسرائيليين على كل مسمياتهم.

والظاهر أن مصطلح يهود اختلف من وقت لآخر، فمرة تخصص بمن تبع يهوذا في زمن (مملكة يهوذا)، ومرة أخرى توسع المصطلح ليشمل الآيدولوجية الإسرائيلية على عمومها..

وجاءت الآيات القرآنية زمن رسول الله محمد ﷺ لتوبخهم، فخاطبهم بالاسم الذي عُرفوا به (اليهود)، ومن هذه الآيات: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾[1] وكذلك الآية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾[2] وكذلك: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[3] وغيرها من الآيات ولعلها (تسع آيات) فقط. التي خاطبتهم بهذا الاسم، وثمة آيات أخرى خاطبتهم (يا أهل الكتاب)، وثالثة بكلمة (الذين هادوا).

(١) سورة المائدة: ٨٢.

(٢) سورة المائدة: ٦٤.

(٣) سورة البقرة: ١٢٠.

أما الفترة التي تحدث عنها القرآن الكريم بسرد قصة موسى عليه السلام وأتباعه فكان يخاطبهم فيها (يا بني إسرائيل) لأنهم عُرفوا في تلك الفترة بهذا الاسم حيث لا يفرق بين من كان ينتمي بالنسب إلى أسباط يعقوب أو من تبع ملّة النبي موسى عليه السلام وآمنَ به من مصريين وغيرهم، فطغى الاسم على كل أتباع النبي موسى عليه السلام وأغلب كلام القرآن الكريم جاء بصيغة العموم.. كقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾[1].

والحقيقة أن الله تعالى فضّل أتباع النبي موسى عليه السلام في زمانه على العالمين في ذلك الزمان، لأن أغلب البشر كانوا مشركين إلّا من اتبع النبي موسى عليه السلام كان موحداً لله تعالى، فضلهم الله تعالى ونجاهم من فرعون وبطشه وفلق لهم البحر وأنزل عليهم المنَّ والسلوى و... الخ.

وهذا بحقيقته تفضيل على بقية الخلق، لكنهم منّوا على الله تعالى بإيمانهم وعتوا فلعنهم الله تعالى وباءوا بغضبٍ منه إلى يوم يبعثون.

فأين كان اليهود في ذلك الزمان وكيف كانت أوصافهم، وما هي صلتهم بالنبي الكليم عليه السلام الذي لم يدخل القدس لخذلان بني إسرائيل له وتخوفهم من أهلها فأتاههم الله أربعين سنة لا يعرفون طريقها لتحريمها عليهم.

وبعد وفاة النبي سليمان عليه السلام وانقسام العبرانيين إلى مملكتين مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل ظهر اسم اليهود على مسرح الحياة كما جاء في معجم الحضارات السامية، وقد سبق ذكره..

التهوّد في التاريخ:

لقد تبين مما سبق تاريخ اليهود واليهودية وأصولها وجذورها والسبب

---

(١) سورة البَقَرَة: ٤٧.

الذي أدى إلى ظهورها على مسرح الحياة، ويبقى التعرف على الهويات اليهودية في العالم منذ نشأتها إلى يومنا هذا، بعد ذلك يمكن التعرف على العلاقة والصلة بين الصهيونية العالمية واليهودية السياسية ذات الطابع التوسعي المصطبغ باليهودية الدينية أو العرقية المدّعاة بالنسب إلى إبراهيم الخليل ﷺ وإسحاق ويعقوب أو أحد أسباطه أو النبي موسى (عليهم السلام جميعاً).

ولعل الباحثين قد يتفقون على أن اليهود ليسوا عرقاً أو جنساً بل تركيب جيولوجي تراكمي أفرزته الأحداث والظروف والأهواء عبر تاريخهم المعروف.

يقول د. عبد الوهاب المسيري: «ويمكننا أن نقول إن الهويات اليهودية أيضاً تركيب جيولوجي تراكمي ولكنه لم يكن ملحوظاً بسبب انفصال أعضاء الجماعات اليهودية ووجودهم في أماكن متفرقة من العالم»[1].

ويقول أيضاً: «فيهود اليديشية نتاج مجتمعاتهم، وهكذا يهود اليمن ويهود فرنسا وهكذا. ومع ذلك، كان يشار إليهم جميعاً باسم (الشعب اليهودي)، مع افتراض وجود وحدة ما دون أن يختبر أحد مدى صدق هذه المقولة»[2].

ثم يعلق على هذه المقولة بقوله: «ولكنها حين وُضعت موضع الاختبار بعد تأسيس، الدولة الصهيونية، ظهرت الخاصية الجيولوجية التراكمية، وتفجرت قضية من هو اليهودي تعبيراً عن اكتشاف أن ما يسمى (الهوية اليهودية) ليست كلاً يتسم بقدر من التجانس وإنما هي في واقع الأمر تركيب جيولوجي تراكمي. وقد أظهرت مجتمعات كل من

---

(١) من هو اليهودي، المسيري، ص١٦.
(٢) المصدر نفسه.

أمريكا اللاتينية وجبال القوقاز هذه الخاصية الجيولوجية التراكمية في الهويات اليهودية بشكل واضح»[1].

وجاء في كتاب صهيونية الخزر وصراع الحضارات: «ومن نماذج التهوّد البارزة كان تهوّد (أنتي جونسون) الذي قبل اليهودية مجبراً، بهدف استرضاء اليهود والاحتفاظ بحكم أورشليم، والذي كان قد تسلمه بمساعدة الفرس(٤٣ ـ ٤٠ق.م) وبسقوط أنتي جونسون انتهت السيادة الاسمية لليهود على أورشليم وهي السيادة التي بدأت بعد مجيء اليهود من بابل بدعم وإشراف الملك ارتحششتا ملك الفرس، وكانت سيادة منقوصة تابعة لدول أخرى (الفرس، اليونان، الهلينيين)»[2].

ويقول توينبي: «إنه من سخرية القدر أن شعب الجليل الذي تهوّد بالقوة أنجب يسوع المسيح الذي عارضه زعماء اليهود في ذلك العصر مما أضاع على اليهودية مستقبلها»[3].

والتاريخ يحدثنا عن تهوّد فردي وتهوّد جماعي بعضه مفروض والبعض الآخر صنعه الجهل أو الظروف أو المصلحة.

واستمر التهود على هذا المنوال لا لعقيدة بل لمصلحة أو غير ذلك مما ذكرنا، وبعد المسيح ﷺ وفي القرن الرابع الميلادي دخلت اليهودية اليمن: «حيث الحياة الاقتصادية والتجارية رائجة في بلاد اليمن، فحاول اليهود بحكم الحس التجاري عندهم التغلغل في تلك البلاد، فعملوا للتقرب من الملك (تبع بن أسعد كرب) ملك الحميريين، وبعد أن أوضح له (حبران) من أحبار يثرب مدى الفوائد التي يمكن أن يحصل عليها من جرّاء تهوّده اعتنق (تبع) اليهودية، وأدخلها إلى اليمن في القرن الرابع

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) صهيونية الخزر وصراع الحضارات، وليد محمد علي، ص٤٩.

(٣) الفرق بين اليهودية والصهيونية، بحث، لندوة طرابلس، ص١٩٢. نقلاً عن كتاب صهيونية الخزر، مصدر سابق.

الميلادي بالقوة والإجبار، وكان جزاء كل من يعارض سياسة ذلك الملك ويرفض التهوّد، السجن والعذاب الشديد وصولاً إلى حرق الأحياء، وما قصة أصحاب الأخدود الواردة في القرآن الكريم إلّا نموذجه لذلك العذاب، وبفضل ذلك الملك الحميري انتشرت اليهودية في بلاد اليمن»[1].

وقد ذكر المسعودي والطبري وغيرهما من المؤرخين نماذج أخرى لا يسعنا ذكرها، ونكتفي بما ذكره المسعودي عن تهود ملك الخزر عام (٣٣٢هـ): «وقد كان تهوّد ملك الخزر في خلافة الرشيد، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا إليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم، وذلك أن ملك الروم في وقتنا هذا وهو سنة اثنان وثلاثون وثلاثمائة (هجرية) وهو آرمنوس نقل من ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم»[2].

«وجاء تهود الخَزر الذين يشكلون أكثر من ٩٠٪ من يهود اليوم لأسباب نفعية بحتة: الاستفادة من الاندماج في التجارة الدولية ـ للتخلص من الضرائب التي كانوا سيدفعونها للإمبراطورية البيزنطينية إذا أصبحوا مسيحيين ـ أو للخلافة الإسلامية لو أسلموا وأصبحوا جزءاً من دولة الإسلام وسيطروا بالفعل على التجارة الخارجية في أوربا وكذلك تحكموا في التجارة بين الغرب المسيحي وبلاد الخلافة الإسلامية»[3].

وعُرف اليهود عبر تاريخهم بأعمال الربا والصرافة منذ زمن النبي سليمان عليه السلام حتى ظهور الإسلام، والدليل على ذلك «أن سليمان قد اشترى الخشب من لبنان، ومن بنى له الهيكل هم الفنيون الفينيقيون. فلم يكن اليهود يعرفون شيئاً من المهن، إلّا الصرافة وأعمال الربا. وبسبب توسع تجارة اليهود وأعمالهم المصرفية، فقد لجأوا إلى تقديم الإغراءات

---

(١) صهيونية الخزر، مصدر سابق، ص٥٠.
(٢) المصدر السابق، ص٥١.
(٣) المصدر نفسه، ص١٨٥.

لكسب من يدخل في ديانتهم. وكان من هؤلاء أسعد بن كرب ملك حمير وقومه»[1].

أما في الجزيرة العربية، فإنّ اليهود بعد هجرتهم من القدس إليها لانتظار النبي المكتوب عندهم في التوراة، امتهنوا مهنة الربا والصرافة أيضاً، وعملوا بالذهب والفضة وعُرفوا بها، وبعد مجيء الإسلام وتحريمه الربا والمعاملة مع اليهود بها قلّ دخلهم وتفوق المسلمون عليهم وما كان بوسعهم إلّا أن يدخلوا الإسلام أو يهاجروا من مكة والمدينة إلى البلدان المجاورة.

القرآن الكريم يذمّ الذين هادوا:

وجاءت الآيات القرآنية تذمّ الذين (هادوا) أي الذين (تهودوا) إنهم يحرفون الكلام الحق، ومنها إنهم يسمعون للكذب ويدعون له، ومنها زعمهم أنهم أولياء الله وغيرها، قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ﴾[2] وقال تعالى: ﴿...وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾[3].

وقال تعالى أيضاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾[4].

وحرم الله تعالى عليهم المحللات لسوء سريرتهم وعملهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍۖ﴾[5] وقال تعالى أيضاً: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[6].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨٣.
(٢) سورة النساء: ٤٦.
(٣) سورة المائدة: ٤١.
(٤) سورة الجُمُعَة: ٦.
(٥) سورة الأنعام: ١٤٦.
(٦) سورة النِّساء: ١٦٠.

قيل هذا التحريم جاء على لسان النبي عيسى ﷺ بالذات، وقيل: بل على لسان أنبياء بني إسرائيل، وليس على لسان موسى ﷺ أو الأنبياء الذين جاءوا قبله كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف (عليهم السلام جميعاً)، حيث لم يكن لليهود وجود في ذلك الزمان ليصدر التحريم، بدليل الآية الكريمة التي تنفي اليهودية والنصرانية عن النبي إبراهيم ﷺ ثم الأنبياء من بعده وقد ذكرنا ذلك سابقاً..

والصفات التي ذكرتها الآيات الكريمة في الذين هادوا من تحريف للشريعة والحق، وممارستهم مبدأ العنصرية، والتكبر على بقية البشر وسماعهم الكذب وغيرها صارت قاعدة أساسية وطابعاً اصطبغ به اليهود، يقول د. جورجي كنعان:

«وقد أتيح لعزرا، كاتب الشريعة اليهودية، أن يجعل من مبدأ العنصرية، عقيدة دينية مقدسة. انصاع لها اليهود بوجدان ديني عميق. واستطاع أن يجعل من هذا المبدأ ـ العقيدة، قاعدة سياسية لحياتهم، منذ ظهورهم حتى اليوم»[1].

مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل:

عاش الموسويون في ظل إمبراطورية النبي سليمان ﷺ كبقية الأقوام تسيرهم قوة واحدة وقائد واحد وهو النبي سليمان ﷺ الذي سخّر له الله تعالى الإنس والجن والريح و... الخ وأعطاه ما لم يعط لأحد من أنبيائه استجابة لدعاء سليمان نفسه، وحكمةً من الله تعالى لا يعلمها إلّا هو، ودعاء سليمان ﷺ يذكره القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ﴾[2].

فكان كل شيء تحت تصرفه ﷺ، وما أن توفّاه الله

---

(١) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، ص٨٧.

(٢) سورة ص: ٣٥.

تعالى(سنة٩٣١ق.م) حتى ظهرت الخلافات بين الموسويين حول الملك والملوكية، وتمخض عن الصراع الموسوي مملكتان هزيلتان متأخرتان، إحداهما (مملكة إسرائيل) والثانية (مملكة يهوذا)، يقول: د. أحمد سوسة نقلاً عن التوراة:

«الأولى في الشمال باسم مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة (سبطية) والأخرى في الجنوب باسم مملكة يهوذا وعاصمتها (أورشليم). تولى الحكم في الأولى يربعام بن نباط، كما تولى الحكم في يهوذا رحبعام بن سليمان. وكانت الحرب سجالاً بين المملكتين منذ البداية واستمرت طيلة وجودهما مما أضعف كلتيهما هذا عدا الغزوات التي كانت المملكتان معرضتين لهما من الخارج. فأول من غزا مملكة يهوذا شيشنق الأول ملك مصر (٩٢٦ق.م) (وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ أتراس الذهب التي عملها سليمان) وفي زمن يهورام ملك يهوذا الرابع (٨٤٨ ـ ٨٤١ ق.م) انفصل بنو أدوم عن مملكة يهوذا وملّكوا على أنفسهم ملكاً، وفي زمنه أيضاً صعد الفلسطينيون والعرب الذين بجانب الكوشيين إلى يهوذا وافتتحوها فاستولوا على كل الأموال الموجودة في بيت الملك وسبوا أبناءه ونساءه أيضاً ولم يبق إلا أصغر بنيه. وفي زمن يوآش غزا الجيش الآرامي أورشليم وأهلك كل الرؤساء وأخذ جميع الخزائن وقدّمها لخزائيل ملك الآراميين. وفي عهد أمصيا ملك يهوذا (٧٩٦ ـ ٧٦٧ق.م) هجم يهواش ملك إسرائيل على أورشليم فهدم سورها وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك»[١].

وكانت النتيجة الطبيعية لكل من المملكتين الهزيلتين الاحتلال ثم الانهيار وقبل الانهيار الكامل لكلتا المملكتين ـ يهوذا وإسرائيل ـ احتُلتا

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص٣٠٢.

من قبل مملكة دمشق الآرامية ثم الإمبراطورية الآشورية يقول د. أحمد سوسة:

«وفي عهد ازدهار مملكة دمشق الآرامية أصبحت كلتا المملكتين إسرائيل ويهوذا، تحت سيطرتها، فأخذ الملك ابن هداد (بنهدد) ملك دمشق (٨٧٩ ـ ٨٤٣ ق.م) الجزية من يهوذا وضم منطقة جلعاد في شرقي الأردن إلى المملكة الآرامية، كما أنه فرض الحماية الآرامية والجزية على إسرائيل في عهد ملكها آخاب بن عومري (٨٧٤ ـ ٨٥٣ق.م).

وكان الآراميون يستغلون الخلاف بين إسرائيل ويهوذا لإخضاع كليهما إلى نفوذهم. ثم تحركت الإمبراطورية الآشورية متعطشة للفتح، فاصطدمت أول ما اصطدمت بالآراميين، وبدأ الصراع بينهما على السيطرة فاستغل الآشوريون الصراع القائم بين الآراميين وبين إسرائيل ويهوذا للانقضاض عليهم جميعاً فأخضعوهم كلهم أخيراً الواحد بعد الآخر»[1].

فإسرائيل أزالها الغزو الآشوري عن الوجود في عهد الملك شيلمنصر الخامس عام (٧٢٢ق.م) ويهوذا أزالها الغزو الكلداني البابلي في عهد نبوخذ نصر الثاني بين سنة (٦٠٥و٥٦٢ق.م).

«ومن الحملات التي شنّها ملوك الأمبراطورية الآشورية حملة (تجلاث بلاشر الثالث على مملكة آرام فاستولى على عاصمتها دمشق سنة ٧٣٢ق.م. وسبى أهلها وقتل ملكها (رصين) ثم توجه إلى إسرائيل فاستولى في زمن (فَقّح) ملك إسرائيل (٧٣٩ ـ ٧٣١ق.م) على كل أرضين إسرائيل وسبى اليهود إلى آشور وأحلَّ محلهم سكان أقاليم أخرى، تاركاً لخلف (فَقّح) الملك هوشع مدينة السامرة. استجاب تجلات بلاشر في هذه الحملة إلى طلب آحاز بن يوثام ملك يهوذا (٧٣٥ ـ ٧١٥ق.م) إنقاذه من ضغط الملك (رصين) ملك دمشق والملك (فَقّح)

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص٣٠٣. ٣٠٤.

ملك بيت الرب وفي خزائن بيت الملك) وقد عثر على مسلة آشورية نقش عليها شرح كامل لحملة تجلات بلاشر هذه على بلاد آرام وعلى إسرائيل.

ثم جرّد شيلمنصر الخامس، خلف تجلات، حملة تأديبية على إسرائيل فحاصر عاصمتها السامرة مدة ثلاث سنوات وقبل أن يظفر بالنصر النهائي وافته المنيّة في الشهر العاشر من عام ٧٢٢ق.م.، ولكن القائد الآشوري أتمّ مهمته باحتلال السامرة في نهاية العام على عهد سرجون الثاني، خلف شليمنصر، وبذلك تم استلام السامرة والقضاء على مملكة إسرائيل نهائياً»[١].

هذا بالنسبة إلى إزالة مملكة إسرائيل وانتهائها، أما مملكة يهوذا فانتهاؤها كان على مرحلتين وتبع المرحلتين سبيان السبي الأول حدث عام ٥٩٧ق.م والثاني ٥٨٦ق.م.

وبعد تخريب نبوخذ نصر لبيت المقدس وسبي بني يهوذا إلى بابل ورث الأدوميون ديار يهوذا الجنوبية من الخليل إلى بئر السبع فشرقاً إلى وادي عربة حيث يتصل بتخوم أدوم. ومن الأدوميين الذين حكموا فلسطين في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد هيرودوس الكبير (٣٧ ـ ٤ق.م) ثم بعده أبناؤه، خيلاوس وأنتياس وفيليب. والأدوميون كانوا عرباً مواطنهم على حدود الصحراء الشرقية في جنوبي فلسطين وهم من نسل عيسو كما تقول التوراة[٢].

وهكذا قُضي على مملكتي إسرائيل ويهوذا الهزيلتين وأكل الدهر عليهما وشرب حتى ظهور هرتزل وبلفور على مسرح الحياة اليهودية المبعثرة المتشتتة هنا وهناك في الشرق والغرب في الخزر واليمن وفلندة و..و..الخ لا تجمعهم قومية ولا مذهب ولا يعرف بعضهم حتى تعاليم

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص٣٠٦.

(٢) المصدر السابق، ص٣١٦.

دينه، ويعرف أنه يهودي، وُلد هكذا أو تهوّد لمصلحةٍ ما أو لجهل حمله على التهود أو خدعته الشعارات الرنانة التي رفعها هرتزل في إيجاد وطن قومي يجمع اليهود ويرد اعتباراً تاريخياً ضاع على يد الآشوريين والبابليين قبل أكثر من ألفي عام.

اليهود وفلسطين:

بعد أن عرفنا اليهود، أصولهم وجذورهم وتركيبتهم التراكمية منذ ظهورهم حتى اليوم، يبقى أن نعرف علاقتهم بالأرض المقدسة فلسطين وإصرارهم عليها، والدوافع التي حفزتهم على سفك الدماء والنهب والإرهاب من اجل الحصول عليها بالقوة وبأي ثمن كان!

ولو رجعنا إلى الأسر البابلي وما أفرزه من إرهاصات سياسية وقومية، فمن الطبيعي أن ينظر الإنسان ـ إذا ما حلَّ حوله الانحلال والتدهور، والقهر والتشرد، والشعور بالخوف، وعدم الاستقرار ـ أن ينظر إلى عصر ماضٍ يعكس عليه آماله وتطلعاته «وعندما جال اليهودي، في السبي البابلي، بنظرة في العصور السالفة، توقف عند عصر داود، وأخذ العقل اليهودي ينصبه في مخيلته مثالاً لما يجب على التاريخ أن يكون. فالعصر الداودي بخيره المادي الكبير، وبثرائه ورخائه، وباستقراره السياسي، ووحدته، أصبح في نظر اليهودي عصراً ذهبياً. وربما احتل عصر داود هذه الصورة المثالية في الوجدان اليهودي، لما أداه داود في حياته من اهتمام وتكريم نحو تابوت العهد والكهنة المشرفين عليه. فكان أول ما فعله إثر توليه عرش يهوذا وإسرائيل، أن قام بنقل التابوت وسدنته، إلى جوار قصره في جبل صهيون»[(١)].

وعلى غِرار ملك سليمان استقرت الأهواء اليهودية في التصميم على كتابة التوراة وإدخال الغث والسمين بين طياته وإلحاق الباطل بالحق وتزييف

---

(١) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، د. جورجي كنعان، ص٨١.

التاريخ واختلاق سلسلة للالتحاق بنسب إبراهيم الخليل ﷺ، وفكرة الشعب المختار ورسم الحدود للدولة اليهودية المرتقبة: «وهكذا ظل اليهود في السبي البابلي، ما يقارب خمسمائة سنة، يسعون لإقامة دولة لهم في فلسطين، باستخدام قوتهم. فكان الاخفاق حليفهم. وأورثتهم المحاولات العقيمة شعوراً باستمالة تحقيق أحلامهم، في العودة، أو تشييد إمبراطورية، تخضع لها الأمم، باستخدام طاقاتهم البشرية. فعمدوا إلى ابتكار قوة خارقة، تحقق لهم أحلامهم. وراحوا ينتظرون هذه القوة في شخص داود آخر»[1].

ومن يستقرىء التوراة سيعرف ألغاز النصوص التوراتية في سبب تنبئها بمسيح من نسل داود يأتي ليحل مشكلات اليهود السياسية، ويبني لهم مملكة أرضية.

لكنهم حينما عجزوا «عن تأسيس دولة، واقامة ملك، أوكلوا هذا الأمر إلى إلههم. ومن هنا كانت جميع المعتقدات المستمدة من فرائض يهوه، وأحكامه، تدور حول محور واحد هو الشؤون السياسية.

وظل يهوه أسير حوادث تاريخية معينة، وحبيس آمال سياسية خاصة بهم. كتب على نفسه أمر تحقيقها أو الظفر بها. فأخضعه أتباعه اليهود لهم، وجعلوا منه قائداً يعمل على تحقيق نزواتهم، حين كانوا رحلاً، يبتغون الاستقرار في قطعة أرض، تكون وطناً لهم»[2].

وفلسطين أرض مقدسة نزل بها إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف (عليهم السلام جميعاً) واليهود حاولوا ربط أنفسهم نَسَبياً بهؤلاء الأنبياء ووضعوا بل دوّنوا سيناريو الأرض الموعودة أو أرض الميعاد في التوراة، فارتأوا أن تكون الأرض الموعودة هي أرض الأنبياء والرسل.

---

(١) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، ص٨٠.

(٢) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، ص٨٠.

وأكدوا في كتابتهم التوراة على قدسية تابوت العهد وتمسكوا به، فالتابوت بفلسطين، وهم الشعب المختار وأبناء إبراهيم ﷺ حسب ادّعائهم، وإبراهيم ﷺ قال له الرب لنسلك أعطي هذه الأرض إلى غير ذلك من الخزعبلات والتخبطات، والتصيد في الماء العكر! ادّعوا بأرض فلسطين وأباحوا دم ساكنيها من غير اليهود إلى يومنا هذا...

يقول د. جورجي كنعان: «وباختصار إن الكهنة عملوا على تأليه مملكة داود، لدرجة أن قارئ المزامير، أو المطلع على الأسفار الكثيرة والطويلة، التي خصصت للحديث عن داود، وأخبار مملكته وحروبه وقصره ونسائه، يخرج بانطباع مؤداه أن تطلع اليهود إلى الدولة الداودية، لم يكن مجرد أمل: أي أمل بحدوث شيء معين. وإنما كان التطلع إليها تطلعاً إلى تحقيق مشيئة الرب. لأن الدولة هي مشيئة الرب في الأرض. والتطلع إلى تحقيق مشيئة الرب تعبد»[1].

ثم يضيف: «مادام العقل اليهودي يتصور التدين والتعبد لله، قائماً في الولاء للدولة الداودية. فمن الطبيعي أن يظل تدينه وتعبده يعني التطلع إلى هذه الدولة، والأمل في إعادة تحقيقها. وما دام الرب هو الذي اختار، وهو الذي انتصر، وهو الذي اشتهى، وهو الذي سكن، في صهيون. فالتطلع إلى اعادة كل هذا، واجب ديني، تعبدي»[2].

وظلت أحلام اليهود تدور حول هذه الأرض، وهي أحلام من الكارتون لا صحة لها ولا أساس، أنها كلمات برّاقة خُطت بأقلام أسرى بابل، لكنها خابت بعد ظهور المسيح ﷺ، وقضى عليها المسلمون في صدر الإسلام وأكل عليها الدهر وشرب، حتى جاء الغرب ليغذيها من جديد ويجعلها حجر الأساس ويُملي على اليهود ويعدهم بالحياة الهنيئة على أرض السلام.

---

(١) المصدر نفسه، ص٨٢.

(٢) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، ص٨٢.

وسعى الغرب إلى إصدار كتب تفسّر وتؤول ما جاء في التوراة وتؤكد عودة اليهود إلى أرض الميعاد وأنهم شعب الله المختار، وستكون الأرض لهم وهي إرثهم من إبراهيم ﷺ و. . . و. . . الخ.

وللقرآن الكريم رأيه فيهم والذين قبلهم من كتبة التوراة، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩﴾[1].

وأبت المشيئة الإلهية تحقيق أحلامهم مهما كتبوا ومهما ثبّتوا من أفكار ومهما دونوا، فلم ولن تكون لهم أرض فلسطين، أرض سلامٍ أو راحة لهم إلّا ما شاء الله. . .

ومهما سعى التلمود لتميزهم وبث أفكار عنصرية تفوقية استكبارية يبقى قاصراً عن إسعادهم.

والجدير بالذكر أن التلمود: «أصبح بعد التوراة، كتاب اليهود، وتقدم درسه في كثير من الأحيان على دراسة التوراة، فكان يؤلف طيلة أجيال عديدة تلك المجموعة الوحيدة من الكتب التي استغرقت فيها روح اليهودي واستحوذت على فكره»[2].

الموسوي واليهودي والصهيوني:

لقد ذكرنا سابقاً أن الموسوي: من تبع النبي موسى ﷺ في شريعته وانتمى إليه في فكره وعقيدته، والموسويون جماعة النبي موسى ﷺ.

واليهودي: من عبدَ الإله (يهوه) أو تبع (يهوذا)، واليهود جماعة (يهوذا) وأتباعه وهو مؤسس مصطلح يهوذا، وأصبح اليهودي لاحقاً كل من تهوّد أو ولد من أب أو أُم يهودية ثم أصبح التهوّد حركة سياسية وليست دينية.

---

(١) سورة البَقَـرَة: ٧٩.

(٢) التلمود والصهيونية، د. أسعد رزوق، ص ١٨١ـ ١٨٢.

أما الصهيوني فنسبته إلى (صهيون): «إحدى الروابي التي تقوم عليها أورشليم. وقد ورد ذكرها للمرة الأولى في العهد القديم كموقع لحصن يبوسي احتلّه داود وأطلق عليه اسم مدينة داود. وُضع تابوت العهد في صهيون قبل نقله إلى الهيكل الذي أقيم على جبل المريّا. اتسعت صهيون حتى شملت الهيكل وأُطلق اسمها على أورشليم كلها»[1].

فالانتماء إليها يؤدي إلى حمل الاسم، لكنّ البون الشاسع بين هذا الانتماء إلى تلك البقعة من الأرض وبين الصهيوني اليوم، فالصهيوني اليوم هو الذي أفرزته «الماسونية اللادينية»[2] ولا صلة له بالتسمية القديمة، فهو غربي يحمل الفكرة الاستعمارية واستغلال ثروات الشعوب، وهو انتماء إلى حركة بدأها (هرتزل) (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤م) لحل مشكلة اليهود المنعزلين عن الشعوب بحجة حرمة الاندماج ونجاسة الشعوب غير اليهودية، فقال (هرتزل) في بداية حركته: «إن مشكلة اليهود ليست مشكلة دينية أو اجتماعية. وإنما هي مشكلة قومية. ومن المهمّ أن نجد حلاً قومياً لجماهير اليهود التي لا ترغب في الاندماج، أو لا تستطيعه ورأى أن إعادة الشعب اليهودي إلى أرضه، يضع حداً للمشكلة، ويضع حداً لشتات اليهود»[3].

يقول د. جورجي كنعان في الحديث عن المشروع الصهيوني: «انبثقت الصهيونية من عصر الاستعمار والإمبريالية الأوربية التاريخي. لذلك كان من الطبيعي أن تتوجه الحركة الصهيونية إلى الدول صاحبة الإمبراطوريات الكبيرة، لتتحالف وتتعاون معها، من أجل تحقيق مصالح مشتركة.

ومن هذا المنطلق باشر هرتزل أفكاره وأعماله، في سلسلة من المفاوضات المتلاحقة مع القائمين يومها على الإمبراطوريات الكبرى

---

(١) معجم الحضارات السامية، ص٥٥٢.

(٢) راجع موسوعة تاريخ الصهونية، د. عبد الوهاب المسيري، ج٢.

(٣) الدولة اليهودية، الهامش ـ ص ـ ١٠٥.

وعلى رأسها الإمبراطورية العثمانية. فتفاوض مع الصدر الأعظم، وقابل السلطان عبد الحميد. كما تفاوض مع حكام الإمبراطورية الألمانية. مثل عم الملك غليوم الثاني ـ دوق بادن الأكبر ـ والملك نفسه. ثم قابل ملك إيطاليا، فكتور عمانوئيل، والبابا بيوس العاشر، وقابل وزير الداخلية القيصري فون بليهفه. وفي المراحل الأخيرة من حياته، ركّز في مفاوضات مع أهم الشخصيات ذات الفعل والتأثير في الإمبراطورية البريطانية، مثل جوزف تشمبرلن، وبلفور، واللورد كرومر»[1] ثم يضيف قائلاً: «كان هرتزل في مفاوضاته ومباحثاته مع ملوك وزعماء عصره، لحملهم على تأييد فكرته بإقامة الدولة اليهودية، يركّز على مسألة التعاون العملي بين الحركة الصهيونية وبين حكّام الإمبراطورية التي سترعى وتدعم قيام هذه الدولة»[2].

فاليهودي الانعزالي الذي لا يندمج مع بقية الشعوب (لطهارته) لأنه شعب الرب (كما يزعم) وبقية الشعوب نجسة قذرة لا تستحق الحياة، ذابَ هذا اليهودي وانصهر في الحركة الصهيونية لأنها الحركة المنجية والمخلصة فأصبح صهيونياً لانتمائه للحركة.

ثم إن البعض لا يفرّق بين الإسرائيلي والصهيوني والموسوي والماسوني وغيرها من المسميات والحركات الاستعمارية ويرجعها إلى مسمىً واحد هو الانتماء إلى الديانة اليهودية المحرفة الهادفة إلى نهب الشعب الفلسطيني والاستيلاء على أرضه نتيجة أوهام وركام في رماد وشعارين (الشعب المختار) و(الارض الموعودة) أو (أرض الميعاد). تشبث بها المستعمرون لخداع اليهود وتضليل شعوب العالم.

والصهيونية كما يقول د. أحمد سوسة، مشتقة من لفظة (صهيون)، وصهيون اسم رابية في أورشليم كان قد أقام اليبوسيون أبناء عمومة

---

(١) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، ص١٠٧.

(٢) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، ص١٠٧.

الكنعانيين العرب قبل ظهور بني إسرائيل (قوم موسى) بحوالى ألفي عام حصناً عليها، لذلك إن اللفظة كنعانية وليست عبرية (يهودية) شأنها شأن أكثر أسماء مدن وقرى فلسطين القديمة التي كانت وما زالت تحمل أسماءها الكنعانية الأصلية حتى يومنا هذا.

وقد أطلقت تسمية الصهيونية على منظمة إرهابية أسسها يهود روسيا بعد منتصف القرن الماضي، فسمي أعضاؤها (عشاق صهيون) و (أحباء صهيون). وانتمى إلى هذه المنظمة معظم يهود روسيا البارزين، منهم والد وايزمن بن غوريون وسوكولوف. وقامت هذه المنظمة بحركات سرية ضد القيصرية، ثم أخذت تُعنى بفلسطين وصارت تسعى لاستعمارها كوطن قومي لليهود.

ويلاحظ من ذلك أن أكثر الزعماء المؤسسين للمنظمة الصهيونية هم من يهود أوروبا الشرقية لم يشاهدوا فلسطين في حياتهم، عاشوا هم وأجدادهم في أوطانهم في أوروبا.

وما لبثت هذه المؤسسة حتى أصبحت مؤسسة دولية سياسية استعمارية ذات جهاز تنظيمي اتخذ مؤسسوها اضطهاد اليهود ذريعة لتنظيم حركة يهودية سياسية تستهدف أو ما ستهدف تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين لحجة حقوق اليهود التاريخية في فلسطين[١].

اليهود ووعد بلفور:

اليهودي البريطاني (آرثر جيمس بلفور) الذي عاش بين (١٨٤٨ ـ ١٩٣٠م) وعد اليهود بالجنة المقبلة عليهم بالهجرة إلى فلسطين على حساب أهلها وساكينيها.

وبلفور هو سياسي بريطاني، شغل عدة مناصب سياسية هامة، عين

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، ص٣٤٨.

وزيراً للخزانة (١٨٩١ ـ ١٨٩٢، ١٨٩٥ ـ ١٩٠٢) قبل أن يخلف خاله الماركيز سالسبوري في رئاسة الوزراء (١٩٠٢ ـ ١٩٠٥م) عيّن في الحرب العالمية الاولى وزيراً للبحرية (١٩١٥ ـ ١٩١٦م) ثم وزيراً للخارجية (١٩١٦ ـ ١٩٢٢) أصدر تصريحه باسم وعد بلفور في ٢ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٧ ويقضي بتعهد الحكومة البريطانية بإنشاء (وطن قومي) لليهود في فلسطين عقب الحرب، فكان لهذا الوعد المشؤوم أسوأ النتائج على العرب الذين يعانون حتى اليوم من جرّائه عنتاً شديداً. مثّل بلاده في اجتماع عصبة الأمم سنة (١٩٢٠) وفي واشنطن لتحديد الأسلحة البحرية.

بعد وعد بلفور لليهود، وبعد الانتداب البريطاني على فلسطين، فُتح العديد من الوظائف الإدارية للتهود ووفُرت فرص عمل لهم في حقول التجارة والخدمات، وتزامن ذلك مع زيادة المشاكل التي واجهت يهود أوروبا في الهجرة إلى فلسطين العربية ـ جماعات وأفراداً ـ وتدفقت الأموال على خزينة الوكالة اليهودية (فرع فلسطين للحركة الصهيونية) وتدفق اليهود على فلسطين من كل أنحاء العالم وبذلت الأموال لشراء الأراضي من الملّاكين العرب بأسعار مغرية وبالقوة، وعمد الصهاينة على إطلاق الدعوات والنداءات الكثيرة من أجل تجميع يهود العالم في (أرض إسرائيل التاريخية) لإنشاء الإمبراطورية الإسرائيلية العظمى التي رسم حدودها مدونو التوراة في الأسر البابلي (من الفرات إلى النيل).

يقول د. جورجي كنعان: «وعشية إصدار وعد بلفور، تشرين الثاني ١٩١٧، ارتفع عدد المستوطنات إلى ٤١، بلغ عدد سكانها إلى ٥٦ ألف نسمة. يملكون ٥،٢ بالمائة من أراضي فلسطين، بين ٧٠٠ ألف من الفلسطينيين العرب»[١].

ويضيف: «وحين تم إنشاء إسرائيل، راحت الدولة الجديدة تشارك

---

(١) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، ص١١٣.

الصهيونية العالمية، وفي تهجير يهود العالم إلى فلسطين المحتلة، باعتبار أنهم (منفيون) عن وطنهم القديم في (أرض إسرائيل التاريخية) وقد أشار إعلان قيام دولة إسرائيل إلى أن يهود العالم يشكلون شعباً واحداً. وأن هدف الصهيونية هو إعادتهم إلى (أرضهم التاريخية) لتحقيق بعثهم القومي. ولذلك فإن (دولة إسرائيل سوف تفتح أبوابها أمام الهجرة اليهودية، لتجميع شمل المنفيين). وانتهى الإعلان إلى توجيه نداء إلى الشعب اليهودي، في جميع أنحاء العالم، (للالتفاف حول يهود أرض إسرائيل، ومؤازرتهم في مهمات الهجرة والبناء. والوقوف إلى جانبهم في الكفاح العظيم لتحقيق الحلم القديم ـ خلاص إسرائيل»[1].

«والحركة الصهيونية من حيث الفكر والممارسة قامت على نقطتين أساسيتين هما:

١ ـ اليهود (شعب الله المختار) وهو شعب مستمر وقد نفي قسراً عن (وطنه) فلسطين منذ ألفي عام.

٢ ـ وهذا النفي القسري لم يثن (الشعب المختار) عن التمسك بالعودة إلى ما يسمى بـ(أرض الميعاد) فلسطين. وأن هذا الأمر هو (حق تاريخي) لا يسقط بالتقادم.

ولهذا أُطلق على القانون الذي يعطي اليهود (الحق) في الاستيطان في فلسطين (قانون العودة) . . .»[2].

هذه المزاعم والأساطير التي دوّنتها الأيدي البائسة في الأسر دفنها الزمان ودفنتها الظروف والشرائع ـ المسيحية والإسلام ـ فكذّبها المسيح عليه السلام وطعنها الإسلام كي تموت وفنّد وراثة الأرض للذين غضب الله عليهم إلى يوم يبعثون، وستكون الوراثة للمخلصين، وقال القرآن لا

(١) سقوط الإمبراطورية الإسرائيلية، ص١١٣.

(٢) صهيونية الخزر، ص١٣٦.

لقتلة الأنبياء والرسل ولا لمن حرّفَ شريعة الله وكتب الكتابَ من عنده، وقال هذا من عند الله.

وجاءت الصهيونية بعد ألفي عام من التدوين لتمسح التراب وتعيد أسطورة الشياطين لتكون هي الشيطان الأكبر.

الفصل الثامن

خروج بني إسرائيل من مصر

١ ـ أسباب الخروج
٢ ـ موسى (ع) يتحدى
٣ ـ موسى (ع) والخوارق الكونية
٤ ـ هلاك الفرعون وجنوده
٥ ـ نجاة موسى (ع) وقومه
٦ ـ نجاة بدن فرعون ليكون آية
٧ ـ من خرج مع موسى (ع)؟
٨ ـ طريق الخروج
٩ ـ إسرائيليون يسرقون المصريين
١٠ ـ حوادث في سيناء
١١ ـ موسى (ع) ومجمع البحرين
١٢ ـ تاريخ الخروج من مصر

خروج بني إسرائيل من مصر

أمر الله تعالى موسى ﷺ أن يذهب إلى فرعون إنه طغى، وعلى موسى ﷺ أن يهديه إلى صراط السبيل، أطاع موسى ﷺ وقام بالمهمة على أكمل وجه وبكل ما أُعطي من قوة الإيمان، إلّا أن الفرعون لم يستجب وازداد عتوّاً واستكباراً وقرر التنكيل بمن آمن بموسى ﷺ، وما عسى موسى ﷺ إلّا أن يقرر الفرار بالمؤمنين والرحيل من مصر، بعد أن أوحيَ إليه أن أسر بعبادي ليلاً لأنكم متبعون من قبل فرعون وجنوده.

سار موسى ﷺ بمن تبعه من المؤمنين الموحدين متحدّين الليل وصعوباته متوكلين على الله، وتبعتهم جيوش فرعون بكل ما ملكت من قوةٍ وسلاح، وتدخلت الطبيعة بأمرٍ من الله عز وجل كي لا تدع للظالم سلطاناً وتقضي على من تعدّى حدود الله وتجعله آية، حيث قال تعالى لفرعون﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[1].

وقد تحدَّث القرآن الكريم عن بعض تفاصيل الحادثة وأثنى على موسى ﷺ وقومه، وذمّ فرعون وقومه، وبيّن الجانب التاريخي وموضع الدرس والعبرة من القضية.

وفضل الله تعالى الذين آمنوا بموسى ﷺ واتبعوه، فضّلهم على العالمين في ذلك الزمان حيث كان العالم يعج بالضلال والانحطاط والانحراف والشرك إلّا قوم موسى ﷺ، فأراهم المعجزات والخوارق

(١) سورة يُونس: ٩٢.

الكونية بأم أعينهم وأمهلهم الفرص واستجاب لكل طلباتهم ليمتحن قوة الإيمان في نفوسهم.

لكن نفوسهم أبت أن تكون من المُخلِصين أو المُخلَصين ونقضوا الميثاق بعد توكيده، فعاقبهم الله تعالى على ما فعلوا وأتاههم في صحراء سيناء أربعين سنة.

أسباب الخروج:

تضاربت آراء المؤرخين وعلماء التفسير والآثار في أسباب خروج بني إسرائيل وفرارهم من مصر، فاعتقد بعضهم أن الفرعون وجنوده طردوا اليهود لغرض الخلاص من شرهم، أو لخيانتهم بتهريب أولادهم من التجنيد وأعمال الحرب. . . وتهريب الغلال والماشية والذهب إلى خارج مصر في الوقت الذي كانوا يشرفون على مخازن التموين في بررعمسيس.

والبعض الآخر أصرَّ مؤكداً: إن موسى ﷺ أخرجهم من مصر ليخلّصهم من الجور والظلم والتنكيل بهم من قبل الفرعون وأتباعه.

وفريقٌ ثالث سلّم أمره إنه وحيٌ إلهي لموسى ﷺ تمسكاً بالآية الكريمة: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾[١].

إلّا أن الأقوال قد تجتمع في نقطة التقاء فتكون أسباباً متعددة لحقيقة واحدة.

فقد رفض الفراعنة بني إسرائيل ونكّلوا بهم فأوحى الله تعالى لنبيه موسى ﷺ: أسر بعبادي إنكم متّبعون من قبل فرعون وجنوده فإن لم تفرّوا سيجبرونكم على الفرار والرحيل أو القتل والتعذيب، أو التعبيد القسري، فكانت إرهاصات الخروج قد نظمت لتحكي قصة حقيقية للأجيال، قصة تدخلت فيها يد العناية الإلهية لتنجي أحد أكبر أنبياء الله تعالى وأتباعه وتقضي على أكبر طاغية في تاريخ البشرية.

---

(١) سورة الشُعَرَاء: ٥٢.

فكان الحق هو الناجي المنتصر، والباطل مخذول منكسر بعد ما تدخلت الخوارق الكونية لتنحاز لطرف الحق والإيمان وتكسر شوكة من استعلى واستكبر وحاق بآل فرعون سوء العذاب والغرق والخذلان.

هذا ما حكاه لنا القرآن الكريم، أما التوراة فقد حكت صورة أخرى للخروج، فقد ذكرت أن الله تعالى قال لموسى ﷺ: «تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل إلى مصر وتقولون له الرب إله العبرانيين التقانا. فالآن نمضي سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا..»[1].

أي إنهم يوهموه أنه خلال ثلاثة أيام ويعودون وما هي إلّا سفرة قصيرة يؤدون فيها مراسم خاصة أمرهم بها إله العبرانيين..

وقيل: كانت مناسبة عيد لبني إسرائيل يحتفلون به كل عام وجاء في كتاب أنبياء عاشوا في مصر:

«اقترب لبني إسرائيل موعد عيد لهم، فطلب موسى من فرعون أن يسمح لقومه بالاجتماع خارج المدينة، ليحتفلوا بعيدهم، ووافق فرعون ـ على كره منه ـ لعله كان يخشى إن رفض أن يصيبه عذاب جديد فكفاه ما عاناه وقومه وما نزل بهم من سوء وعقاب!!»[2].

ثم يضيف المؤلف قائلاً: «اجتمع بنو إسرائيل، واحتفلوا بعيدهم، وقد أضمروا الهرب فيما بينهم... بينما كان فرعون منصرفاً إلى شؤونه.. حتى إذا انتصف الليل، أو كاد.. بدأ بنو إسرائيل رحلة الهرب من مصر... يتقدمهم موسى ويتبعهم هارون ويتوسطهم السامري.. تغني لهم مريم أخت موسى من الأغاني ما يعيد الأمل إلى نفوسهم»[3].

أما قضية غناء مريم أخت موسى ﷺ فهو من إسرائيليات التوراة

---

(١) سفر الخروج، الإصحاح ٣، العدد ١٨.
(٢) أنبياء عاشوا في مصر، ص١٨٤.
(٣) المصدر السابق نفسه.

وتلفيقاته، فمن البعيد أن تكون أخت لمعصومين ترافقهما الرحلة إلى الله ترتكب المحرم، ان شريعة السماء هي هي في كل زمان ومكان إلّا بعض الاستثناءات، وإذا كان صوت مريم (وغناؤها) من الاستثناءات فهذا راجع لتعاليم السماء!.

موسى (ع) يتحدى:

قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾[1] أجابه موسى عليه السلام بكل تحدٍ وشجاعة وثقة بالله غير مبال ولا خائف ولا مكترث من أبهة الفرعون، وعرشه قائلاً: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[2] هالكاً منهدّ العرش والملك وسينجينا الله تعالى من بطشك وطغيانك وادعائك الربوبية بغير حق، وتنكيلك بالأبرياء وكفرك بالخالق العظيم..

وتحدى موسى عليه السلام فرعون بالمعجزات، العصا، اليد، وغيرها وآمن به من تذوق لذة الإيمان بالخالق العظيم، وقرر فرعون أن يقطّعهم من خلاف ويقتل كل بني إسرائيل إلّا أن موسى عليه السلام تحدى مرة أخرى فأخرجهم ليلاً متسترين بظلام الليل ترعاهم يد العناية الربانية.

وما كان تحدي موسى عليه السلام إلّا ثقة بالله تعالى وبنجاته وقومه من عبودية فرعون وملئه، فمنَّ الله تعالى عليه وعلى أخيه ومن تبعهما وأحسن إليهما، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾[3].

نعم لقد غلب موسى وقومه فرعون وأتباعه ونجاهم الله من القهر والضيم والعذاب وهدَّ عرش فرعون فكان مثبوراً كما أخبره موسى عليه السلام.

وقبل هذا تحدى موسى عليه السلام عرش فرعون وادعاءه الربوبية، وأكد له

---

(١) سورة الإسرَاء: ١٠١.

(٢) سورة الإسرَاء: ١٠٢.

(٣) سورة الصافات: ١١٤ ـ ١١٦.

أن الرب الحقيقي هو الخالق والرزّاق وهو الذي يحمل كل صفات الجمال والكمال وانه حي لا يموت، فهل يا فرعون فيك هذه الصفات حتى تدّعي الربوبية بل تدّعي أنك رب الأرباب ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾[1] ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

وكذلك ما زعمه فرعون لقومه أن النبي يجب أن يملك الذهب أو يكون معه مَلَك يهديه، لكنَّ موسى عليه السلام تحدّاه بأن الله تعالى أعطاه ما هو أثمن من الذهب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾[3] وأن المَلَك الذي يهديه هو الوحي الذي أخفاه الله عن عين غير المعصوم.

وأتمّ موسى عليه السلام في تحديه تسع آيات بيّنات ذكرها القرآن الكريم واختلف المفسرون في عدّها، وقد ذكرناها في فصل سابق.

وآخر التحديات كان العبور، فقد عبر موسى عليه السلام ومن معه البحر بكل أمان واطمئنان، ثم التفت موسى إلى خلفه وهو يرى فرعون وجنوده يحاولون العبور، تحدّاه أن يعبر بأمان لأن الله تعالى منجي المؤمنين دون المشركين، فغرق فرعون إلّا أنه حاول أن يستنجد بإله موسى وبني إسرائيل، وقال﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾[4]وتنازل عن ربوبيةِ نفسه وطغيانها للذي آمنت به بنو إسرائيل ولم يتجه بقلبه وروحه إلى خالقه وربّه مباشرة يناجيه ويناديه ويطلب منه النجاة لأنه لا يعرفه حتى آخر لحظات حياته بل رآى أن إله بني إسرائيل قد أنجاهم بكل سهولة من الغرق، فتأكد أن إلههم أقوى فليناديه، نعم ناداه بدون

---

(١) سورة النّازعَات: ٢٤.

(٢) سورة الزّخرُف: ٥١-٥٣.

(٣) سورة هُود: ٩٦.

(٤) سورة يُونس: ٩٠.

معرفة ولا إيمان حقيقي، فلم تأتِ الاستجابة بل جاءه النداء أن روحك ستزهق وبدنك سيبقى لمن خلفك آية، لمن يعتبر ويعي.

موسى (ع) والخوارق الكونية:

جرت سُنة الله تعالى على أنبيائه العظام أن يأتوا بمعجزة لتكون حجّة بيّنة على عباده، وكان موسى ﷺ واحداً منهم إلّا أنه اختلف عن غيره بكثرة معاجزه، فكانت العصا أول ما اخترقت طبيعتها وتحولت إلى حية تسعى بحيث أدخلت الرعب على موسى ﷺ نفسه وطمأنه الله تعالى وقال له: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[1] وقال تعالى كذلك.. ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾[2] وقال تعالى أيضاً: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾[3] أقبل موسى إلى الحية وأمسكها، فعادت إلى حالتها الأولى، عصاه التي اعتاد عليها!

وجاء دور يده لتخترق طبيعتها هي الأخرى، فقد جاء نداء الله تعالى لموسى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾[4].

فعل موسى ﷺ ما أُمر به حتى قال له ربه: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[5].

وتتالت الخوارق الكونية على يد موسى ﷺ حتى ظنوه مسحوراً، وجاءت تسع آيات بينات على يده فكذبوها حتى كانت آية الغرق في انفلاق البحر لموسى ﷺ وقومه والعبور وانغلاقه على فرعون وقومه ولم تقف معاجز موسى عند هذه الخوارق والمعجزات، بل توالت في سيناء

---

(١) سورة النّمل: ١٠.
(٢) سورة القَصَص: ٣١.
(٣) سورة طٰه: ٢١.
(٤) سورة القَصَص: ٣٢.
(٥) سورة القَصَص: ٣٢.

حيث انفجار عيون الماء لبني إسرائيل: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾[1] ونزول الطعام من السماء (المنّ والسلوى).

ومن الخوارق: ﴿ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾[2] ونزول الألواح العشرة فيها تعاليم الدين وخير الدنيا والآخرة ومعجزة البقرة التي كشفت ما كان يكتمُ بنو إسرائيل من الحق[3].

وما إلى ذلك من الخوارق التي تمكن موسى عليه السلام أن يثبت من خلالها نبوته ورسالته لبني إسرائيل من جانب ولفرعون وقومه من جانب آخر، وأغلب الخوارق جاءت من خلال رفيقة دربه ورسالته (عصاه الكريمة) التي جلبها معه من مدين ليهش بها على غنمه ويتوكأ عليها حين التعب والإعياء، وهناك مآرب أخرى كانت له بها، لكنها أصبحت رفيقة الدرب، فكانت مرة حية تسعى وأخرى يفلق بها البحر بضربة واحدة وأخرى يضرب بها الأرض لتكون عيوناً وهكذا..

وما كانت الآيات التسعة إلّا تحدياً لطغيان فرعون وكبريائه والكشف عن عجزه وضعفه أمام موسى عليه السلام ومعاجزه، فعارٌ عليه أن يدّعي الربوبية وهو قاصر عن مواجهة الطبيعة وأسرارها..

فقد فشل أمام الجدب الذي أصاب مصر وهو يقاوم موسى عليه السلام ثم النقص في الثمرات والأنفس ثم الطوفان، والجراد الذي أرسله الله ليجتاح الثمار ويأكل الزرع ثم القُمّل الذي أقضّ مضاجعهم وأتعبهم أيما تعب هو وأعوانه والضفادع التي نغصت عليهم عيشهم، والنيل الذي تحوّل ماؤه دماً لأيام ثم الطمس على أموالهم ومعجزة اليد أسقطت ما في يده.

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٧١.

(٣) سورة البقرة، الآيات ٦٧ إلى ٧٣.

كل هذه التحديات تحدى بها موسى ﷺ فرعون بقوة إلهية، وفي كل مرة يظهر فرعون ضعفه وقلة حيلته، ويدعو موسى ﷺ الله تعالى ليخلصهم مما هم فيه، وبعد الأمان تأخذ فرعون وأنصاره العزة في الإثم حتى طبع الله على قلوبهم فهم قوم لا يفقهون.

هلاك الفرعون وجنوده:

كان فرعون موسى متكبراً متعالياً وكان من المسرفين في العلو والكبرياء والعظمة، وكان الله تعالى له بالمرصاد أمهله ولم يهمله، انتقم منه وما حمل من داء العظمة والجبروت والربوبية، استعبد عباد الله، وأعلن أنه الرب الأعلى بيده حياة الناس وموتهم وغناهم وفقرهم، استخف بعقول البعض وهيمن عليهم وتسلط بالاكراه على البعض الآخر، حتى عاشت مصر واقعاً مراً لا يستطيع إنكاره أحد، فمن لم يعبد فرعون ويخضع لأوامره فمصيره الموت ولا خيار غيره.

وقد ذكر القرآن الكريم استكبار فرعون وجبروته إلّا أن الله تعالى قاصم الجبارين أذله أخس ذل، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[1].

فقد كذب فرعون بآيات الله البينات التي جاءت على لسان موسى ﷺ، فانتقم الله تعالى منه ومن تبعه، قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[2].

وقال تعالى أيضاً: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾[3].

---

(١) سورة القصص: ٣٩-٤٠.
(٢) سورة الأعراف: ١٣٦.
(٣) سورة الزخرف: ٥٥ ـ ٥٦.

وكان تكذيب فرعون لموسى عليه السلام وجحوده بآيات الله البينات ورمي موسى عليه السلام بالسحر والجنون، فعاقبه الله تعالى أشد عقاب في دار الدنيا، قال تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[١].

أما جزاء الآخرة فهو أشد وأعظم، قال تعالى: ﴿...وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[٢].

وقد بين الله تعالى في سورة هود مصير فرعون وقومه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: إن فرعون ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾[٣].

وهناك فيض من الآيات ترسم لنا مصر فرعون موسى عليه السلام ومن تبع فرعون وساعده وسانده في علوه واستكبارهِ ولا يسعنا ذكرها جميعاً في هذه العُجالة.

وجاء على لسان كتبة التوراة مصير فرعون وما آل إليه أمره والغرق الذي أهلكه وبقاء جسده آية لمن يعتبر في هذه الدنيا. جاء ذلك في سفر الخروج من العهد القديم.

نجاة موسى (ع) وقومه:

شاء الله تعالى أن ينجي من آمن به ووحَّده، وفي الوقت الذي كانت الأرض تعج بكفرها وضلالها، أُنجي موسى وهارون عليهما السلام ومن تبعهما بالإيمان والتوحيد، أنجاهم من بطش فرعون وتنكيله ومن غدر البحر والغرق والهلاك، بأسباب غير طبيعية، بخوارق كونية وعناية غيبية ومعجزات سماوية.

---

(١) سورة الذّاريّات: ٣٨-٤٠.

(٢) سورة غافر: ٤٥-٤٦.

(٣) سورة هود: ٩٨ ـ ٩٩.

كاد فرعون أن يدرك موسى وقومه حيث دنا بعضهم من بعض، فرأى كل من الجمعين، جمع فرعون وجمع موسى الآخر، وفزع أصحاب موسى عليه السلام من الموقف ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾[1] ردّ عليهم موسى عليه السلام: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾[2] أي سيدلني على طريق لا يدركنا فرعون وجنوده، وحقاً كان وعد الله لموسى عليه السلام حيث نزلت تعليمات السماء فوراً على موسى عليه السلام قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾[3] انشق البحر وبان بعضه من بعض، كان موسى عليه السلام في بداية الأمر في خشية من أمره بضرب العصا مع كل ما يحمل من ثقة بالله في النجاة والاطمئنان ليد العناية، قال له الله تعالى﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾[4] صدع موسى عليه السلام بوحي من ربّه وضرب البحر والقوم في دهشة من الأمر وهم يرون البحر قد انفلق وامتد فيه طريق يابس ممهد، فأسرعوا في العبور، يتقدمهم موسى عليه السلام وكان طريقاً يفصل بين مسطحين من المياه.

وصل فرعون وجنوده ومضوا يحدوهم الأمل في اللحاق بموسى عليه السلام ومن تبعه، فما كاد جنود فرعون يصلون إلى منتصف الطريق، حتى أطبق البحر عليهم من جهتيه، فأغرقهم بخيلهم ورجالهم وعتادهم قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾[5] أضلّهم مرتين، الضلال الأول هو عدم الإيمان برسالة موسى عليه السلام ورميه بالسحر والجنون، والضلال الثاني دخول البحر بغية اللحاق بموسى عليه السلام وقومه.

عبر موسى عليه السلام وقومه البحر بكل سهوله ويسر، إلّا أنه رأى فرعون وجنوده يبغون العبور، أراد ضرب البحر ثانية ليرجعه إلى حالته الأولى

---

(١) سورة الشُّعَرَاء: ٦١.
(٢) سورة الشُّعَرَاء: ٦٢.
(٣) سورة الشُّعَرَاء: ٦٣.
(٤) سورة طـه: ٧٧.
(٥) سورة طه: ٨٧ ـ ٧٩.

إلّا أنه سمع الوحي منادياً: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1] اعبر يا موسى واترك البحر ساكناً أو مفتوحاً على حالته ليدخلوه طمعاً في إدراككم، لكن الغرق والموت سيدركهم قبل أن يدركوكم أو يعبروا البحر.

وبهذا أنجى الله تعالى موسى عليه السلام وقومه من بطش فرعون وجُنده، ومن كان مع الله كان الله معه.

اطمأن بنو إسرائيل بخلاصهم، وفرحوا بما أصاب فرعون وجنوده، وانصراف المصريين عن ملاحقتهم، فقد انشغلوا بموت فرعونهم، واختيار فرعون جديد، مما أتاح لبني إسرائيل أن يمضوا إلى سيناء، ويجتازوا طرقاً سهلة.. بعيدة عن تلك التي كان يرتادها رجال القوافل وعمال المناجم، والتي تتناثر فيها تجمعات سكانية، تعيش على الرعي واستخراج المعادن المتنوعة.

نجاة بدن فرعون ليكون آية:

أُطبق البحر على فرعون وجنوده بمشيئة الله تعالى وضاع الجميع بين أمواج البحر الهائج إلّا بدن فرعون فقد شاءت المشيئة الإلهية أن تلقي بجثته إلى عرض الشاطئ ليكون دليلاً واضحاً على الحقيقة التي قد ينكرها البعض، ألقته لتلتقطه أيدي المصريين وتحنّطه ليبقى إلى يومنا هذا، وبعد ثلاثة آلاف سنة في متاحف مصر ليكون آية كما قال القرآن الكريم: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾[2].

وقد أثبت علماء الآثار نجاة بدن فرعون ووجوده في مصر حيث «اكتشف (لوريت) منفتاح المحنط ابن رمسيس الثاني الذي يتضافر كل شيء على إقناع الفكر بأنه فرعون الخروج، اكتشفه سنة ١٨٩٨م في طيبة

(١) سورة الدّخان: ٢٤.

(٢) سورة يُونس: ٩٢.

في وادي الملوك. وقد نقل من هناك إلى القاهرة، وحلَّ (اليوت سميث) عصابته في الثامن من تموز سنة ١٩٠٧ وضبط محضر هذه العملية. .الخ»[١].

«وقد ظهر من آثار قبر منفتاح أنه لم يكن مهيأ كما يجب لدفن ملك مثله لأن موته لم يكن منتظراً فلم يهيأ له قبر خاص»[٢].

«وقد عثر العلامة (فلندرس بتري) على حجر من الجرانيت القاتم ورقمه في الدار(٥٩٩) وهو عبارة عن لوحة كبيرة يبلغ ارتفاعها ٣ أمتار و١٤ سم وهو منقوش من الوجهين أحدهما للملك (آمنحتب) الثالث من الأسرة ١٨يذكر فيه كل ما عمله لمعبد أمون.

أما الوجه الآخر فقد استعمل في شأن (منفتاح) بن رعمسيس الثاني من الأسرة ١٩ وذكر فيه عبارات بأسلوب شعري يفتخر فيها بانتصاره على اللوبيين، ويشير إلى سقوط عسقلان وجيزر ويانوعيم في فلسطين. وجاء من ضمنها عبارة تشير إلى بني إسرائيل ونصها الحرفي (لقد سحق بنو إسرائيل ولم يبق لهم بذر) هذا أول نص رسمي في الآثار ذكر فيه بنو إسرائيل، وقد عثر على هذا الحجر في كوم الحيتان بطيبة الأقصر، وهذا يبدو للمدقق أن (منفتاح) لم يكتبه في عهده. وإلّا لكانت لهذه الحوادث الهامة التي يذكرها فيه شأن عظيم كان يجب أن يدون في أثر خاص. لا أن يستعمل له حجر كان لغيره من قبل.

ويظهر أن الكهنة التابعين لمنفتاح هم الذين استعملوا هذا الحجر ودوّنوا ما به ليشيدوا بذكره. فيقومون بذلك بواجب التخليد حيث لم يكن منتظراً أن يموت الملك بتلك الصورة المعجلة التي مات بها. وقد أرادوا أن يوهموا الناس أن فرعون قد سحق بني إسرائيل تمويها وقلباً

---

(١) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكايص٢٠٤، دار الكندي.

(٢) مع الأنبياء، عفيف طبارة، ص٢٤١.

للحقائق، حتى يستروا أمام الشعب المصري الذي كان يحترم ديانتهم خذلانهم وخذلان إلههم أمام موسى، حين كان فرعون يتعقب بني إسرائيل.

ويكون العثور على جثة (منفتاح) ووجودها الآن بالمتحف المصري، مصداقاً لقول القرآن الكريم ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾[1].

وقد وجدت الجثة مع غيرها من الجثث في قبر(امنحتب الثاني) بالأقصر»[2].

والتوراة بدورها ذكرت الحادثة بأغلب تفاصيلها.

مَنْ خرج مع موسى (ع)؟

اختلفت الآراء والأقوال فيمن خرج مع موسى ﷺ، فذهب فريق للقول بأن موسى ﷺ قد جاء بمهمة إلهية أمر بها، وهي أن يُخرج بني إسرائيل من مصر لينقذهم من التنكيل والاضطهاد، وقال فريق آخر بأن مَنْ خرج مع موسى ﷺ كلٌ من آمن برسالته من بني إسرائيل والمصريين وغيرهم من سكان مصر، وذهب فريقٌ ثالث إلى أن الذين خرجوا مع موسى ﷺ هم اليهود أو العبرانيون بالتحديد.

وقد تبيّن من الفصول السابقة أن تسمية اليهود جاءت متأخرة عن زمن موسى ﷺ، وخروج بني إسرائيل لوحدهم كذلك غير ممكن، لأنهم خلال (٤٠٠) سنة أو أكثر كانوا قد اختلطوا مع المصريين ولو قليلاً عن طريق المصاهرة وغيرها فكان الأبناء هجين فيكون الذين خرجوا من مصر مع بني إسرائيل مجموعة من الذين آمنوا بدين موسى ﷺ والذين تصاهروا مع بني إسرائيل، والذين أحسوا بحلاوة الإيمان مع موسى ﷺ، لكن التسمية التي جاءت في القرآن الكريم (بني إسرائيل) للأغلبية الخارجة مع

(١) سورة يُونس: ٩٢.

(٢) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٢٠٣.

موسى عليه السلام والتي كانت تحت الظلم والاضطهاد والتنكيل والتقتيل، فجاء الأمر الإلهي لإنقاذ هؤلاء المضطهدين من معاناتهم.

يقول د. أحمد سوسة عن قصة خروج موسى عليه السلام وجماعته من مصر: «أما قصة خروج موسى عليه السلام وجماعته من مصر ـ القصة التي استرسل كتبة التوراة في شرحها في سفر الخروج من العهد القديم ـ فهي لم تكن خرافية كما يرى البعض، وإنما هي حادثة تاريخية حقيقية تنطوي على خروج جماعة من مصر في عهد معيّن وتوجّه هذه الجماعة نحو أرض كنعان المجاورة، وذلك بقيادة زعيم روحي عرفته الأجيال باسم النبي موسى. وقد شاءت الأقدار أن تسدل الستار عن حقيقة هذه الجماعة وأسباب خروجها، إذ لم يعثر حتى الآن على مصدر قديم من المخطوطات الآثارية معاصر إلى خروج هذه الجماعة من مصر يشرح لنا هويتها على حقيقتها أو الدوافع التي حملتها على الخروج من مصر. والمصدر الوحيد الذي بين أيدينا عنها هو التوراة التي كتبها مدونوها في الأسر بعد ثمانمائة عام من الحادث، فجاءت القصة مشوّهة ومحوّرة بالشكل الذي يخدم مقاصد خاصة وأهدافاً معينة، فأصبحت في نظر الكثير أشبه بالأساطير الخيالية منها بالحقائق التاريخية»[1].

بينما نرى القرآن الكريم عند استعراضه قصة خروج موسى عليه السلام من مصر وحواره عليه السلام مع الفرعون يقول: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾[2] أو ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[3] وغيرها من الآيات التي توحي أن هناك غير بني إسرائيل قد خرجوا مع موسى ممن آمن بموسى عليه السلام بالإضافة إلى أنه طلب من الفرعون أن يأخذ معه بني إسرائيل لأنهم كانوا تحت يد الفرعون وأعوانه مضطهدين مقهورين عمالاً وعبيداً لا حول لهم ولا

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، د. أحمد سوسة، ص٢٧٨.

(٢) سورة الشُّعَرَاء: ١٧.

(٣) سورة الأعرَاف: ١٠٥.

قوة، فلما لم يُعط لهم الضوء الأخضر للخروج تسللوا ليلاً مع موسى ﷺ ومن معه..

طريق الخروج:

للخروج طريقان أحدهما رسمته التوراة، والثاني أسطوري تناقلته الأجيال، يقول د. أحمد سوسة: «ويرجع الباحثون مستندين إلى وصف التوراة أن الطريق التي سلكها الموسويون في خروجهم من مصر هي طريق عمال المناجم القديم إلى سيناء، فارتحلوا من بلدة رعمسيس في أرض (جاسان)، وهي التي عرفت بمدينة المخازن، وتوجهوا إلى (سكوت). ومن (سكوت) نزلوا في (إيثام) في طرف البرية، ثم نزلوا أمام (فم الحيروث) بين (مجدل) والبحر أمام (بعل صفون) مقابله عند البحر. وسعى المصريون وراءهم وأدركوهم وهم نازلون عند البحر عند (فم الحيروث) أمام (بعل صفون).

ثم ارتحلوا من بحر (سوف) وخرجوا إلى مدينة (برية شور) ووصلوا إلى (مارة) ومن (مارة) ذهبوا إلى (ايليم) وهناك اثنتا عشرة عين ماء فنزلوا عند الماء»[1].

هذا ما ذكرته التوراة، ثم يكمل وصف التوراة للمسيرة الموسوية قائلاً: «ثم ارتحلوا من (إيليم) إلى برية (سين) التي بين (إيليم) وسيناء، ثم ارتحلوا من برية سين ونزلوا في (دفقة).

و(دفقة): هذه تقع في مدخل جبل سيناء في وادي فيران كانت فيها مناجم النحاس التي كان يستثمرها المصريون منذ أقدم الأزمنة. ثم ارتحلوا من (دفقة) ونزلوا في (ألوش) ومن (ألوش) نزلوا في (رفيديم). وفي (رفيديم) دارت أول معركة بين الموسويين وبين العمالقة سكان البلاد. ومن (رفيديم) ارتحلوا إلى برية سيناء حيث نزل الموسويون مقابل

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، د.احمد سوسة، ص٢٨٦.

الجبل، والجبل هو جبل سيناء (جبل موسى) الذي نزلت فيه الشريعة. وهنا التقى موسى بزوجته صِفّورة وابنيه وحميّه يثرون الذين جاءوا من مديان للالتحاق به»[1].

ثم يكمل ما نقلته التوراة في الطريق التي سلكها الموسويون من مصر إلى شرقي الأردن قائلاً: «وقد بقي الموسويون في برية سيناء حوالى السنة، ثم ارتحلوا منها في السنة الثانية بأمر الرب إلى (قادش برنيع) الواقعة على بُعد ١٥٠ميلاً من سيناء شمالاً سالكين الطريق الذي يمر ببلدة (حضيروت) على الضفة الغربية لخليج العقبة، ومن (حضيروت) نزلوا في (برية فاران)، ثم توجهوا إلى (عصيون جابر) الواقعة عند آخر نقطة من ساحل خليج العقبة مارين بعدد من القرى ثم رحلوا من (عصيون جابر) إلى (برية صين) التي هي (قادش برنيع) ومنها نزلوا في (جبل هور) في طرف أرض أدوم»[2].

أما الطريق الأسطوري التي تناقلته الأجيال عن طريق ممارسة بعض المؤرخين من اليهود فهو الطريق الساحلي الذي يبدأ بعد عبور شمال خليج السويس ثم سواحل الخليج في الطرف الآخر حتى جبل موسى ثم سواحل خليج العقبة (فحوردث) ثم (أزيون) ثم دخول أرض (مدين).

في حين لا يذكر القرآن الكريم أي طريق سلكوا سوى ذكر الدرس والعبرة من قصة موسى ﷺ وقومه وإن الله تعالى أنجاهم من فرعون وقومه، وفلق لهم البحر وعبروا، ثم لجّوا وعاندوا فأتاههم الله أربعين سنة في الأرض ولم يذكر اسم الأرض.

إسرائيليون يسرقون المصريين:

ذكرت التوراة موقفاً مشيناً لنساء بني إسرائيل وهو سرقتهن حُلي المصريات وخداعهن باستعارة الحُلي من الذهب والفضة واستعادته

---

(١) العرب واليهود في التاريخ، د.احمد سوسة، ص٢٨٦.
(٢) العرب واليهود في التاريخ، ص٢٦٨ـ٢٨٧. .

خلال أيام معدودات وأن الرب دعاهم ليقيموا مراسم العيد في البرية على مدى ثلاثة أيام، فقد جاء في التوراة: «. . .الرب إله العبرانيين التقانا. فالآن نمضي سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للربّ إلهنا»[1] وبهذا خدعوا نساء المصريين واستعاروا منهن الحُلي من الذهب والفضة وذهبوا بذلك المال كله كما يذهب الأسير بقيده!.

لكن الحُلي لم يبق كثيراً عند النساء حيث خدعهن السامري بأن يُقدّم هذا الذهب والفضة للرب للتقرب إليه وللتكفير عن الخطيئة، فجمع كل ما عندهم من الحُلي وألقاه في نارٍ أوقدها لذلك ليجعل من حليهم رباً يعبدونه ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾[2] وجاء في سورة الأعراف: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[3].

وبعد سجودهم له وعبادتهم إياه انتبهوا إلى أنهم قد انحرفوا عن خطِ موسى عليه السلام وأضلوا الطريق، اتجهوا إلى الله تعالى ليرحمهم: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾[4].

رجع إليهم موسى عليه السلام من ميقات ربه بعد أربعين يوماً. تألم على ما وجدهم عليه وغضب وتأسف وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[5] أما الذين يتوبون إلى الله تعالى من بعد هذه السيئة العظيمة سيتوب الله عليهم: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾[6].

---

(١) سفر التكوين، الإصحاح ٣، العدد ١٨.
(٢) سورة طـه: ٨٥.
(٣) سورة الأعراف: ١٤٨.
(٤) سورة الأعراف: ١٤٩.
(٥) سورة الأعراف: ١٥٢.
(٦) سورة الأعراف: ١٥٣.

وأخذ موسى ﷺ العجل المصنوع من الذهب والفضة ورماه في البحر الأحمر كما قيل ودعا على السامري: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾[1] وهذا كلام صريح من القرآن الكريم أن موسى ﷺ حرّقَ العجل أي أذابهُ إذابة كاملة لأنّ التحرّيق صيغة مبالغة للحرق ثم رماهُ في البحر، ولكن أيُّ بحر؟ لم يُبينُه القرآن الكريم ولكن الذي شاع في الأخبار أنه البحر الأحمر.

وتذكر التوراة الحادثة: (. . فتسلبون المصريين. . . الخ)[2]

حوادث في سيناء:

خرج موسى ﷺ وقومه من مصر إلى شبه جزيرة سيناء التي كانت شمسها شديدة الحرارة، خرجوا من بلاد النيل والخيرات إلى صحراء لا زرع فيها ولا حياة، ترعاهم يد العناية الإلهية ويظللهم الغمام ويضلون الطريق فيُهتدون إليه ويجوعون فينزل عليهم طعاماً من السماء هو (المن والسلوى) ويعطشون فيأمر الله تعالى موسى ﷺ ليضرب بعصاه الأرض لينبع منها اثنتا عشرة عيناً ويعرف كلٌ مشربه، ويضلهم السامري ويأتيهم موسى ﷺ بالألواح العشرة ليبين لهم الأحكام والتعاليم والهداية الحقة وما إلى ذلك من الصعوبات التي واجهتهم في سيناء، حيث حَظوا بتسديد من الله تعالى لأنهم عباده الموحدون، ففضلهم على من عاصروهم من البشر، حيث أنجاهم الله تعالى من كل الأزمات، لكنهم ترنموا وأبوا إلّا أن يكونوا من المعاندين حين أمرهم أن يجاهدوا في سبيله أو أن يذبحوا بقرة أو أن يتبعوا موسى ﷺ وتعاليمه الحقة حتى نزل عليهم الغضب الإلهي بتحريم الأرض عليهم وتيههم أربعين سنة وفقدهم لنبيهم موسى ﷺ.

---

(١) سورة طه: ٩٧.

(٢) الإصحاح الثالث، العدد ٢٢.

وقد وصفهم موسى عليه السلام (بالفاسقين) لأنهم خرجوا عن طاعته بعد أن فَضَّلهم الله تعالى ورعاهم في سيناء وأنقذهم من الغرق ومن فرعون وجنوده ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٥﴾[1] والفسوق الخروج عن الطاعة.

وقال لهم موسى عليه السلام ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ﴾[2] ودعا عليهم بالتيه بعد أن قالوا له: ﴿...فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[3].

من أجل هذا ضلوا طريق الأمصار وبقوا في تيهٍ في شبه جزيرة سيناء يقتاتون أوراق الشجر والعيدان الجافة وبقايا الوحوش ويلعقون الندى والماء الكدر حتى ماتوا جميعهم لم يبق منهم إلّا أبناؤهم الذين قادهم يوشع بن نون.

موسى (ع) ومجمع البحرين:

إن الله تعالى كلّم موسى تكليماً وأنزل عليه التوراة، وكتب له الألواح وفيها من كل شيء موعظة وتفصيلاً، وجعل آية في يده وعصاه، وفي الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم وفلق البحر وإغراق فرعون وجنوده، هذه الأمور جعلته يقول في نفسه: ما أرى الله عز وجل خلق خلقاً أعلم مني فأوحى الله إلى جبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يهلك، وقل له: إن عند ملتقى البحرين رجلاً عابداً فاتبعه وتعلم منه.

فهبط جبرئيل على موسى بما أمره به ربه عز وجل فعلّم موسى أن ذلك لما حدثته به نفسه فمضى هو وفتاه يوشع بن نون حتى انتهيا إلى ملتقى البحرين فوجدا هناك الخضر يعبد الله عز وجل كما قال الله

---

(١) سورة المائدة: ٢٥.

(٢) سورة الصَّف: ٥.

(٣) سورة المائدة: ٢٤.

تعالى في كتابه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾[1].

هذا ما جاء في تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمد عمارة عن أبيه عن جعفر بن محمد عليه السلام ـ الإمام الصادق ـ

وهناك أحاديث أخرى نقلت عن الفريقين ـ العامة والخاصة ـ في سبب هبوط جبرئيل على موسى عليه السلام يأمره بالذهاب إلى مجمع البحرين ليلتقي بالعبد الصالح من عباد الله الذي أعطاه علماً لم يعطه لموسى عليه السلام.

امتثل موسى عليه السلام للأمر الإلهي وعزم أن يلتقي بالعبد الصالح ويتعلّم منه بعض ما عنده إن أمكن وأخبر فتاه عما عزم عليه فخرجا قاصدين مجمع البحرين: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾[2] وكان قد أخبره جبرئيل أن يحمل معه حوتاً لا حياة فيه ومتى ما رُدت إليه الحياة وأخذ طريقهُ في البحر سرباً في ذلك المكان سيلتقي بالعبد الصالح، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾[3].

وحينما وصلا مجمع البحرين أخذت موسى عليه السلام سِنة فنام وفي أثناء نومه قفز الحوت بعد ما ردت إليه الروح واتخذ طريقه في البحر سرباً وكانت هذه آية من آيات الله تعالى، شاهدها فتى موسى عليه السلام لكنه نسي أن يذكرها له حتى أستأنفا السير إلى أن أرهقهما الجوع والتعب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾[4]. التفت الفتى لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾[5] أجابه

---

(١) سورة الكهف: ٦٥.
(٢) سورة الكهف: ٦٠.
(٣) سورة الكهف: ٦١.
(٤) سورة الكهف: ٦٢.
(٥) سورة الكهف: ٦٣.

موسى عليه السلام بكل اهتمام قائلاً: ﴿...ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[1] أي رجعا من حيث انطلقا في المكان الذي أووا إليه في موضع الصخرة من مجمع البحرين وإذا التقيا بعبد رحمهُ الله وأنعم عليه بعلم وافر نافع، حيّاهُ موسى عليه السلام فرد التحية بأحسن منها، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾[2] فنظر إليه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾[3] أجابه العبد الصالح: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾[4] العبد الصالح كان متأكداً من أن موسى عليه السلام سوف لا يصبر على ما يجده في ظاهره منكراً وواقعه مجهولاً عليه لأن موسى عليه السلام نبي معصوم وإذا وجد منكراً سوف يعترض، لكن موسى عليه السلام أكّدَ للعبد الصالح أنه سيمتثل ويصبر و﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾[5] فاشترط عليه العبد الصالح و﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾[6] يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان في تفسير هذه الآية: «الظاهر أن (منه) متعلق بقوله: (ذكراً) وإحداث الذكر من الشيء الابتداء به من غير سابقة والمعنى فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء تشاهده من أمري تشق عليك مشاهدته حتى أبتدئ أنا بذكر منه، وفيه إشارة إلى أنه سيشاهد منه أموراً تشق عليه مشاهدتها وهو سيبينها له لكن لا ينبغي لموسى أن يبتدئه بالسؤال والاستخبار بل ينبغي أن يصبر حتى يبتدئه هو بالإخبار»[7].

ويقول أيضاً: «وقد أتى موسى عليه السلام من الخلق والأدب البارع الحري

---

(١) سورة الكهف: ٦٤.
(٢) سورة الكهف: ٦٥.
(٣) سورة الكهف: ٦٦.
(٤) سورة الكهف: ٦٧ ـ ٦٨.
(٥) سورة الكهف: ٦٩.
(٦) سورة الكهف: ٧٠.
(٧) الميزان، مج١٣، ص٣٣٩.

بالمتعلم المستفيد قبال الخضر ـ على ما تحكيه هذه الآيات ـ بأمر عجيب وهو كليم الله.. فكلامه موضوع على التواضع من أوله إلى آخره»[1].

وسار موسى عليه السلام مع العبد الصالح على بركة الله ورأى موسى عجباً من العبد الصالح ما لم يستطع أن يسكت عليه يقول القرآن الكريم:

١ ـ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾[2] إلى آخر الآية.

٢ ـ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾[3] إلى آخر الآية.

٣ ـ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾[4] إلى آخر الآية.

وفي كل من هذه المواقف يدخل موسى عليه السلام الذعر من ارتكاب المنكر ولا يستطيع الصبر ففي الأول قال: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾[5] أي فظيعاً. أجابه العبد الصالح: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾[6] ردّ عليه موسى عليه السلام معتذراً: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾[7].

وفي الموقف الثاني قال موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾[8] إن هذا المنكر بعينه أن تقتل مسكيناً متعمداً فردّ عليه العبد الصالح: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾[9] اعتذر موسى عليه السلام وللمرة الثانية: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾[10].

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) سورة الكهف: ٧١.
(٣) سورة الكهف: ٧٤.
(٤) سورة الكهف: ٧٧.
(٥) سورة الكهف: ٧١.
(٦) سورة الكهف: ٧٢.
(٧) سورة الكهف: ٧٣.
(٨) سورة الكهف: ٧٤.
(٩) سورة الكهف: ٧٥.
(١٠) سورة الكهف: ٧٦.

أما الموقف الثالث فقد سبب الفراق بين موسى والعبد الصالح حيث اعترض موسى عليه السلام عليه ﴿...قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[1] أتصلح الجدار بالمجان لقوم أبوا ضيافتنا ونحن بأمس الحاجة لأخذ الأجر لشراء شيء من الطعام يسد جوعنا، أجابه العبد الصالح وبحسب ما اشترطا عليه ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[2] وأخذ يُعلمه ويشرح له ما لم يستطع عليه صبراً ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾[3] وأما القتل فله سبب مهم قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾[4] ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾[5].

عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ: «وددنا أن كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما»[6].

وما يتحصل من رواية ابن بابويه القمي أن مجمع البحرين من أرض الشامات وفلسطين بقرينة ذكرهما أن القرية التي ورداها هي الناصرة التي تنسب إليها النصارى، وفي بعض الروايات أن الأرض كانت (آذربيجان) وهو يوافق ما في الدر المنثور عن السدي أن البحرين هما الكر والرس حيث يصبان في البحر وأن القرية كان تسمى باجروان وكان أهلها لئاماً، وروي عن أُبي أنه أفريقية، وعن القرظي أنه طنجة وعن قتادة أنه ملتقى بحر الروم وفارس[7].

---

(١) سورة الكهف: ٧٧.

(٢) سورة الكهف: ٧٨.

(٣) سورة الكهف: ٧٩.

(٤) سورة الكهف: ٨٠ ـ ٨١.

(٥) سورة الكهف: ٨٢.

(٦) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٢٩٦.

(٧) الميزان، مج١٣، ص٣٥٠.

تاريخ الخروج من مصر:

تضاربت التواريخ في خروج بني إسرائيل أو بالأحرى موسى ﷺ وقومه من مصر، كما تضاربت في مدة البقاء والإقامة وسنة الدخول وما إلى ذلك، وقد ذكرنا من خلال البحث ما أملته التوراة على التاريخ من أرقام وسنين، وآراء بعض المؤرخين وعلماء الآثار إلّا أن (ونالد ريدفور) له رأي آخر، فهو يضع تلك التواريخ في قفص الاتهام ولعله أقرب إلى الاعتدال يقول: (النموذج الأساسي لـ (عصر الآباء) والنزول في مصر والإقامة والخروج والغزو والقضاة، لا بد وأن يكون صحيحاً بصفة رئيسية ـ أليس هذا النموذج متماسكاً من الناحية المنطقية من الداخل؟ هل تملك نموذجاً أفضل؟ وبالتالي يأخذ البعض في ابتكار حلول كثيرة حاذقة. وقد تمثلت أكثر الحيل شيوعاً في هذا الصدد في تقليص باع الزمن إلى عدة أجيال: وبناءً عليه (يعني الرقم ٤٨٠ سنة) في حقيقة الأمر اثني عشر جيلاً، ولكن أربعين سنة للجيل الواحد فترة طويلة أكثر مما ينبغي، أما عشرون سنة فأقرب للمتوسط، ومن هنا نكون قد تمكنا من تخفيض الرقم (أي الـ ٤٨٠) إلى النصف وهو الأمر الذي يضع (الخروج) حوالى (١٢٥٥ق.م)، بدلاً من (١٤٨٦ق.م)، ويا للعجب ها هو يقع مباشرة خلال حكم الفرعون (رعمسيس الثاني) وبالتالي تكون الإشارة إلى مدينة رعمسيس في سفر الخروج (١١ : ١) قد وجدت تكييفاً بارعاً لها! وعلى نفس المنوال لا بد وأن تكون (٤٣٠) سنة التي مكثها بنو إسرائيل في مصر مكافئاً عجيباً، ببساطة، لأربعة أجيال بالتقريب ـ ألم يبرهن سفر التكوين ١٦ : ١٥ إلى هذا الحد أو ذاك على ذلك؟ وبالتالي فإن (النزول) سيكون قد استقر في منتصف القرن الرابع عشر، أو عند نهاية عصر (اخيناتون) ومع أن الاعمار الهائلة للآباء لم تكن خارجة عن النطاق بالنسبة لمادة سفر (التكوين) مثلما هو الحال معها الآن، بل كانت من الناحية الفعلية مصدر إلهامها»[1].

ويضيف أيضاً قائلاً: «إلّا أن هذه الأعمار جرى اكتساحها هي

---

(١) مصر وكنعان وإسرائيل، دونال ريدفورد، ترجمة بيومي قنديل، ص٣٩٤.

الأخرى أو تحولت إلى تقديرات جيلية عادية، وبالتالي أصبح في وسع (عصر الآباء) (patriarchalage) أن يشمل القرن الخامس عشر ومطلع الرابع عشر ويتكيّف مع الزوايات التوازيات (النوزية) (nuzi) المزعومة وإذا كان المرء لا يزال مبهوراً أمام (التطابقات) التي تسمح ليوسف بالصعود في مدارج السلطة تحت حكم الهكسوس، الذين كانوا ينظرون إليه بعين العطف نظراً لقرابته لهم بصفته سامياً (مع أن قصة يوسف التوراتية تميّز بوضوح بينه وبين الفرعون وبلاطه بصفتهم مصريين)، ثم ماذا لو أسقطنا اعتراضاتنا على السنوات الـ(٤٣٠) سنة وقبلناها حرفياً؟ عندئذ سيكون يوسف قد دخل مصر حوالى (١٦٨٠ق.م)، أي في الوقت بالضبط الذي كان الهكسوس يستولون على الحكم!

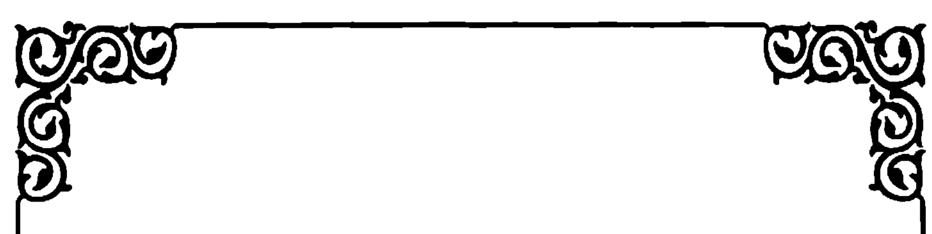
مثل هذا التناول الخشن للأدلة ينضح بالشعوذة وحساب الجُمَّل «تحويل الحروف إلى أرقام في إطار عمليات السحر وكتابة الأحجبة، الخ. المترجم»، ومع ذلك فلقد أدى إلى إرساء الأسس الهشة التي كتب مؤلفون استناداً إليها عدداً مؤسفاً من التواريخ الإسرائيلي إذ يتسم معظم هذه التواريخ بقبول ساذج إلى حدٍ ما للمصادر عند قيمتها الاسمية، مصحوب بالعجز عند تقييم كل دليل في ضوء مصدره ومدى الجدارة بالركون إليه»[1].

فالنتيجة أو خلاصة القول لدولاند ريدفورد أن كل ما ذكر المؤرخون في الغالب مصدرهم التوراة، والتوراة بدورها لا يمكن الاعتماد عليها في ضبط التواريخ. . .

فتاريخ خروج موسى عليه السلام وقومه هرباً من بطش فرعون وتنفيذاً للأمر الإلهي قد لا يكون في تلك السنين التي ذكروها وقد يكشف لنا العلم يوماً ما عن الحقيقة من خلال الآثار والمعطيات الأركيولوجية.

---

(١) المصدر السابق، ص٣٩٤، ٣٩٥.



الفصل التاسع

تيه قوم موسى (ع) في سيناء

١ ـ لصوقهم بالوثنية والحنين إليها

٢ ـ السامري وعبادة العجل

٣ ـ ميقات موسى (ع)

٤ ـ موسى (ع) يطلب رؤية ربه

٥ ـ العقاب بعد عبادة العجل

٦ ـ جزعهم من عدم تنوع الطعام

٧ ـ بقرة قوم موسى (ع)

٨ ـ الأمر بدخولهم الأرض المقدسة

٩ ـ فقدانهم الثقة بالنفس

١٠ ـ تحريم الأرض المقدسة عليهم

١١ ـ فترة التيه في صحراء سيناء

١٢ ـ قارون من قوم موسى (ع)

تيه قوم موسى (ع) في سيناء

من عرف قدر نفسه رفعها إلى سلّم الكمال وصار عند الله تعالى أفضل من الملائكة كما قال الإمام علي ﷺ، ولكن المؤسف أن يترنم الإنسان على الله ويمن بإيمانه عليه ويلجّ ويتمادى في لجاجه حتى يكون كالأنعام بل أضل سبيلاً، وكان بنو إسرائيل من الصنف الأخير في عتوهم وعنادهم.

لقد أنجاهم الله تعالى من آل فرعون وفضّلهم على العالمين وما عرفوا لأنفسهم قدراً، فحنّوا لعبادة البقر حتى أضلهم السامري، وعاقبهم الله تعالى وامتحنهم بقتل أنفسهم، ورفع من فوقهم الطور ثم تاب عليهم وأخذ المواثيق ونقضوها وأنزل عليهم من طيبات الطعام (المنّ والسلوى)، وجزعوا واعترضوا وأرادوا الادنى من الطعام (الثوم والبصل والعدس وما إلى ذلك)، أمرهم الله تعالى أن يدخلوا مصراً من الأمصار ليحصلوا على طعام الارض، وأمرهم بالجهاد ليقضوا على الشرك من خلاله ويدخلوا الأرض المقدسة وينشروا الإيمان بالله، فخافوا وتراجعوا وأمروا نبيهم أن يقاتل هو وربه وينتصرا ليدخلوا هم الأرض، لعدم ثقتهم بالنصر، إذا ما حاربوا لوجود جبّارين فيها (حسب تعبيرهم) فَعاقبهم الله تعالى بالتيه في الأرض أربعين سنة لتُبلى أجسادهم وتُزهق أرواحهم ويأتي جيل جديد علّهُ أحسن حظاً.

وبهذا ظل قوم موسى ﷺ يتدللون على ربهم مرة ويمنّون أخرى ويتكبرون ثالثة وينقضون العهد والميثاق رابعة ويميزون أنفسهم خامسة ويعصون سادسة و. . . و. . الخ.

ومن لم يعرف قدر نفسه يخضع لهواه ويعصي أمر مولاه ويضل الطريق ولا ينال إلّا الغضب الإلهي، والخزي والعار في الدنيا وفي الآخرة العذاب الأليم.

لصوقهم بالوثنية وحنينهم إليها:

اعتاد بنو إسرائيل ومَنْ معهم من المصريين ممن خرج مع موسى ﷺ، اعتادوا أن يعبدوا إلهاً يلمسونه بأيديهم ويقبلونه بشفاههم ويرونه بأعينهم. وحتى لو كانت عبادتهم تختلف بعض الشيء عن عبادة المصريين في توحيدهم للإله وتعدد الآلهة عند المصريين، إلّا أنهم أخذوا الكثير من عبادتهم واختلطت عبادة التوحيد بالتجسيد والتجسيم والتشبيه والتمثيل، فوضعوا لله تمثالاً يُجسدهُ أمامهم، وملأوا معابدهم بالأصنام والتماثيل حتى بُعث فيهم موسى ﷺ وآمنوا برسالته وصدقوه وتركوا كل شيء وراءهم وتبعوه للخروج من مصر والخلاص من التنكيل والتعذيب والاستضعاف.

تبعوا موسى وهارون ﷺ، وأنجاهم الله تعالى والذين آمنوا به، أنجاهم من فرعون وجنوده الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، خلصهم الله تعالى بالمعجزات والخوارق الكونية، وأراهم بأم أعينهم آيات الله التسع ومعجزة العصا واليد وانفلاق البحر وانطباقه على فرعون وجنوده، ورأوا نعم الله تعالى عليهم فيما اشتهت أنفسهم، كل ذلك لم يرسِّخ في عقولهم وحدانية الله وعظمته وأنه الخالق المعبود، بل حنّوا لما ألفوه من وثنية المصريين، وقلدوهم فيها شأن المغلوب في تقليد الغالب، ولم تكن العجائب التي ضربها الله تعالى لهم في فرعون وقومه لتزجرهم عن تلك الوثنية التي طال الفهم لها.

فقد مرّوا في سيناء على قوم عاكفين على أصنام يعبدونها وما أن رأوها حتى عادوا إلى بلادة طبعهم وما رَكَزَ في طبيعتهم من السخف وما استولى على أنفسهم من الغثاثة، طلبوا من موسى ﷺ أن يصنع لهم إلهاً كإله هؤلاء القوم،

قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[1] فأجابهم موسى عليه السلام بالتجهيل والذم واللوم على طلبهم إلهاً سوى الله الذي أراهم العجائب المدهشة وأنجاهم وخصَّهم بالفضل والإكرام: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[2] ثم أكدَّ لهم قائلاً: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾[3].

«المتبر من التبّار وهو الهلاك، والمراد بقوله: ﴿...مَّا هُمْ فِيهِ﴾ سبيلهم الذي يسلكونه وهو عبادة الأصنام والمراد بقوله: ﴿...مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أعمالهم العبادية، والمعنى أن هؤلاء الوثنية طريقتهم هالكة وأعمالهم باطلة فلا يحق أن يميل إليه إنسان عاقل لأن الغرض من عبادة الله سبحانه أن يهتدي به الإنسان إلى سعادة دائمة وخير باق»[4].

قال موسى إن الله تعالى الذي فضلكم على العالمين، تتركون عبادته وشكره وتطلبون مني أن أصنع لكم إلهاً آخر غيره لا ينفع ولا يضر كإله فرعون الذي خذله ساعة العسرة، وجعله أسفل سافلين: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾[5].

«أبغيكم: أي أطلب لكم وألتمس، يُعرّف ربهم ويصفه لهم، وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾[6] في تأسيس أن كل إله أبغيه لكم بجَعْلٍ أو صُنْع فإنما هو غير الله سبحانه، والذي يجب عليكم أن تعبدوا الله ربكم بصفة الربوبية التي هي تفضيله إيّاكم على العالمين»[7].

مع كل التأكيدات والتوضيحات والتعليمات التي قدّمها موسى عليه السلام

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٨.
(٢) سورة الأعراف: ١٣٨.
(٣) سورة الأعراف: ١٣٩.
(٤) الميزان، الطباطبائي، ج٨، ص٢٣٩.
(٥) سورة الأعراف: ١٤٠.
(٦) سورة الأعراف: ١٤٠.
(٧) الميزان، ج٨، ص٢٣٩.

لقومه لبيان صفة الخالق الرب المعبود، مع كل ذلك ظلت فكرة الإله المجسد الملموس المرئي راسخة في أذهانهم، وباتوا يتحينون الفرص لصنع إله صنم يرونه ويقبلونه ويلمسونه ويكلمونه مباشرة، وحين غاب عنهم موسى ﷺ بعد فترة قصيرة لميقات ربه عبدوا عجلاً جسداً له خوار، بعد أن حقق لهم السامري أمنيتهم الدفينة.

السامري وعبادة العجل:

بقي قوم موسى ﷺ يتحينون الفرص لعبادة إله مجسّد أمام أعينهم، وانتهز رجل منهم يقال له السامري نقطة ضعفهم هذه وغياب نبيهم موسى ﷺ بالذهاب إلى ميقات ربه، وطال بهم الانتظار عشرة أيام فوق المدة التي حددها لهم موسى ﷺ، وكان بينهم هارون ﷺ يهديهم إلى طريق الصواب أخلفه عليهم نبيهم موسى ﷺ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[1].

لكنّ السامري أفسد عقول القوم بكل سهولة لوجود الأرضية المناسبة لتقبل فكرته، وأخذ من حليهم التي كانت النساء قد أخذنها من المصريات، وألقاها في النار، فذابت وسبك منها عجلاً وجعله كالعجل الذي اعتادوا عبادته مع المصريين في مصر.

وقد جاء في كتاب أنبياء عاشوا في مصر: «وتذاكر السامري مع قومه ما كانوا يرونه من صورة الآلهة المصرية، فأعجبهم أن يكون إلههم في صورة العجل المقدس (أبيس). لذلك أمر الرجال بشق حفرة عميقة، وأشعل فيها النار، وراحت نساء بني إسرائيل تلقين بحليهن. . حتى غدت هذه الحلي سبيكة. استطاع السامري بمهارته كصائغ أن يشكّلها في صورة عجل، وإيهاماً لهم جعل الهواء يدخل من دبره ليخرج من فمه،

(١) سورة الأعراف: ١٤٢.

فيحدث صوتاً كخوار العجل ثم اتجه إلى قومه وقال لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾[1].

وحاول هارون أن يثني قومه عما يعتقدون... يذكرهم بفضل الله عليهم، قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾[2].

واستطاع هارون بمساعدة بعض الصالحين من قومه مثل يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وناذاب وأبيهو أن يحافظوا على عهدهم لإله موسى بينما انفصل آخرون.. يتشيعون لإله السامري ويهتفون: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[3]، وهكذا انقسم بنو إسرائيل إلى فريقين..»[4].

والسامري رجل من بني إسرائيل خرج معهم من مصر وكان حاسداً للمكانة التي يتمتع بها موسى عليه السلام في قومه، وما أن غاب موسى عليه السلام حتى احتل المكانة التي كان يحلم بها، فاستغل ضعف نفوس القوم، ومعرفته بعلم الهندسة وفنون السحر والحيل والخدع ومهنته كصائغ.

والسامري: نسبة إلى سامر ونطقها في العبرية (شومير) من مادة: شمر: أي حرس، وليس من مدينة السامرة الفلسطينية فإنها لم تكن في تلك الفترة.

وقد ذكر الفيومي في المصباح المنير: «السامريُّ: الذي صنع العِجل وعَبَدَه قيل نِسبةٌ إلى قبيلةٍ من بني إسرائيل يُقال لها (سامر) وقيل: كان عِلجاً منافقاً من كَرمان وقيل: من باجرمى»[5].

---

(١) سورة طه: ٨٨.
(٢) سورة طه: ٩٠.
(٣) سورة طه: ٩١.
(٤) أنبياء عاشوا في مصر، ص١٩٦.
(٥) المصباح المنير، ص٢٨٨.

ميقات موسى (ع):

الميقات في لغة العرب: «الوقت المضروب للشيء والوعدُ الذي جُعلَ له وقتٌ، قال عز وجل: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ﴾[1] ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۝١٧﴾[2] ﴿إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[3] وقد يُقال للمكان الذي يُجعل وقتاً للشيء كميقات الحج»[4].

فالميقات إذن الوقت المعين الذي يُقرر فيه عمل من الأعمال. وموسى عليه السلام واعده ربه في مكان معين ووقت معين أن يتصل به كي يقر له أمراً مهماً وهي الألواح وما فيها من خير وهدى لقومه قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[5].

فقد طلب موسى عليه السلام أن يُنزِل عليه كتاباً فيه الهداية والخير وما يحتاج إليه قومه في أمور دينهم فاستجاب الله تعالى لطلبه وواعده أن يذهب إلى الجبل ـ جبل النور ـ ويعتكف عن قومه ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر أخرى فيكون المجموع أربعين ليلة كاملة.

يقول صاحب تفسير الميزان: «قد ذكر الله سبحانه المواعدة وأخذ أصلها ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر ليالٍ أُخر ثم ذكر الفذلكة وهي أربعون، وأما الذي ذكره في موضع آخر إذ قال: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[6] فهو المجموع المحصل من المواعدتين أعني أن آية البقرة تدل على أن مجموع الأربعين كان عن مواعدة، وآية الاعراف على ما في آية البقرة مجموع المواعدتين»[7].

---

(١) سورة الدّخان: ٤٠.
(٢) سورة النّبَإ: ١٧.
(٣) سورة الواقِعَة: ٥٠.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٥٢٩.
(٥) سورة الأعرَاف: ١٤٢.
(٦) سورة البَقَرَة: ٥١.
(٧) الميزان، مج٨، ص٢٤٠.

ثم يضيف قائلاً: «وبالجملة يعود المعنى إلى أنه تعالى واعده ثلاثين ليلة للتقريب والتكليم ثم وعده عشراً أخر لإتمام ذلك فتم ميقات ربه أربعين ليلة، ولعله ذكر الليالي دون الأيام ـ مع أن موسى مكث في الطور الأربعين بأيامها ولياليها ـ لأن الميقات كان للتقرب إلى الله سبحانه ومناجاته وذكره، وذلك أخص بالليل وأنسب لما فيه من اجتماع الحواس وزيادة في تهيؤ النفس للأنس وقد كان في بركات هذا الميقات نزول التوراة»[1].

والتوراة الحقيقية هي الكتاب المقدس الذي فيه الحق والصدق والهداية والخير والحب بين الناس والوئام والمساواة وعدم التمييز بين خلق الله ووحدة الدم الإنساني، لا كما حرّف اليهود كلام الله وجعلوا من أنفسهم أولياء الله وأحباءَه وطهَّروا دمهم ونجسُّوا دماء غيرهم و. . . و. . . الخ.

نزّل الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام الدستور، لإسعاد قومه بعد عناء وشدة واعتكاف لا يعرف عنه القوم شيئاً، حتى هارون عليه السلام لا يعلمُ عن أخيه شيئاً، أربعون ليلةً موقوتة عند الله تعالى بمكانها وزمانها لوعدٍ إلهي تمَّ بين موسى عليه السلام وربه.

بعد أن تمَّ لموسى عليه السلام ميقات ربه في المكان وهو (جبل النور)، وفي الزمان ثلاثون بإضافة عشرة، نزل عليه الفرقان فيه الهداية والنور والفرق بين الحق والباطل كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾[2].

وذكر هارون هنا لأن الله تعالى جعله وزيراً يهدي القوم مع موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾[3].

رجع موسى عليه السلام من الميقات حاملاً الفرقان، الكتاب الذي فيه الهدى

---

(١) الميزان، مج٨، ص٢٤١.
(٢) سورة الأنبياء: ٤٨.
(٣) سورة الفرقان: ٣٥.

والنور، وما أن اقترب من القوم حتى أدهشه ما رآى عليه القوم من تبعيةِ الأغلبية للسامري وعبادة العجل، صرخ موسى عليه السلام فيهم قائلاً: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾[1].

بَيَّن لهم موسى فعلتهم المخزية، والنعمة التي جاء بها، والنور والهدى بعد ميقات وموعد أتمهما على أكملهما وجاءهم بكتاب سماوي ودستور لحياتهم.

موسى (ع) يطلب رؤية ربه:

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[2] أجابه الله تعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾[3].

ذكر أصحاب التفاسير وبالإجماع أن موسى عليه السلام ـ بعد أن اعتكف في الجبل واعتزل القوم وصام وقام لربه في الميقات ـ كلّمهُ الله تعالى تكليماً مباشراً فطمع موسى عليه السلام أن يرى الله تعالى على هيئته، لكنّ الله تعالى أكّدَ له قصوره عن رؤية ربه وعدم قابلية المخلوقات على رؤية الله تعالى، فقال له: إذا تحمَّل هذا الجبل الشاهق المكوّن من مادة أصلب وأقوى وأكثر ثباتاً في الأرض وأطول عمراً من الإنسان، إذا تحمل هذا الجبل رؤية ربه وبقي على حاله واستقراره فسوف تراني أنت كذلك، امتثل موسى عليه السلام لكلام ربه وأخذ ينظر إلى الجبل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4] فلما تجّلى الله تعالى للجبل الشاهق القوي غاص الجبل في الأرض وتفتت وسقط موسى على الأرض مغشياً عليه كمن أخذته

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٠.
(٢) سورة الأعراف: ١٤٣.
(٣) سورة الأعراف: ١٤٣.
(٤) سورة الأعراف: ١٤٣.

الصاعقة وذلك لما هاله من صوت تحطم الجبل حين صار فتاتاً، يقول صاحب الميزان: «التجلّي مطاوعة التجلية من الجلاء بمعنى الظهور، والدكّ هو أشد الدق، وجعله دكاً أي مدكوكاً والخرور هو السقوط، والصعقة هي الموت أو الغشية بجمود الحواس وبطلان إدراكها، والإفاقة الرجوع إلى حالة سلامة العقل والحواس يقال: أفاق من غشيته أي رجع إلى حال استقامة الشعور والإدراك»[1].

أما في مفهوم الرؤية فيقول: «والذي يعطيه التدبر فيها من حديث الرؤية والنظر الذي وقع في الآية إذا عرضناه على الفهم العامي المتعارف حملهُ على رؤية العين ونظر الإبصار، ولا نشك ولن نشك أن الرؤية والإبصار يحتاج إلى عمل طبيعي في جهاز الإبصار يهيئ للباصر صورة مماثلة لصورة الجسم المبصر في شكله ولونه، بالجملة هذا الذي نسميه الإبصار الطبيعي يحتاج إلى مادة جسمية في المبصر والباصر جميعاً، وهذا لا شك فيه»[2].

وفي مجال جواز الرؤية أو عدم جوازها واستحالتها قال: «والتعليم القرآني يعطي إعطاءً ضرورياً أن الله تعالى لا يماثلهُ شيء بوجه من الوجوه البتة فليس بجسم ولا جسماني، ولا يحيط به مكان ولا زمان، ولا تحويه جهة ولا توجد صورة مماثلة أو مشابهة له بوجه من الوجوه في خارج ولا ذهن البتة.

وما هذا شأنه لا يتعلق به الإبصار بالمعنى الذي نجده من أنفسنا البتة ولا تنطبق عليه صورة ذهنية لا في الدنيا ولا في الآخرة ضرورة، ولا أن موسى ذاك النبي العظيم أحد الخمسة أولي العزم وسادة الأنبياء ﷺ ممن يليق بمقامه الرفيع وموقفه الخطير أن يجهل ذلك، ولا أن يمني نفسه بأن الله تعالى سبحانه أن يقوي بصر الإنسان على أن يراه ويشاهده

(١) الميزان، مج٨، ص٢٤٢.
(٢) الميزان، مج٨، ص٢٤٢.

سبحانه منزهاً عن وصمة الحركة والزمان، والجهة والمكان، وألوان المادة الجسمية وأعراضها فإنه قول أشبه بغير الجد منه بالجد فما محصل القول: إن من الجائز في قدرة الله أن يقوي سبباً مادياً أن يعلق عمله الطبيعي المادي ـ مع حفظ حقيقة السبب وهوية أثره ـ بأمر هو خارج عن المادة وآثارها متعال عن القدر والنهاية؟ فهذا الإبصار الذي عندنا وهو خاصة مادية من المستحيل أن يتعلق بما لا أثر عنده من المادة الجسمية وخواصها فإن كان موسى يسأل الرؤية فإنما سأل غير هذه الرؤية البصرية، وبالملازمة ما ينفيه الله سبحانه في جوابه فإنما ينفي غير هذه الرؤية البصرية فأما هي فبديهية الانتفاء لم يتعلق بها سؤال ولا جواب»[1].

والجدير بالذكر: أن السيد الطباطبائي يخالف مشهور المفسرين الذين يؤولون الرائي لا الرؤيا[2].

هذا، وبعد أن أفاق موسى عليه السلام من غشيته ورجع إلى حال استقامة الشعور والإدراك، تاب إلى الله تعالى مما طلب من رؤيته كّلمهُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾[3] ثم بيّن له المحتوى الذي تحمله الألواح قال تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[4] إلى آخر الآية.

العقاب بعد عبادة العجل:

بعد امتحان صعب دخله موسى عليه السلام، نزل عليه الكتاب فيه من كلِ شيء موعظة وتفصيل لكل شيء، فيه خير الدنيا والآخرة لقومه، ولكن بعودته إليهم رأى القوم قد عكفوا على عجلٍ يعبدونه من دون الله، غضب وتألم وتأسف

---

(١) المصدر السابق، ص٢٤٣.
(٢) راجع كتاب مراجعات في عصمة الأنبياء، عبد السلام زين العابدين.
(٣) سورة الأعراف: ١٤٤.
(٤) سورة الأعراف: ١٤٥.

عليهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾[1] تسأل هارون لموقف أخيه مبيناً له ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] تراجع موسى عليه السلام عن موقفه هذا بعد أن عرفَ الحقيقة من أخيه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾[3] وبيّن موسى عليه السلام أمام قومه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾[4].

ثم تُكمل الآيات الكريمة من صورة الأعراف موقف موسى عليه السلام مع قومه حينما رآهم قد انحرفوا عن عبادة الله الواحد الأحد وقد أشركوا به من خلال عبادتهم العجل تقول الآيات الكريمة: إن موسى عليه السلام قال لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾[5] ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾[6].

ثم جمعهم موسى عليه السلام وقال لهم يجب عليكم أن تتوبوا إلى الله تعالى ولا تتحقق هذه التوبة إلّا بالامتثال لأمر الله تعالى وهو أن تقتلوا أنفسكم، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾[7] يقول صاحب تفسير الميزان في تفسير هذه الآية: «فكأنه تعالى يقول: هذه التوبة وقتلكم أنفسكم وإن كان أشق ما يكون من الأوامر لكن الله الذي أمركم بهذا الفناء والزوال بالقتل هو الذي برأكم

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٠.
(٢) سورة الأعراف: ١٥٠.
(٣) سورة الأعراف: ١٥١.
(٤) سورة الأعراف: ١٥٢.
(٥) سورة الأعراف: ١٥٣.
(٦) سورة الأعراف: ١٥٤.
(٧) سورة البقرة: ٥٤.

فالذي أحب وجودكم وهو خير لكم هو يوجب الآن حلول القتل عليكم فهو خير لكم وكيف لا يحب خيركم وقد برأكم، فاختيار لفظ البارئ بإضافته إليهم في قوله: ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾، وقوله: ﴿عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ للإشعار بالاختصاص لإثارة المحبة»[1].

ويقول أيضاً: «قوله تعالى: ﴿...ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾، ظاهر الآية وما تقدمها أن هذه الخطابات وما وقع فيها من عدّ أنواع تعدياتهم ومعاصيهم انما نسبت إلى الكل مع كونها صادرة عن البعض لكونهم جامعة ذات قومية واحدة يرضى بعضهم بفعل بعض، وينسب فعل بعضهم إلى الآخرين لمكان الوحدة الموجودة فيهم، فما كل بني إسرائيل عبدوا العجل، ولا كلهم قتلوا الأنبياء إلى غير ذلك من معاصيهم وعلى هذا فقوله ﴿...فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾، انما يعني به قتل البعض وهم الذين عبدوا العجل كما يدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾، تتمة الحكاية من قول موسى كما هو الظاهر، وقوله تعالى: ﴿...فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يدلّ على نزول التوبة وقبولها، وقد وردت الرواية أن التوبة نزلت ولما يقتل جميع المجرمين منهم.

ومن هنا يظهر أن الأمر كان أمراً امتحانياً نظير ما وقع في قصة رؤيا إبراهيم عليه السلام وذبح إسماعيل ﴿...يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾[2]، فقد ذكر موسى عليه السلام ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾[3]، وأمضى الله تعالى سبحانه قوله عليه السلام وجعل قتل البعض قتلاً للكل وأنزل التوبة بقوله﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[4][5].

ثم أخذ الله تعالى منهم ميثاقاً للطاعة وعدم العصيان، لكنهم أُشربوا

---

(١) الميزان، مج١، ص١٨٨.
(٢) سورة الصافات ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٣) سورة البَقَرَة: ٥٤.
(٤) سورة البَقَرَة: ١٨٧.
(٥) الميزان، مج١ ص١٨٩.

في قلوبهم العجل بكفرهم فعاقبهم الله تعالى برفع جبل الطور عليهم ليقضي عليهم إلّا أن دعاء موسى عليه السلام خلّصهم من عقاب الله ونصحهم وأخذ منهم ميثاقاً آخر وآخر ولكن في كل مرة ينقضون المواثيق، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾[1] لكنهم أجابوا معترفين بعصيانهم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

«الإشراب هو السقي، والمراد بالعجل حب العجل، وضع موضعه للمبالغة كأنهم قد أشربوا نفس العجل وبه يتعلق قوله في قلوبهم، ففي الكلام استعارتان أو استعارة ومجاز»[3].

وفي سورة الأعراف ذكر الله تعالى نتق الجبل عليهم قال فيهم: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾[4].

فالجبل هو جبل الطور رفعهُ الله تعالى كأنه المظلّة فوقهم وكان ظنهم أنه سيقع عليهم ويقتلهم. وأمرهم الله تعالى أن يأخذوا ما أتاهم موسى عليه السلام من الأحكام ليطبقوها بدون تذمر أو توقف، وأن يحافظوا ويذكروا ما فيها بالعمل به لعل العمل بالاحكام تحدث عندهم ملكة التقوى والوقاية من الذنوب والمعاصي.

يقول القمي في تفسيره عن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ الآية قال الصادق عليه السلام: لمّا أنزل الله التوراة على بني إسرائيل لم يقبلوه فرفع الله

---

(١) سورة البقرة: ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) سورة البَقَرَة: ٩٣.

(٣) الميزان، مج١، ص٢٢٠.

(٤) سورة الأعراف: ١٧١.

عليهم جبل طور سيناء فقال لهم موسى عليه السلام إن لم تقبلوا وقع عليكم الجبل فقبلوه وطأطئوا رؤوسهم.

وصاحب الميزان يذكر: «على أنه كان لإرهابهم بعظمة القدرة من دون أن يكون لإجبارهم وإكراههم على العمل بما أوتوه وإلّا لم يكن لأخذ الميثاق وجه، فما ربما يقال: إن رفع الجبل فوقهم لو كان على ظاهره كان آية معجزة وأوجب إجبارهم وإكراههم على العمل. وقد سأل سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[2]، غير وجيه فإن الآية كما مرّ لا تدل على أزيد من الإخافة والإرهاب ولو كان مجرد رفع الجبل فوقهم إكراهاً لهم على الإيمان أو العمل لكان أغلب معجزات موسى موجبة للإكراه»[3].

وعقاب آخر تحدث عنه القرآن الكريم بعد أن سكت عن موسى الغضب أخذ ما أنزل عليه من الكتاب الذي عبّر عنه القرآن الكريم بالألواح ثم اختار من قومه سبعين رجلاً لميقات ربهم وهناك أخذتهم الرجفة والخوف من الهلاك الذي سيقع بهم قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾[4] هنا دعا موسى عليه السلام ربه: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾[5] يقول الشيخ محمد جواد مغنية في تفسير الآية: لقد أطال المفسرون الكلام حول هذه الآية، وتضاربت أقوالهم في تفسيرها. فاختلفوا في بيان الميقات هل هو ميقات نزول التوراة أو غيرهُ؟ وأيضاً اختلفوا لماذا اختار موسى من قومه سبعين رجلاً للخروج إلى الميقات: هل لأنهم اتهموا موسى، وقالوا له: لن

---

(١) سورة البَقَرَة: ٢٥٦.
(٢) سورة يُونس: ٩٩.
(٣) الميزان، مج١، ص١٩٧.
(٤) سورة الأعرَاف: ١٥٥.
(٥) سورة الأعرَاف: ١٥٥.

نؤمن لك حتى نسمع كلام الله كما سمعته أنت، فصحبهم معه ليسمعوا كما سمع، أو لسبب آخر؟ وأيضاً اختلف المفسرون في السبب الذي من أجله عاقبهم الله. وبالتالي اختلفوا: هل أدت الرجفة بهم إلى الموت، أو أنها كادت أن تقصم ظهورهم، وتقطع مفاصلهم، ولم تبلغ بهم إلى الموت»[1].

وفي الميزان يقول المؤلف: «والآية تدل على أن الله سبحانه عيّن لهم ميقاتاً فحضره منهم سبعون رجلاً اختارهم موسى من القوم، ولا يكون ذلك إلا لأمر ما عظيم لكن الله سبحانه لم يبين ههنا ما هي الغاية المقصودة من حضورهم غير أنه ذكر أنهم أخذتهم الرجفة ولم تأخذهم إلّا لظلم عظيم ارتكبوه حتى أدى بهم إلى الهلاك بدليل قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾[2] فيظهر أن الرجفة أهلكتهم»[3].

ويضيف قائلاً: «ويتأيد بذلك أن هذه القصة هي التي يشير سبحانه إليها بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[4]، وبقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ﴾[5][6].

جزعهم من عدم تنوع الطعام:

وصلت بقوم موسى عليه السلام الاعتراضات واللجاجات إلى أنهم اعترضوا على ربهم بعدم صبرهم على نوع واحد من الطعام فإن أنفسهم تهوى التنويع والتشكيل، فقد نزّل الله تعالى عليهم وهم في صحراء سيناء التي لا زرع فيها

---

(١) الكاشف، المجلد الثالث، ص٤٠١.
(٢) سورة الأعرَاف: ١٥٥.
(٣) الميزان، مج٨، ص٢٧٥.
(٤) سورة البقرة: ٥٥ ـ ٥٦.
(٥) سورة النِّسَاء: ١٥٣.
(٦) الميزان، مج٨، ص٢٧٥.

ولا ماء، أنزل الله عليهم ألذ الطعام وأشهاه وأسهله على الهضم وهو طائر السلوى المشوي والمنّ المادة الشهية التي تشبه العسل وألذ، منَّ الله تعالى عليهم بهذا الطعام الجاهز اللذيذ الشهي والسهل الهضم لكي يساعدهم على مصاعب الصحراء والسفر، لكنهم طلبوا ما هو أدنى، طلبوا الخيار والفوم والبصل والعدس وقيل: الفوم الحنطة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[1] أجابهم موسى عليه السلام رداً عليهم: ﴿...قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[2] وكان رد موسى عليه السلام طبيعياً لأن المكان الذي هم فيه غير قابل لزراعة المحاصيل هذه، ثم عدم استقرارهم في الصحراء وسفرهم وتنقلهم من مكان إلى مكان يستحيل عليهم هذا الطلب «قد يكون طلبهم البقول والعدس والبصل وأخواتها وسيلة من الله تعالى لتنبيههم إلى طلبهم لا يكون إلّا إذا نزلوا مصراً من الأمصار، تجبى إليه ثمرات ريفهِ، وتجلب إليه خيرات الأرض الزراعية القريبة منه، حتى إذا علموا بذلك كان مغرياً لهم بمنازلة أعدائهم ومكاثرتهم حتى يملكوا عليهم مدينتهم للانتفاع بريفها والحاصلات التي تجبى إليها. ولكن ذلك لم يوقظ همتهم التي أخمدها ظلم فرعون وآله وما صبّ على رؤوسهم من المصائب في الأحقاب الطويلة التي جعلت الخنوع والذلة خُلقاً مركّزاً فيهم»[3] ويقول الله تعالى في تكملة الآية الشريفة: ﴿...وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾[4] «كانوا أعزاء مستقلين يأتيهم رزقهم رغداً، فأبوا إلّا الزراعة والصناعة والتجارة، وكل ذلك يستدعي التنافس والحروب، وهي تستدعي الفشل وذهاب الريح»[5]

---

(١) سورة البقرة: ٦١.

(٢) سورة البقرة: ٦١.

(٣) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٢١٢.

(٤) سورة البقرة: ٦١.

(٥) الكاشف، مج١، ص١١٦.

بينما الله تعالى دللهم أحسن الدلال فهيأ لهم الأكل والشرب والظلّ والراحة والخلاص من فرعون، كلُ هذا نسوه وظلموا أنفسهم بأيديهم حتى باؤوا بغضبٍ من الله وما يظلمُ الله العباد ولا العباد يظلمون الله ولكن أنفسهم يظلمون، قال تعالى: ﴿...وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[1].

ولعل الحقيقة في طلبهم الفوم والعدس والبصل وما إلى ذلك لأنهم اعتادوا على هذا الطعام ولم يعتادوا على أكل الأكابر، فقد كان أكل العمال والخدم والفلاحين والفقراء هو ما يزرع على ري النيل لقلة سعره وكلفته، وقد جاء في احدى البرديات تسجيل لمقدار ما استهلكه العمال من هذا النوع من الطعام يقول ول ديورانت: «وقد احتفظ لنا هيرودوت بنقشٍ وجده على هرم منها يسجل مقدار ما استهلكه العمال الذين شادوه من فجل وثوم وبصل، كأن هذه أيضاً أشياء لا بد لها أن تخلد»[2].

وكان البصل وغيره من عطاءات النيل تعبد من دون الله: «بل إن الخضر الوضيعة قد وجدت لها من يعبدها، حتى لقد أخذ تين Taine يلهر بالتدليل على أنَّ البصل الذي أغضب بوسويه Bossuet وأحفظه كان من المعبودات على ضفاف النيل»[3].

«استمع مثلاً إلى ما تقوله أم والهة تريد أن تبعد (الشياطين) عن طفلها: اخرج يا من تأتي في الظلام، وتدخل خلسة. . . .إلى أن تقول: لقد حصنتهُ منك بعشب (إفيت) الذي يؤلمك، وبالبصل الذي يؤذيك. .»[4].

---

(١) سورة الأعراف: ١٦٠.

(٢) قصة الحضارة، مج١، ج٢، ص٥١.

(٣) المصدر السابق، ص١٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ١٥٧.

فالبصل يؤذي الشياطين هو وبقية أعشاب الأرض التي يهبها النيل للمصريين بينما الآلهة يتقربون إليها بهذه المزروعات: «ولقد ظل المصري الساذج إلى آخر أيام حضارته يقرب إليها ـ الآلهة ـ قرابين الخيار والعنب والتين. . .»[1] وبما أن بني إسرائيل خالطوا المصريين جيلاً بعد جيل فقد أخذوا منهم أغلب العادات إذا لم نقل كلها، وأصبحت جزءاً من حياتهم.

بقرة قوم موسى (ع):

نزلت سورة من القرآن الكريم باسم سورة البقرة تحكي لنا في فصل منها عن بقرة قوم موسى ﷷ بكل تفاصيلها ولونها وحجمها و. . .الخ وكانت آية من الآيات التي بيَّنت لهم عظمة الله وقدرته، أمرهم الله تعالى على لسان موسى ﷷ أن يذبحوا بقرةً لأنهم تدارؤوا بينهم بدم القتيل: أي أخذ كلٌّ منهم يتهم الآخر أنهُ القاتل، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة ويضربوا المقتول ببعضها فيحييه الله بإذنه فيشير على قالته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾[2] ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾[3].

الكلام موجه إلى قوم موسى ليمتثلوا للأمر الإلهي بذبح بقرة، لكنهم بطبيعتهم المضطربة حاولوا تصعيد الموقف لصالحهم، أخذوا وأعطوا مع موسى بعد أن أمرهم بذبح بقرة بدون أي تفاصيل أو تعب في الحصول عليها: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[4] ردوا عليه قائلين يا موسى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾[5] أجابهم ﷷ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ

---

(١) المصدر السابق.
(٢) سورة البَقَـرَة: ٧٢.
(٣) سورة البَقَـرَة: ٧٣.
(٤) سورة البَقَـرَة: ٦٧.
(٥) سورة البَقَـرَة: ٦٧.

ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1] استمروا معه بتصعيد الموقف ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾[2] لم يستجيبوا ولم يمتثلوا ولم يطيعوا واستمروا في اللجاج: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾[3] لم ينفع معهم هذا البيان والتعريف ولا ذاك، فتمادوا في السؤال والاستفسار: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[4] بعد الدقة عليهم بالبيان استسلموا للحق الذي لا مهرب منه «فلمّا تم عليهم البيان ولم يجدوا ما يسألونه قالوا الآن جئت بالحق قول من يعترف بالحقيقة بالإلزام والحجة من غير أن يجد إلى الرد سبيلاً، فيعترف بالحق اضطراراً، ويعتذر عن المبادرة إلى الانكار بأن القول لم يكن مبيناً من قبل، ولا بيناً تاماً، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾...»[5].

هكذا كان طبع قوم موسى عليه السلام لا طاعة لهم لنبيهم إلّا بعد لجاجٍ وعناد وعتو مع علمهم انه لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحيٌ يوحى، وهذه صفة كل الأنبياء لعصمتهم الإلهية.

«وزعموا أن ليس للإنسان أن يقبل قولاً إلّا عن دليل، وهذا حق، لكنهم غلطوا في زعمهم أن كل حكم يجب العثور على دليله تفصيلاً ولا يكفي في ذلك الإجمال ومن أجل ذلك طالبوا تفصيل أوصاف البقرة لحكمهم أن نوع البقر ليس فيه خاصة الإحياء، فإن كان ولا بد فهو في فرد خاص منه يجب

---

(١) سورة البَقَرَة: ٦٧.
(٢) سورة البقرة: ٦٨.
(٣) سورة البَقَرَة: ٦٩.
(٤) سورة البقرة: ٧٠.
(٥) الميزان، الطباطبائي، ج١، ص٢٠١.

تعينه بأوصاف كاملة البيان ولذلك قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، وهذا تشديد منهم على أنفسهم من غير جهة فشدد الله عليهم»[1].

بعد كل هذه الرحمة واللطف الإلهي وبيان الحق في إظهار مرتكب جريمة القتل إلّا أنهم بعد ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[2].

وبدل أن تلين قلوبهم لآيات الله البينات والمعجزات الواضحات ورسوخ الإيمان في قلوبهم من جرّاء ذلك، سلكوا الاتجاه المعاكس للّين والاستسلام لأمر الله بالطاعة والإيمان، قست قلوبهم لفقدهم روح الطاعة والسمع واستقرار حالة الاستكبار والعتو في أنفسهم.

الأمر بدخولهم الأرض المقدسة:

وجاء دور الجهاد ودخول الأرض المقدسة ليستقروا بعد رحلةٍ شاقة وامتحانات واختبارات لم يحصلوا عليها برتب عالية، إلّا أن البارئ غفورٌ رحيم أراد لهم الراحة والاستقرار والمكان المقدسّ الذي يليق بمن يُوحد الله تعالى، لكنهم كعادتهم في كل امتحان وفي كل اختبار أبت نفوسهم الطاعة والامتثال للأمر الإلهي من أول وهلة.

قال موسى عليه السلام لقومه يخاطبهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾[3] وكعادتهم في كل أمرٍ إلهي على لسان نبيّه موسى عليه السلام أجابوه بالرد بعدم الامتثال لأن فيها من هو أقوى منهم فتراءى لهم شبح الهلاك في القدوم على هذه البلاد ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[4].

---

(١) الميزان، الطباطبائي، ج١، ص٢٠١.
(٢) سورة البقرة: ٧٤.
(٣) سورة المائدة: ٢١.
(٤) سورة المائدة: ٢٢.

بين هؤلاء المعاندين رجلان يخافان الله، أيدا موسى عليه السلام ونصحا القوم بالامتثال وسوف يكون الله تعالى معهم ليكونوا الغالبين بعد توكلهم على الله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1] لكن قوم موسى عليه السلام لم يسمعوا ولم يعوا لكلامهما، التفتوا إلى موسى عليه السلام رادين عليه بالحرف الواحد: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾[2] ووصلت بهم الجرأة أن قالوا له: ﴿...فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[3].

ذكرت التوراة موقف قوم موسى عليه السلام هذا مبتوراً، غير صريح، بل فيه ما تقتضي مصلحة كاتبيها، فقد جاء فيها: «الرب إلهنا كلمنا في حوريب قائلاً: (كفاكم قعوداً في هذا الجبل)، تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من قرية والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعاني ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات، انظروا قد جعلتُ أمامكم الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم»[4].

هذا النص التوراتي وغيره لا يبين جبنهم وعدم طاعتهم لنبيهم وعصيانهم إياه وقولهم: ﴿...إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾[5].

هذا الشرط، وهذا القرار الذي اتخذوه لأنفسهم أفسد عليهم الراحة في الاستقرار والأمان حتى خسروا الدنيا والآخرة، وقد حذرهم نبيهم موسى عليه السلام من هذا الخسران لكنهم فضّلوه على سعادة الدنيا والآخرة، فقد قال لهم موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ

---

(١) سورة المائدة: ٢٣.
(٢) سورة المائدة: ٢٤.
(٣) سورة المائدة: ٢٤.
(٤) سفر التثنية، الإصحاح الأول، العدد ٦ ـ ٧ ـ ٨.
(٥) سورة المائدة: ٢٤.

لَكُمْ﴾[1] أقرّها لهم، أرادها لإسعادكم واستقراركم وراحتكم ثم قال لهم ناصحاً: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾[2] ضربوا هذه النصيحة عرض الجدار وارتدوا على أدبارهم فخسروا كل شيء فأضاعها عليهم وراحوا يتخبطون في الأرض لا يعلمون طريقها أربعين عاماً، حتى انتهت المدة المقررة في العقاب وانتهى الجيل الجبان، لكن دعوة موسى ما زال مفعولها جارياً في كل أجيالهم لوراثة الطبع والمزاج، فقد دعا عليه النبي موسى عليه السلام أن يفرق الله بين المقدسات وبين كل فاسق قال: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[3] وقال الله تعالى بعد أن حرّمها عليهم وأتاههم أربعين سنة قال لموسى عليه السلام: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4].

يقول صاحب تفسير الميزان: «أمرهم ـ موسى ـ بدخول الأرض المقدسة، وكان يستنبط من حالهم التمرد والتأبّي عن القبول، ولذلك أكد أمره بالنهي عن الارتداد وذكر استتباعه الخسران. والدليل على أنه كان يستنبط منهم الرد توصيفه إياهم بالفاسقين عليهم الدال على نوع من الاستمرار والتكرار.

وقد وصف الأرض بالمقدسة، وقد فسروه بالمطهرة من الشرك لسكون الأنبياء والمؤمنين فيها، ولم يرد في القرآن الكريم ما يفسّر هذه الكلمة. والذي يمكن أن يستفاد منه ما يقرب من هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[5]وليست المباركة في الأرض إلّا جعل الخير الكثير فيها، ومن الخير الكثير وإقامة الدين وإذهاب قذارة الشرك»[6].

---

(١) سورة المائدة: ٢١.
(٢) سورة المائدة: ٢١.
(٣) سورة المائدة: ٢٥.
(٤) سورة المائدة: ٢٦.
(٥) سورة الإسراء: ١.
(٦) الميزان، مج٥، ص٢٩٤.

فقدانهم الثقة بالنفس:

هناك أسباب لفقدان قوم موسى ثقتهم بأنفسهم، ولعل أهمها موقعهم في المجتمع المصري قبل رحيلهم إلى سيناء ثم الأعمال التي كانوا يمارسونها فهي وضيعة في المجتمع مما أضعفت نفوسهم، وكذلك ممارسة آل فرعون على أغلبهم بالتعذيب والتنكيل.

ثم إن حالة عدم الامتثال للأمر الإلهي وعدم الطاعة تضعف الثقة بالنفس وتثبّط العزيمة والإرادة، وعدم الإيمان الخالص بالله ونبيه أهمها، ونسيان الله والآخرة كلها عوامل مثبطة.

فحينما يطلب موسى عليه السلام من قومه دخول الأرض المقدسة يردوا عليه إن فيها قوماً جبّارين لا نستطيع مواجهتهم أبداً أي إننا أضعف منهم، بينما نرى موسى عليه السلام يخبرهم بأنهم الغالبون إذا دخلوا، ومع هذا قالوا لن ندخل أبداً لخوفهم من المواجهة، ثم هناك ملاحظة أخرى لعلها سبب في عدم قدرتهم على المواجهة وهي: حينما يكون الإنسان وضيعاً ذليلاً حقيراً في فترة من فترات حياته ثم يرى نِعم الله عليه نازلةً، فخلاصهم من فرعون وآله وانفلاق البحر والظل الذي كان يسير معهم يغطّي عنهم حرارة الشمس وشدتها في صحراء قاحلة ونزول طعام لذيذ شهي مطبوخ على أكمل وجه، ثم الأنهر الاثنا عشر وماؤها العذب والترنم على موسى، وطلباتهم ﴿يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[1] وما إلى كل هذا حوّل نفوسهم الضعيفة إلى الخدر والراحة والمن على الله تعالى ونبيه بإيمانهم والتهكم بمقام موسى عليه السلام، حيث يذكر صاحب تفسير الميزان في عصيانهم بعدم دخول الأرض المقدسة يقول:

«تكرارهم قولهم ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ﴾[2] ثانياً لإيئاس موسى عليه السلام من أن يصر على دعوته فيعود إلى الدعوة بعد الدعوة.

(١) سورة الأعراف: ١٣٤.

(٢) سورة المائدة: ٢٤.

وفي الكلام وجوه من الإهانة والإزراء والتهكم بمقام موسى وما ذكرهم به من أمر ربهم ووعده، فقد سرد الكلام سرداً عجيباً، فهم أعرضوا عن مخاطبة الرجلين الداعيين إلى دعوة موسى عليه السلام أولاً، ثم أوجزوا الكلام مع موسى بعد ما أطنبوا فيه بذكر السبب والخصوصيات في بادئ كلامهم، وفي الإيجاز بعد الإطناب في مقام التخاصم والتجاوب دلالة على استملاك الكلام وكراهة استماع الحديث أن يمضي عليه المتخاصم الآخر. ثم أكدوا قولهم: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾[1] ثانياً بقولهم: ﴿أَبَدًا﴾[2] ثم جرّأتهم الجهالة على ما هو أعظم من ذلك كله، وهو قولهم مفرعين على ردهم الدعوة: ﴿...فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[3].

وفي الكلام أوضح الدلاله على كونهم مشبهين كالوثنيين، وهو كذلك فإنهم القائلون على ما يحكيه الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[4] ولم يزالوا على التجسيم والتشبية حتى اليوم على ما تدل عليه كتبهم الدائرة بينهم»[5].

والذي يهمنا من هذا القول إنهم استهانوا بمقام موسى وما ذكّرهم به من أمر ربهم ووعده، على أنه مدرك جبنهم وعدم قدرتهم على المواجهة بل هم أقل من مستوى الجهاد والفتح فكيف يأمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، بالرغم من أنه ذكر لهم إذا دخلوها سيكونون الغالبين، أي إذا لم تكن لهم ثقة بأنفسهم فلتكن لهم ثقة بالله تعالى بأنه ناصرهم لكنهم أصرّوا على رأيهم بعدم الدخول، وبدلاً من أن يكونوا الغالبين أصبحوا من الخاسرين.

---

(١) سورة المائدة: ٢٢.

(٢) سورة المائدة: ٢٤.

(٣) سورة المائدة: ٢٤.

(٤) سورة الأعراف: ١٣٨.

(٥) الميزان، مج٥، ص٢٩٨.

يقول ابن خلدون: «إن نفس بني إسرائيل كانت صغيرة ضئيلة لأنهم رئموا الذل والهوان في ملك المصريين ومَن كان كذلك لا يصلح لقتال واستقلال! ولذلك ذابت قلوبهم في صدورهم وملأ الخوف أنفسهم حين أمروا بقتال أولئك الجبارين»[1]

تحريم الأرض المقدسة عليهم:

اتفق المفسرون على أن الأرض المقدسة هي فلسطين لوجود بيت المقدس، المكان الذي قدسته السماء والأنبياء جميعاً، وبما أن قوم موسى ﷺ موحدون مؤمنون بالله، فلا تليق بهم أرض غيرها في ذلك الزمان، أراد لهم الله تعالى أن يدخلوها مجاهدين في سبيله بقيادة موسى وهارون ﷺ.

فجاءت أوامر السماء لموسى ﷺ أن يأمر قومه بدخولها، قال لهم ممتثلاً لأوامر الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾[2].

لكنّ القوم آثروا القرار المؤدي إلى الخسران إلّا قليلاً منهم، فقد ذكر القرآن الكريم رجلين من الذي يخافون أنعم الله عليهما كانوا ناصحين، لكنهم فشلوا لأن الأغلبية قرروا التمرد والعناد بعدم الدخول حتى يخرج أهلها منها أو يذهب موسى ﷺ وربه يقاتلان فينتصرا ثم يدخل الشعب المدلل!!

وكانت النتيجة الطبيعية للجاجهم وعتوهم وعنادهم في إصرارهم بعدم دخولها وقولهم ﴿لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا﴾[3] متحدّين كلام نبيهم موسى ﷺ وأمر الله تعالى، فكانت النتيجة الطبيعية أن حرّمها الله تعالى على من لجّ

(١) مقدمة ابن خلدون، نقلاً عن قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص٢٢٧.
(٢) سورة المائدة: ٢١.
(٣) سورة المائدة: ٢٤.

وعتا، تحريماً أبدياً، فقال تعالى لنبيه الكليم ﷺ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾[1] «الضمير في قوله: (فإنها) راجع إلى الأرض المقدسة، والمراد بالتحريم التحريم التكويني وهو القضاء...»[2].

وذكرت التوراة في هذا الشأن على لسان كاتبيها: «وسمع الرب صوت كلامكم فسخط وأقسم قائلاً: لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير، الأرض الجيدة التي أقسمتُ أن أعطيها لآبائهم، ما عدا -كالب بن يفنة هو يراها وله أعطي الأرض التي وطأها ولبنيه لأنه اتبع الرب تماماً، وعلى أيضاً غضب الرب بسببكم قائلاً: وأنت أيضاً لا تدخل إلى هناك، يوشع بن نون الواقف أمامك هو يدخل إلى هناك شدده لأنه هو يقسمها لإسرائيل، وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة، وبنوكم الذين لم يعرفوا اليوم الخير والشر فهم يدخلون إلى هناك»[3].

فترة التيه في صحراء سيناء:

تدّعي التوراة أن الله تعالى وعد إبراهيم ثم إسحاق ومن بعده يعقوب أنه سيرثُ أرض كنعان لنسلهم وستكون ملكهم بعد أن كانت بلاد غربة وليست وطناً.

وقال بعض المفسرين في تفسير الآية الكريمة في قول موسى ﷺ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾[4].

فسروا قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[5] أي قررها من قبل لأجدادكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

---

(١) سورة المائدة: ٢٦.
(٢) الميزان، ج٥، ص٣٠٠.
(٣) سفر التثنية، الإصحاح الأول، العدد ٣٤ـ ٣٩.
(٤) سورة المائدة: ٢١.
(٥) سورة البَقَرَة: ١٨٧.

وجاء في التوراة أن إبراهيم عليه السلام مرّ بأرض كنعان فظهر له الرب: «وقال لنسلك أعطي هذه الأرض»[1].

وقال بعضهم: إن هذا الوعد كان مشروطاً بطاعة الله ونبيه وعدم المعصية، والصبر على الطاعة، وأنه إذا اشتدت المعصية اشتدت معها التكاليف الشاقة عليهم ويستدلون أنه جاء في القرآن الكريم أن موسى عليه السلام ذكر لقومه، هذه الشروط، قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾[2].

وكذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3].

فلم يتحقق الشرط من بني إسرائيل فانتفى الوعد، فلذلك شدّد عليهم العذاب بحرمانهم من الأرض المقدسة التي أبوا الدخول إليها خوفاً من سكانها ورفضوا الجهاد مع نبيهم تمرداً وعصياناً، فعاقبهم الله تعالى بتحريمها عليهم، فتاهوا في صحراء سيناء وضاع عليهم الطريق إليها أربعين سنة.

ولعل قول التوراة (لنسلك أعطي هذه الأرض)، نسله من إسماعيل وليس من إسحاق وهذا وارد، أما الكتابة في تفسير الآية هو القضاء وليس شرطه الوعد.

أما قضية التيه فإنها حقيقة لا ريب فيها ولا يختلف فيها اثنان وذكر هذا الحدث جميع الكتب السماوية، وجميع المؤرخين اتفقوا على هذا،

---

(١) التكوين، الإصحاح ١٢، العدد ٧.

(٢) سورة الأعراف: ١٢٨.

(٣) سورة الأعراف: ١٢٩.

وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿...فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾[١].

قال ابن العبري نقلاً عن التوراة: «قال الله لموسى: قل لبني إسرائيل: يا شعب السوء حيٌّ أنا إلى الأبد ستظلّون ضالّين مذبذبين أربعين سنة حتى تقع أجسادكم وتُبلى في هذا البر وأولادكم هم يدخلون أرض الميعاد وأما أنتم فلا تطأونها»[٢].

وقد ذكرت التوراة[٣] بكاءهم وتذمرهم واعتراضهم على دخول الأرض الموعودة، وقولهم لموسى، بأخذهم رئيساً لهم والعزم على الرجوع إلى مصر ليموتوا هناك. . . أو يخدموا المصريين أفضل لهم ـ حسب زعمهم ـ من اتباع موسى الذي يطلب منهم الجهاد مع رجال جبّارين غلاظ. . . ثم ذكرت التوراة تشجيع يوشع وكالب إياهم بالرجوع عن رأيهم، وتهديد الله تعالى لهم، وذكرت ـ التوراة ـ أيضاً شفاعة موسى لهم، وقسم الله تعالى بأنّ ذلك الجيل العاصي لا يدخل أرض كنعان ـ فلسطين ـ ونزول غضب الله عليهم بالتيه في صحراء سيناء أربعين سنة. . .

وفي نفس الإصحاح تذكر التوراة أنه بعد نزول العذاب صعد قسم من الرجال على الجبل كأنهم يدخلون الأرض خلافاً للأمر الإلهي فنزل العذاب عليهم بموتهم. . . وقد جاء في التوراة: «وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال»[٤] وكذلك الذين أشاعوا ذمة الأرض وتذمروا في اليوم الثاني من الحادثة قائلين لموسى وهارون أنتما قتلتما شعب الرب بشكواكم إلى الرب ودعائكم عليهم، فأصاب الله هؤلاء بالوباء«فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفاً وسبع مئة»[٥].

---

(١) سورة المائدة، آية ٢٦. .

(٢) تاريخ مختصر الدول، المطي (ابن العبري)، ت: ٦٨٥هـ، ص٢١.

(٣) انظر: سفر العدد، الإصحاح ١٤.

(٤) المصدر السابق، الإصحاح ١٦، الرقم ٣٣.

(٥) المصدر السابق، الإصحاح ١٦، الرقم ٤٩.

والظاهر أنهم خلال تلك السنين الأربعين، تنقلوا في صحراء سيناء طلباً للزراعة والماء، وعاشوا قساوة الصحراء وحياة البداوة. وقد جاء في معجم الحضارات السامية انهم تنقّلوا عشر سنوات ثم استقرّوا ثلاثين سنة في قادش[1] وقد ذكر د.سيد كريم أنهم تنقّلوا عشرين سنة، بعد تركهم جبل موسى والوادي المقدس، حتى وصلوا (جبل حور) فمكثوا فيه عشرين سنة أخرى كذلك. . . «ووصلوا جبل حور، شرق سيناء، حيث أقاموا في مدينة (قادش بارينا)، التي ذكر أنهم استقروا فيها ما يقرب من عشرين سنة، والتي وصفتها الوثائق القديمة بأنها جيل من العمر، سمح لهم الرب بعدها التوجه إلى أرض الميعاد التي وصلوها عن طريق صحراء النقب وشرق البحر الميت ومنه إلى القدس التي لم يقدّر لموسى أن يراها حيث وافاه الأجل عند شاطئ البحر الميت حيث دفن في وادي موسى بالأردن قبل صعود الجبل إلى القدس»[2].

في السنة الأربعين خطب بهم موسى ﷺ وذكّرهم بوعد الله تعالى لهم، وأوصاهم بالصدق والحق وإعانة الصغير واحترام الكبير وأقام عليهم رؤساء وأرسل جواسيس إلى الأرض الموعودة «وقالوا جيدة هي الأرض التي أعطاها الرب إلهنا»[3] وجاء في سفر التثنية تفصيلاً كاملاً لخطاب موسى ووصاياه وتذكيرهم بتذمراتهم وتمردهم المتكرر حتى لا يتكلوا على بر أنفسهم ـ حسب تعبير التوراة ـ وعلمهم تعاليم التوراة وكل ما أمر به الله وكل ما نهى عنه، وكل الواجبات والمحرمات ووعدهم بمجيء داود بعده[4].

وفي نفس السفر جاء: «فعند ما كمّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها. أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً:

---

(١) المصدر السابق، الإصحاح ١٦، الرقم ٤٩.

(٢) مجلة الهلال، المجلد الأول، عام ١٩٧٥م، مقال د. سيد كريم، ص٧٣.

(٣) سفر التثنية، الإصحاح الأول، الرقم ٣٥.

(٤) انظر سفر التثنية.

خذوا الكتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم، لأنّي عارفٌ تمردكم ورقابكم الصلبة. هوذا وأنا بعدُ حيٌّ معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي، اجمعوا إلي كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعكم بهذه الكلمات واشهد عليهم السماء والأرض. لأني عارفٌ أنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصيبكم الشرُّ في آخر الأيام لأنكم تعملون الشرُّ أمام الربّ حتى تغيظوه بأعمال أيديكم»[1].

وتذكر التوراة أن في ذلك اليوم نفسه كلّم الرب موسى ﷺ وقال لهُ: «اصعد إلى جبل (عباريم) هذا (جبل نبو) الذي في أرض موآب الذي قباله أريحا وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيها لبني إسرائيل ملكاً ومُتْ في الجبل الذي تصعد إليه»[2] وتوفي موسى ﷺ هناك على (جبل نبو) . . «اصعده الله إلى جبل نابو. . ومات هناك ودفنته الملائكة من غير أن يُعرف له قبر إلى آخر الدهر. وكانت سنة مئة وعشرين سنة»[3] والجدير بالذكر أن تحديد عمر موسى هذا على فرض أنه رجع إلى مصر من مدين عمره (٨٠) سنة. . . وإذا كان أقلّ من ذلك فنضيف عليها سنين التيه ـ ٤٠سنة ـ فتكون أقل من مئة.

أما مكان دفن موسى ﷺ فقد تضاربت الأخبار في ذلك. . حيث تذكر التوراة أنه دفن في جبل (نبو) أو (نابو). وذكر د.سيد كريم أن موسى توفي على شاطئ البحر الميت ودفن في وادي موسى بالأردن قبل صعود الجبل إلى القدس[4].

قارون من قوم موسى (ع):

لقد جاء ذكر قارون في القرآن الكريم في سورة القصص بالتحديد،

---

(١) التوراة، العهد القديم، سفر التثنية، الإصحاح ٣١، الرقم ٢٤ ـ ٢٩.
(٢) المصدر السابق، الإصحاح ٣٢، الرقم ٤٩ ـ ٥٠.
(٣) تاريخ مختصر الدول، (ابن العبري)، ص١٩.
(٤) مجلة الهلال، المجلد الأول عام١٩٧٥، مقال د.سيد كريم ص٧٣.

وكان قارون من قوم موسى عليه السلام آتاه الله تعالى من الكنوز والنعمة والرزق ما إن مفاتحه لتنوء بالعُصبة أولي القوة، لكنه قابل هذه النعمة بالتكبر والطغيان والكفر، والبغي على قوم موسى عليه السلام، فعاقبه الله تعالى فخسف به وبداره الأرض حتى صار عبرة لكل الأجيال ولمن تصور أنه بزهوه وزينته لذو حظ عظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾[1] نصحه القوم أن لا يكون مسرفاً مترفاً مغتراً بالمال وحوله من يموت جوعاً، وقالوا له كذلك: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[2].

أجابهم قارون بكل وقاحة وثقة وتكبر: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ﴾[3] أي أنكر أن نعمته من الله تعالى بل هو من موهبته ومهارته.

يقول المفسرون: «إنه كان واقفاً على سر الصناعة أي الكيمياء، أي إحالة المعادن الخسيسة إلى معدن نفيس هو الذهب ـ ذاهلاً عن أن فضته وذهبه لم يغنيا عنه من الله شيئاً لأنّ الله تعالى قد أهلك من القرون من هم أشدّ منه قوة وأكثر جمعاً فما أغنى عنهم جمعهم وما كانوا يعتزون به من مال ونسب، ولم يفلتوا من عذاب الله تعالى»[4].

مع كل محاولات المؤمنين من القوم في نصح قارون بالكف عن البغي والكفر إلّا أنه أصرَّ على موقفه ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ﴾[5].

---

(١) سورة القَصَص: ٧٦.
(٢) سورة القَصَص: ٧٧.
(٣) سورة القَصَص: ٧٨.
(٤) قصص الأنبياء، النجار، ص٢٨٥.
(٥) سورة القَصَص: ٧٩.

«حذّره قومه من عاقبة البغي والفساد، فنفخ الشيطان في أنفه، وأخذته العزة بالإثم، وجمع خدمه وحشمه، وركب في موكب فخم يعرض على الناس ثراءه وكبرياءه تحدياً للذين وعظوه وحَذروه من سكرات الترف والبغي»[1].

وقد أثّر هذا الموقف في نفوس ضعفاء العقول والإيمان، نظروا إليه باستعظام وإجلال لأنهم يحبون الحياة الدنيا وزينتها: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2].

أما الذين أوتوا العلم الذين نصحوه بالابتعاد عن هذا الطريق عاودوا النصح ولكن هذه المرة لمن يريد الدنيا وزينتها من القوم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾[3].

وقد انتصر الناصحون برجاحة عقولهم ونزاهة نفوسهم عندما نزل البلاء على قارون عقاباً على كفره وطغيانه وبغيه قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾[4] أما الذين تمنوا مكانه بالأمس أدركوا الحقيقة وفرحوا بما لم يؤتوا ما أوتي الطغاة ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[5].

هذه نهاية قارون ولا ريب فيها، ولكن أين وقعت أحداث قصته هل كانت في مصر أم في التيه، أم قبله؟ أم بعد وفاة موسى وفي سيناء؟ أم بعد دخولهم الارض المقدسة بقيادة يوشع بن نون؟ أم في فلسطين بالذات؟!

---

(١) الكاشف، مغنية، مج٦، ص٨٨.
(٢) سورة القَصَص: ٧٩.
(٣) سورة القصص: ٢٨.
(٤) سورة القَصَص: ٨١.
(٥) سورة القَصَص: ٨٢.

هذا ما سكت عنه القرآن الكريم ولم يشر إليه أية إشارة، ولكن حدوثها في مصر بعيد لأن فرعون مدّعي الربوبية ومالك كل شيء والذي أذلّ بني إسرائيل لا يسمح له على قوّته هذه دون أن يستولي عليه هذا من جهة، أما إذا وقعت أحداث قصته بعد الخروج فهذا بعيد أيضاً لأن الحوار لم يكن مع موسى عليه السلام بل مع القوم بعد التيه أو قبل الدخول إلى فلسطين، ولعله في فلسطين ولكن بعد موسى عليه السلام في كل الأحوال.

الفصل العاشر

غضب الله الدائم على اليهود

١ ـ صفة الفسوق في قوم موسى

٢ ـ أسباب الغضب الإلهي

٣ ـ غضب الله على قوم موسى بدليل القرآن

٤ ـ التوراة تصرّح بانحرافهم

٥ ـ لعنة الإنجيل عليهم

٦ ـ مواقفهم من الأنبياء

٧ ـ إيذاؤهم النبي موسى (ع)

٨ ـ موقفهم مع وصي موسى يوشع (ع)

٩ ـ تكذيبهم النبي إلياس (ع)

١٠ ـ رفضهم أوامر نبيهم شمعون بالقتال

١١ ـ علاقتهم مع داود (ع) وسليمان (ع)

١٢ ـ علاقتهم بالنبي شعيا وأرميا (ع)

١٣ ـ ذبحهم النبي يحيى (ع) ومن قبله زكريا (ع)

١٤ ـ محاولتهم صلب المسيح (ع)

١٥ ـ سيرتهم مع خاتم الأنبياء محمد (ص)

١٦ ـ اللعن الإلهي الدائم عليهم

١٧ ـ جذورهم في العداء المعاصر

١٨ ـ تكرار الحديث عن بني إسرائيل في القرآن

غضب الله الدائم على اليهود

ليس الله تعالى ظلاماً للعبيد ولا عدواً لهم بل هو الرؤوف الرحيم، إنما العباد أنفسهم يظلمون، وما غضبُ الله تعالى على بني إسرائيل إلّا بما كسبت أيديهم من العناد واللجاج والتمرد وعدم الطاعة حتى وصفهم القرآن الكريم بـ(الفاسقين) وقال لنبيه الكليم موسى ﷺ:

﴿...فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾[1].

حتى وإن ولّى جيل منهم أتى جيل أكثر عناداً ولجاجاً من الجيل السالف ووصل بهم الفسوق إلى تحريف كلام الله وكتابة توراتهم الذي دوّنوه حسب ما اشتهت أنفسهم، وكتبوا فيه ما انسجم مع مصالحهم وأهوائهم، ثم تجرّؤوا أكثر فأكثر حتى وصل بهم الحال إلى قتل الأنبياء بغير حق.

وما أنزل الله تعالى من غضب على أمةٍ مثلما نزل عليهم فلازمهم ويلازمهم إلى يوم يبعثون، وذلك بما كانوا يفسقون، وقال عنهم القرآن الكريم في سورة المائدة: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[2].

وقد كرر القرآن الكريم قصة موسى ﷺ مع قومه في عدد من الآيات والسور أكثر من غيرها من قصص الأقوام السالفة، لتبقى عبرة لمن يعتبر

---

(١) سورة المائدة: ٢٦.

(٢) سورة المائدة: ٧٠.

ولتبقى وصمة عار في ذاكرة التاريخ كما عبّر عن ذلك منْ بحث في فلسفة التكرار لقصة موسى عليه السلام وقومه في القرآن الكريم.

ولا ننسى التوراة وتصريحها بانحرافهم، فالحقيقة لا يخفيها شيء، ومهما ذكر كتبة التوراة إلّا أنهم لم يذكروا سوى غيض من فيض مما سلكهُ اليهود وما حملوا من نزعة الشر والإرهاب في تاريخهم.

ثم إن الإنجيل فضح أمرهم ولعنهم ووصفهم بصفاتٍ شتى منها: القتلة، المراؤون، الفسقة، الظلمة وما إلى ذلك من الصفات الذميمة.

صفة الفسوق في قوم موسى (ع):

لقد عرض القرآن الكريم صفات ذميمة في قوم موسى عليه السلام وفي بني إسرائيل بالذات، من هذه الصفات الظلم، الفساد في الأرض، العناد، العتو واللجاج، الاعتداء على الأنبياء بالتكذيب والقتل، لكنَّ أبرز صفة برزت فيهم هي صفة (الفسوق).

والفسوق في اللغة: «فسق فلان خرج عن حجر الشرع وذلك من قولهم فسقَ الرطبُ إذا خرج عن قشره، وهو أعم من الكفر. والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير لكن تعورفَ فيما كان كثيراً. وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حُكم الشرع وأقرَّ به ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسقٌ فلأنه أخلَّ بحُكم ما ألزمهُ العقلُ واقتضته الفطرةُ، قال: ﴿...فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1] - ﴿...فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾[2] - ﴿...وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾[3] - ﴿...وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾[4] - ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾[5] - ﴿...وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) سورة الكهف: ٥٠.
(٢) سورة الإسرَاء: ١٦.
(٣) سورة آل عِمرَان: ١١٠.
(٤) سورة النُّور: ٤.
(٥) سورة السَّجدَة: ١٨.

﴿ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾[1] أي من يسترُ نِعمةَ الله فقد خرج عن طاعته ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾[2] - ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٤٩﴾[3] - ﴿...وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝١٠٨﴾[4] - ﴿... إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾[5] - ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾[6] - ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ﴾[7] فقابل به الإيمان. فالفاسق أعمُّ من الكافر والظالم أعم من الفاسق ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ... - إلى قوله -: ...وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٤﴾[8] وسميت الفأرة فويسقةً لما اعتُقد فيها من الخُبث والفسق وقيل لخروجها من بيتها مرةً بعد أخرى، وقال عليه الصلاة والسلام: «اقتلوا الفويسقةَ فإنها توهِي السّقاء وتُضرمُ البيت على أهله» قال ابن الاعرابي: «لم يُسمع الفاسق في وصف الإنسان في كلام العرب وإنما فَسَقت الرطبةُ عن قشرها»[9].

لقد وُصف قوم موسى إن لم نقل كلهم فأغلبهم وصفوا بالفسوق لأنهم التزموا حُكمَ الشرع وأقرّوا به ثم أخلّوا بجميع أحكامه أو ببعضه، فقد جاء على لسان موسى شاكياً من قومه يدعو الله تعالى قائلاً: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[10] وقد واجهَ موسى ﷺ قومه قائلاً لهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾[11].

---

(١) سورة النّور: ٥٥.
(٢) سورة السَّجدَة: ٢٠.
(٣) سورة الأنعَام: ٤٩.
(٤) سورة المَائدة: ١٠٨.
(٥) سورة التّوبَة: ٦٧.
(٦) سورة يُونس: ٣٣.
(٧) سورة السَّجدَة: ١٨.
(٨) سورة النُّور: ٤.
(٩) المفردات، الراغب الأصفهاني، ج١، ص٣٨٠.
(١٠) سورة المَائدة: ٢٥.
(١١) سورة الصَّف: ٥.

وحينما حرّم الله تعالى عليهم الأرض المقدسة وأتاههم في الأرض قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

أما الألواح التي جاء بها موسى عليه السلام بعد اعتكافٍ وعناء طال أربعين يوماً، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾[2].

وبعد وفاة موسى عليه السلام وانتهاء مدة التيه أمرهم (يوشع بن نون) من سبط يوسف، أمرهم بدخول القرية، ويقال إنهم أول بلد دخلوها هي مدينة (أريحا)، أمرهم الله تعالى أن يدخلوا الباب سجداً أي خاشعين متذللين لله تعالى، قائلين (حطة) أي حط عنا خطايانا وامحها عنّا، لكنهم وبدافع الفسوق بدّلوا القول بقول آخر، ودخلوا بهيئة غير التي أمروا بها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[3].

لكنهم أبوا الالتزام والامتثال لقول الله تعالى، فقالوا قولاً غير الذي أمروا: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾[4] فغضب الله تعالى عليهم وأنزل عليهم العذاب لأنهم قوم التصقت بهم صفة الفسق والمخالفة لأوامر الله، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[5].

«ويقول البيضاوي: إن المدينة هي بيت المقدس أي (أورشليم) أو (أريحا) ولعل القول بأنها (أورشليم) الذي دعا أهلها لأن يسمّوا أحد

---

(١) سورة المائدة: ٢٦.
(٢) سورة الأعراف: ١٤٥.
(٣) سورة البقرة: ٥٨.
(٤) سورة البقرة: ٥٩.
(٥) سورة البقرة: ٥٩.

أبوابها (باب حطة) والقرآن الكريم لم يبيّن المدينة والتوراة لم تذكر المسألة أصلاً»[1].

أسباب الغضب الإلهي:

لقد وضع الله تعالى قواعد وخطوطاً حمراء، فكلٌّ من تعداها سينال غضبٌ من الله، وقد كتبها لموسى عليه السلام في الألواح، فبعد أن ذكر الله تعالى لقوم موسى أن في الألواح كُتب لهم عن كل شيء موعظة وتفصيلاً، حذّرهم من نزول الغضب الدائم على من ينصرف عنها ويتخذ غير سبيل الرشاد، قال تعالى في القرآن الكريم عما كتب في ألواح موسى عليه السلام: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾[2] وكذلك وفي الألواح كتب أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾[3].

وقد جاء في القرآن الكريم عن أسباب الغضب الإلهي عليهم أنهم ﴿...وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾[4] وكذلك قال عنهم: ﴿...يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[5] وقال عنهم أيضاً: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[6].

ومن الأسباب كذلك نقضهم المواثيق والمعاهدات كلما أخذها الله تعالى عليهم﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ﴾[7].

---

(١) قصص الأنبياء، النجار، ص٢٩٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٤٦.

(٣) سورة الأعراف: ١٤٧.

(٤) سورة آل عمران: ٧٥.

(٥) سورة النساء: ٤٦.

(٦) سورة الكهف: ٥.

(٧) سورة المائدة: ١٣.

وعن توراتهم تنقل صفاتهم الذميمة: «وعصوا وتمرّدوا عليك ـ أي على الله ـ وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا أنبياءك الذين اشهدوا عليهم ليردوهم إليك، وعملوا إهانة عظيمة»[1].

وعلى هذا غضب الله عليهم وأذلهم، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[2] فالله تعالى لا يزيغ قلب أحد إلّا إذا زاغ هو بسوء اختياره، ولا يهين مخلوقاً ويهلكه ويغضب عليه إلّا إذا هو عرّض نفسه للتهلكة والهوان، والغضب الإلهي لا يَنزِل إلّا إذا تمرّد هو على الله وأنبيائه.

ومن أسباب الغضب الإلهي أيضاً تكذيبهم للأنبياء والاستهزاء بهم، وعدم تصديقهم لهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾[3].

وقد ذكرت توراتهم سفههم وعدم معرفتهم بالله تعالى: «إنّ شعبي سفيه. إنهم لا يعرفونني. إنما هم بنون حمقى لا فهم لهم. هم حكماء للشر ولا دراية لهم للخير..»[4] وكذلك الشرك بالله باتخاذهم العجل إلهاً وهذا سبب آخر من أسباب الغضب الإلهي قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ۝١٥٢﴾[5].

والإنجيل بدوره بيّن في مواضع كثيرة هذا الاستهزاء والقتل وغيره: «كيف تهربون من دينونة جهنم؟ لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء، وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم...»[6].

---

(١) سفر نحميا، الإصحاح ٩، العدد ٢٦.
(٢) سورة الصَّف: ٥.
(٣) سورة الزّخرُف: ٧.
(٤) نبوءة أرميا، العدد١٤ و٢٢.
(٥) سورة الأعرَاف: ١٥٢.
(٦) إنجيل متى، الإصحاح ٢٣.

والقرآن يهيمن بأقواله في هذا المجال فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل، فقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾[1].

إذن فأسباب الغضب الإلهي على بني إسرائيل لم يأت من سبب واحد في تصرفات بني إسرائيل وإنما جاء من أسباب شتى، فالقرآن الكريم يذكر أنهم: كانوا يتكبرون في الأرض بغير حق، وأنهم كلما جاءتهم آية من الله تعالى كفروا بها ثم إنهم حين يرون سبيل الرشد لم يتخذوه سبيلاً، لكنهم حين يرون سبيل الغي يتخذونه سبيلاً، والسبب أنهم كذبوا بآيات الله البينات لغفلتهم وانحرافهم وفسوقهم. حسب ما جاء في سورة الأعراف، وإنهم لم يكتفوا بهذا بل قالوا على الله الكذب وعلى الأنبياء والرسل وإذا جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، ومن صفاتهم أنهم ينقضون المواثيق والوعود كلما أخذها الله تعالى عليهم، وهناك أسباب أخرى يطول الكلام عنها، وهي وغيرها وما ذكرنا أسباب للغضب الإلهي عليهم.

غضب الله على قوم موسى بدليل القرآن:

ولما كانت الأسباب المذكورة تتجاوز الخطوط الحمراء التي رسمها الله تعالى لعباده، فمن الطبيعي أن يكون تعديها نتيجة حتمية لحلول الغضب الإلهي ونزوله، فقد حلَّ الغضب الإلهي بقوم موسى ومن تبعهم وسار على خطاهم، وأعد لهم جهنم يوم القيامة، وقد صرّح القرآن الكريم بذلك قائلاً: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾[2] وقال تعالى فيهم أيضاً ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾[3] والمسكنة، الذل والهوان الذي أصابهم في دار الدنيا إضافة إلى الغضب الإلهي الذي نزل عليهم، وفي

---

(١) سورة المائدة: ٧٠.

(٢) سورة الفتح: ٦.

(٣) سورة آل عمران: ١١٢.

آية أخرى قدّم الذل والمسكنة على الغضب، فقال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾[1].

وهناك فيض من الآيات صرّحت بحلول غضب الله تعالى على قوم موسى من نسل بني إسرائيل أو من غيرهم ومن تبعهم وورث طبائعهم وعاداتهم، ذكر الله تعالى ذلك في سورة الأنفال والبقرة والأعراف والمائدة وطه والنحل والممتحنة والمجادلة والنساء وغيرها.

وآيات أخرى صرّحت باللعن الإلهي عليهم منها: في سورة النساء والمائدة والبقرة والفتح والنساء وغيرها.

وعلّم الله تعالى المؤمنين زمن رسوله محمد ﷺ أن يقولوا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾[2] والمقصود بالمغضوب عليهم هم قوم موسى ومن جاء بعدهم من نسلهم ومن اتخذ اليهودية ديناً له ونسب نفسه إلى موسى عليه السلام فقد اتخذوا الصراط المعوج الذي لا استقامة فيه ولا هداية، حرّفوا كلام الله وقالوا﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[3] حاججهم الله تعالى بقوله: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾[4].

يا أيها الذين سميتم أنفسكم يهوداً أنتم لستم أبنائي دون غيركم، لا تتكبروا ولا تميزوا أنفسكم عن غيركم بل أنتم بشرٌ ممن خلقنا، حالكم كغيركم من البشر من آمن حصل على الدرجات العليا عند الله ومن لجَّ وكفر أو أشرك فسوف يعذبه الله تعالى بما كسبت يداه.

وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا

---

(١) سورة البَقَرَة: ٦١.

(٢) سورة الفَاتِحَة: ٦-٧.

(٣) سورة المَائدة: ١٨.

(٤) سورة المَائدة: ١٨.

أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾[١].

فحظهم العاجل كما رسمهُ الله تعالى في القرآن الكريم نتيجة سيرتهم المنكرة هو: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾[٢] وكذلك: ﴿...وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٣] وأيضاً: ﴿...وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾[٤] هذه في عاجلتهم، أما في آجلتهم فجزاءُ من لَجَّ وكفر النار خالدين فيها وبئس المصير. قال تــعــالــى ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٥].

إنهم وعبر تاريخهم الطويل لم تصلح نفوسهم ولا عقولهم، ولقد وصف القرآن الكريم أعمالهم السيئة وصفاً دقيقاً ومفصلاً ومكرراً، وما اقترن اسم اليهود أو بني إسرائيل أو قوم موسى إلّا بالفساد في الأرض وسفك الدماء والغدر والمعصية، ولم تتورع نفوسهم أن ينسبوا إلى الله الكذب والفقر والعجز حتى قالوا﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[٦] لكن الله تعالى قال عنـهـم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٧].

التوراة تصرّح بانحرافهم:

ومهما حرّف اليهود التوراة لصالحهم في التوسع والاستعمار والتميز

(١) سورة البَقَرَة: ٩٠.
(٢) سورة آل عِمرَان: ١١٢.
(٣) سورة البقرة: ٦١.
(٤) سورة آل عمران: ١١٢.
(٥) سورة البَقَرَة: ٨٥.
(٦) سورة المَائدة: ٦٤.
(٧) سورة المَائدة: ٦٤.

العرقي والعنصري، إلّا أن هناك حقيقة تداولتها الألسن وسمعتها الآذان وبقيت في وجدان التاريخ يطرحها على مسرح الحياة لكل جيل وهي قضية انحرافهم ونزعة القتل والشر والارهاب التي حملوها على مرّ تاريخهم.

فقد صرّحت التوراة بانحرافهم وغضب الله عليهم في النص التالي: «إن بيت إسرائيل لمّا سكنوا أرضهم نجّسوها بطريقهم وبأفعالهم، كانت طريقهم أمامي كنجاسة الطامث»[1] فلهذا السبب تقول التوراة إن الرب قال: «فسكبت غضبي عليهم لأجل الدم الذي سفكوه على الأرض، وبأصنامهم نجسوها فبددتهم في الأمم، فتذروا في الأراضي كطريقهم وكأفعالهم، دُنتهم»[2] ثم تقول عندما ذهبوا إلى الأمم وتذروا فيها ما تحسنت أوضاعهم بل هم على نجاستهم وأفعالهم، بل أكثر من هذا: «فلما جاءوا إلى الأمم حيث جاءوا. نجسوا اسمي القدوس، إذ قالوا لهم: هؤلاء شعب الرب، وقد خرجوا من أرضه فتحننتُ على اسمي القدوس الذي نجسهُ بيت إسرائيل في الأمم حيث جاءوا»[3].

وهناك نصوصٌ أخرى تفضح سلوكهم في سفر الخروج في أسباب التيه ومدة التيه وسلوكهم مع نبيهم موسى عليه السلام وأخيه هارون ثم مع يوشع بن نون وكالب، وكذلك نصوص كثيرة تفضح سلوكهم حين دخولهم فلسطين وحالة القتل والإرهاب والهستريا التي انتابتهم، ثم إن كتبة التوراة لم ينسوا ذكر تكذيبهم للأنبياء والرسل وقتلهم بغير حق.

فانحراف اليهود ليس ادعاءً قال به أعداء إسرائيل لمجرد حدوث معركة أو حرب أو قضية اختُلف عليها، وإنما هو حقيقة ثابتة أكدتها

(١) حزقيال، الإصحاح ٣٦، العدد ١٦.
(٢) حزقيال، الإصحاح ٣٦، العدد ١٦.
(٣) حزقيال، الإصحاح ٣٦، العدد ١٦.

كتب مقدسة أنزلها الله تعالى إلى الأرض لم تكتب بأيدي البشر، ثم أكدتها نصوص تاريخية وما كتب باليد البشرية بالأرقام والحوادث والوقائع.

وتذكر التوراة أن موسى ﷺ حين دنا من الوفاة أخبر قومه بانحرافهم من بعده وزيغهم عن طريق الهداية، فقال لهم: «أنا أعرف تمردكم وقلوبكم الصلبة، إنكم بعد موتي تُفسدون في الأرض، وتُزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم، ويصيبكم الشر في آخر الأيام...»[1].

وقد ظهر هذا الانحراف جلياً على مسرح حياتهم زمن دخولهم أرض كنعان (فلسطين) بقيادة يوشع بن نون، بقتلهم الأبرياء من نساء وأطفال وشيوخ وكل ما دبّ وهب، فقد جاء في التوراة: «وحرقوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ وحتى البقر والغنم بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها... إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب... وكان جملة من قتل في ذلك اليوم رجلاً وامرأة اثني عشر ألفاً»[2].

وقد ذُكر في التوراة من أمر فسادهم في الأرض: «اسمعي أيتها السماوات، واصغي أيتها الأرض لأن الرب يتكلم، ربيتُ بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا عليَّ، الثور يعرف قانيه، والحمار يعرف صاحبه، أما إسرائيل فلا يعرف، شعب لا يفهم، ويلٌ للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الآثم، نسلٌ فاعلي الشر، أولاد مفسدين»[3].

وجاء في سفر أشعيا أيضاً ما يفضح صفة القتل والزنى فيهم: «..ارتدوا إلى وراء، كل الرأس مريض، وكل القلب سقيم...من أسفل القدم إلى الرأس، فالرب لا يستمع لكم لأن أيديكم ملأى بالدماء، وكثر

(١) سفر التثنية، الإصحاح ٣١، رقم ٢٩.
(٢) سفر يشوع، الإصحاح ٦و٨.
(٣) سفر أشعيا، الإصحاح ٤.

فيكم الزناة والقتلة. . . رؤساؤكم عصاة وشركاء للسارقين، الكل يحب الرشوة، لا ينصفون اليتيم والأرملة»[1].

لعنة الإنجيل عليهم:

وجاء الإنجيل بعد التوراة بعدة قرون ليفضح كتبته وأمر اليهود وانحرافهم من جديد: «هكذا أنتم من خارج تظهرون للناس أبراراً، ولكنكم من داخل مشحونون رياءً وإثماً ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراؤون، لأنكم تبنون قبور الأنبياء، وتزينون مدافن الصدّيقين، وتقولون لو كنّا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء، فاملأوا مكيال آباءكم أيها الحيّات، وأولاد الأفاعي»[2].

ثم يبين الإنجيل مصيرهم في الآخرة جرّاء جرائمهم في الدنيا قائلاً: «كيف تهربون من دينونة جهنم، لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم، وتطردون من مدينة إلى مدينة، لكي يأتي عليكم كل دم زكي سُفك على الأرض، . . يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء يا راجمة المرسلين. . .الخ»[3].

وَمَن استقرأ الإنجيل في أفعال اليهود وسلوكياتهم منذ زمن موسى ﷺ حتى كتابة الإنجيل لوجد من أفعالهم ما يندى له جبين التاريخ فقد وصفهم الإنجيل بالمرائين والقتلة والفسقة والظلمة وما إلى ذلك.

وهذا ما يؤكد أن قوم موسى ﷺ أو بالأحرى أبناءهم وأحفادهم الذين ورثوا الطبع الفظّ والروح الخبيثة دخلوا فلسطين فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء ونهبوا وفعلوا المنكرات، زرعوا هذه الحالة وهذا الطبع في الأجيال التي

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) إنجيل متّى، الإصحاح ٢٣.
(٣) المصدر نفسه.

جاءت بعدهم من نسلهم وممن حمل اليهودية ديناً له بعد كتابة التوراة وقبلها، إلّا أن التوراة ذكرت بعض انحرافهم لكي تُصدق إذا كذبت على الله ورسوله، والإنجيل تفضح زيف ديانتهم وكتابهم الذي كتبته أيديهم، ولم ينس كتبة الإنجيل ذكر أفعال بني إسرائيل مع نبيهم ثم تكذيبهم الأنبياء والرسل ونزعة القتل والشر والإرهاب التي تحملها صدورهم الخبيثة، وقد فضحهم إنجيل يوحنّا قائلاً: «أنتم من أبٍ هو إبليس وشهوات أبيكم تبتغون أن تعملوها، هو من البدء قتّال الناس، ولم يثبت على الحق لأنه لا حق فيه»[1].

وهناك نصوص كثيرة في إنجيل يوحنّا وإنجيل متّى وغيرهما يطول الحديث عنها، نكتفي بِما ذكرنا نموذجاً لما قاله الإنجيل حولَ أفعال اليهود الخارجة عن دين الله الحنيف.

مواقفهم من الأنبياء:

لو تتبعنا المسار التاريخي اليهودي، لوجدناه يعاني الضياع والتخبط في السلوك الفردي والاجتماعي، لوجدنا تاريخهم مليئاً بالخرافات والأساطير التي لم تخضع لمعيار منطقي سليم، ولم تنسجم مع الفكر الصحيح وأخلاق الأديان السماوية، والسبب هو عدم إيمانهم بأولئك الأنبياء والرسل وعدم تصديقهم بما أتوا به من تعاليم ومفاهيم، لا تنسجم مع مصالحهم وأهوائهم كما أكدّ القرآن الكريم ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝٧٠﴾[2].

وكذلك استهزاؤهم بالأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾[3].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) سورة المائدة: ٧٠.

(٣) سورة الزخرف: ٧.

وقد ذكرت توراتهم تجاهلهم للأنبياء والاستهزاء بهم في نصوص كثيرة، نذكر منها: «أنّ شعبي (أي بني إسرائيل) سفيه. إنهم لا يعرفونني. إنما هم بنون حمقى لا فهم لهم. هم حكماء للشر ولا دراية لهم للخير. . .الخ»[1] والإنجيل يؤيد التوراة، فيقول: «كيف تهربون من دينونة جهنم؟ لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء، وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم»[2].

إيذاؤهم النبي موسى (ع)[3]:

بُعث موسى بن عمران ﷺ فيهم نبياً يهديهم إلى الحق وإلى خير الدنيا والآخرة لكنهم لجّوا معه، واشتد عنادهم يوماً بعد آخر، حتى جعلهم الله أمةً ملعونة إلى يوم الدين، وقد حاججهم موسى ﷺ وأكدّ لهم أنه رسول من الله يهديهم إلى سواء السبيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾[4] ومما آذوا به نبيهم على سبيل المثال هو عزمهم على الرجوع حين وجدوا الفرعون وقومه يلاحقونهم والبحر أمامهم. فطمأنهم موسى ﷺ أنَّ الله تعالى سيرشدهم إلى طريق النجاة. ومنها: طلبهم أن يجعل لهم إلهاً (صنماً) يعبدونه[5] وأكد لهم أن أولئك القوم على خطأ. ومنها: طلبهم الماء والطعام وعدم صبرهم على طعام واحد ونزول المن والسلوى عليهم[6] ومنها عبادتهم العجل[7] ومنها:

---

(١) التوراة، نبوءة أرميا، ٤ أو ٢٢.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح ٢٣.

(٣) اختلف المفسرون وعلماء في تفسير نوع (إيذاء قوم موسى لموسى ﷺ) وقد أورده عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء ص٢٨١ ـ ٢٩١ في تفسيره للآية ٥من سورة الصف وفي سورة الأحزاب. وأنا أقصد عنادهم ولجاجتهم معه وعدم تصديقه.

(٤) سورة الصَّف: ٥.

(٥) انظر سورة الأعراف، آية ١٣٨.

(٦) سورة الأعراف، آية ١٦٠.

(٧) سورة الأعراف، الآيات ١٤٢ ـ ١٤٥.

قولهم له[1] ومنها احجامهم عن دخول الأرض المقدسة[2] والتي انتزعها الله تعالى منهم وحرّمها عليهم بقوله ﴿...فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾[3].

موقفهم مع وصي موسى يوشع (ع):

بعد تيههم أربعين سنة، دخلوا أرض كنعان (القدس) متجبرين مستعلين لا يسمعون ليوشع بن نون وصي موسى قولاً ولا نصيحة وذكرت توراتهم ذلك: «فقال الرب ليوشع. لماذا أنت ساقط على وجهك. قد أخطأ إسرائيل، بل تعدوا عهدي الذي أمرتُهم به بل أخذوا من الحرام بل سرقوا بل أنكروا بل وضعوا في أمتعتهم، فلم يتمكن بنو إسرائيل للثبوت أمام أعدائهم. يديرون قفاهم أمام أعدائهم. . .الخ)[4].

ولم يكتفوا بالسرقة وغيرها بل قتلوا كل طفل وشيخ وامرأة بالإضافة إلى الرجال وكل الحيوانات الموجودة[5] وقد ذكرنا ذلك. وقد كانت سيرتهم مع يوشع كسيرتهم مع موسى: العصيان والعناد.

تكذيبهم النبي (إلياس):

لما قُبض النبي (حزقيل) أحد أنبياء بني إسرائيل، كثرت الأحداث فيما ذُكر في بني إسرائيل وتركوا عهده الذي عهد إليهم في التوراة وعبدوا الأوثان فبعث الله لهم فيما قيل (إلياس) بن ياسين بن فنحاص بن العزيار بن هارون بن عمران. دعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد لكنهم لم يسمعوا له ولم يطيعوا أمره شيئاً، بل كذبوه فيما آتاهم به، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا

---

(١) سورة البقرة، آية ٨. وسورة البقرة، الآيات ٥٥، ٥٦.

(٢) سورة المائدة، الآية ٢١.

(٣) سورة المائدة: ٢٦.

(٤) التوراة سفر يشوع، الإصحاح ٧، العدد ١٠.

(٥) التوراة، سفر يشوع، الإصحاح ٦و٨.

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1] وكذّبوا (اليسع) أيضاً من بعده[2].

رفضهم أوامر نبيهم شمعون بالقتال:

يذكر الطبري في تاريخه أن جالوت ملك بني إسرائيل، قضى على سبط النبوة فيهم بالتنكيل بهم وقتلهم وأخذ ثرواتهم، فأخذ بنو إسرائيل يسألون الله أن يبعث فيهم نبياً يقاتلون معه، ولم يبق فيهم من نسل النبوة سوى امرأة حبلى من بني إسرائيل فاحتجزوها احتمال أن يكون النبي منها، فرزقها الله غلاماً فسمته (شمعون) ولما كبر بعثه الله نبياً، فلما أتاهم كذبوه وقالوا استعجلت بالنبوة لا نقاتل معك، ولجّوا معه أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا جالوت[3].

علاقتهم مع داود (ع) وسليمان (ع):

بعث الله فيهم داود نبياً يهديهم إلى الهدى وإلى تعاليم الكتاب المنزل (الزبور) وأعطاه الله خير الدنيا والآخرة، فكان نبياً وملكاً: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[4].

وكان يحكم بالعدل والحق ويتصف بـ(ذي الأيدي) أي صاحب القوة في دينه لا يهن لشدة ولا يضعف لاضطهاد[5] ﴿...وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾[6]. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾[7]. ﴿وَشَدَدْنَا

(١) سورة الصّافات: ١٢٣-١٢٦.
(٢) انظر تاريخ الطبري، ج١، ص٣٢ ـ ٣٢٩، الطبعة البيروتية.
(٣) المصدر نفسه، ٣٢٩.
(٤) سورة الإسرَاء: ٥٥.
(٥) قصص الأنبياء، عفيف عبد الفتاح طبّارة، ص٢٨٢.
(٦) سورة ص: ١٧ ـ ١٩.
(٧) سورة سَبَإ: ١٠.

﴿مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾[1]. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[2]. ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾[3].

وقد حكم داود في بني إسرائيل بالقوة والبأس الشديد والحكمة حتى استسلموا له طوعاً وكرهاً، حتى وافاه الأجل، وورثه ابنه سليمان دون سائر أبنائه في النبوة والملك، وسار سليمان على خط أبيه في الحكم والنبوة وخصهُ الله من النعم الكثيرة منها: تسخير الرياح له وتسخير الشياطين لخدمته وعلمه منطق الطير[4] ثم وافاه الأجل بإذن الله قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾[5].

علاقتهم بالنبي شعيا وأرميا (ع):

ذكر الطبري أن الله بعث في بني إسرائيل (شعيا) نبياً يأمرهم بما أنزل الله في التوراة والزبور ويرشدهم إلى طريق الحق، فكذبوه إلّا قليلٌ منهم، حتى توفي[6]، فتولى أمرهم النبي (أرميا) وقد يكون هو الخضر حسب زعم الطبري ـ وقد يكون غيره، وقد نهاهم عن اتباع الشيطان، لكنهم لم يزدادوا إلّا معصية وتمادياً في الشر، قال الطبري: قال لهم نبيهم قبل سبي بابل «يا بني إسرئيل انتهوا عما أنتم عليه قبل أن يمسكم بأس الله وقبل أن يبعث الله عليكم قوماً لا رحمة لهم بكم فإن ربكم قريب التوبة مبسوط اليدين بالخير رحيم بمن تاب إليه فأبوا عليه أن ينزعوا عن شيء مما هم عليه»[7]،

---

(١) سورة صٓ: ٢٠.

(٢) سورة سَبَإٍ: ١٠.

(٣) سورة الأنبيَاء: ٨٠.

(٤) سورة ص: ٣٥ ـ ٤٠، وسبأ: ١٢ ـ ١٣.

(٥) سورة سبأ: ١٤.

(٦) الطبري، تاريخ الطبري، ص٣٧٨.

(٧) اختلف المؤرخون والمفسرون في أمر الخضر، فقيل: إنه العبد الصالح رفيق موسى ﷺ وقيل: بُعث قبل موسى أو قبل إبراهيم ﷺ وقيل: كان معاصراً لزكريا ويحيى وقيل: إنه (أرميا) نفسه وقيل غير ذلك.

وأفسدوا وطغوا وبغوا حتى أرسل الله تعالى عليهم البابليون بقيادة نبوخذ أو أبيه سنحاريب، الذي فرقهم ثلاثه أقوام: قتل قسماً وآخر أقرهُ في الشام والثالث سُبي إلى بابل، وخرّب القدس بما فيها الهيكل وكل ذلك عام (٥٨٦ق.م) وقيل (٥٩٦ق.م)[١].

وفي موسوعة علم الآثار جاء «وفي عام (٥٨٧ق.م) احتل نبوخذنصر المدينة (القدس) وهجر سكانها إلى بابل»[٢].

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾[٣].

ثم تولى أمرهم النبي دانيال عليه السلام بعد أن أطلق سراحهم وحريتهم وسمح لهم بدخول القدس بعد (سبي بابل)[٤].

ذبحهم النبي يحيى (ع) ومن قبله زكريا (ع):

لقد بعث الله تعالى فيهم النبي زكريا عليه السلام، وقضى عمره يدعوهم إلى الله ويخدم الهيكل المقدس في القدس، حتى بلغ من الكبر عتياً وكان يتمنى أن يرزقه الله ولداً وكانت امرأته عاقراً حتى جاء أمر الله باستجابة دعائه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ... ﴿٤٠﴾﴾[٥].

وكان يحيى عليه السلام على أكمل أوصاف الصلاح والتقوى منذ صباه

---

(١) تاريخ الطبري، ص٣٧٨، ج١.
(٢) تاريخ الطبري، ج١، ص٣٧٨ والكاشف محمد جواد مغنية، ص١٧.
(٣) سورة الإسراء: ٤ ـ ٥.
(٤) موسوعة علم الآثار، كلين دانيال، ج٢، ص٤٥٦، دار المأمون.
(٥) سورة آل عمران: ٣٩ ـ ٤٠.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1] دعا قومه بعد أبيه لما يرضي الله تعالى وبما يصلح دنياهم وآخرتهم أبوا ذلك حتى قُتل أشدّ قتلة ومُثّل به وقطع رأسه كما يقطع رأس الشاة[2] وقيل: إن زكريا كذلك مات مذبوحاً كيحيى، وجاء في إنجيل برنابا إن المسيح قال لليهود: ستأتي عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا بن برخيا ـ الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح[3].

محاولتهم صلب المسيح (ع):

وكان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم عليه السلام جاء بعد أن بعث الله فيهم ـ حسب رواية مالك بني أنس عن رسول الله ﷺ أربعة آلاف نبي قال «بعث الله ثمانية آلاف نبي، أربعة آلاف إلى بني إسرائيل، وأربعة آلاف إلى سائر الناس»[4].

آمنت بعيسى عليه السلام طائفة من بني إسرائيل وكذبته طائفة أخرى: ﴿...كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ﴾[5].

والطائفة التي كفرت به هي الطائفة التي بقيت على اليهودية المحرّفة والتوراة التي كتبوها بأيديهم، ثم تباهوا كذباً بقتلهم المسيح وصلبه ولكن لم يقتلوه بل شُبّه لهم ما كانوا يفعلون، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾[6].

---

(١) سورة مَريَـم: ١٢.
(٢) الطبري، ج١، ص٤١٩.
(٣) النجار، قصص الأنبياء، ص٣٦٨.
(٤) حقائق وأباطيل، فوزي حميد، ص١٣١.
(٥) سورة الصف: ١٤.
(٦) سورة النساء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

سيرتهم مع خاتم الأنبياء (محمد (ص)):

ظلت اليهود تنتظر النبي الذي أخبرهم عيسى عليه السلام بمجيئه وأخبرتهم التوراة قبل ذلك بخاتم للأنبياء اسمه أحمد ينقذ البشرية ومن يتبعه يفوز بالدارين، حتى هاجر قسم منهم من أحبارهم إلى الجزيرة العربية ليدركوا النبي المرتقب في الجزيرة، وتصوروا أنه من بني إسرائيل، وكانت المفاجأة الكبرى، ظهور النبي من قريش، فكيف وهم شعب الله المختار!!، ولم يلدوا النبي المرتقب، كيف انحدر النبي محمد ﷺ من عبد الله بن عبد المطلب من هاشم من قريش من عدنان من أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام[1] من زوجه هاجر أمَة سارة وضرتها، المصرية التي وهبها الفرعون مع هدايا جزيلة إلى إبراهيم عليه السلام[2]، حين رجوعه إلى كنعان من مصر، وكيف لا يكون النبي من اليهود ـ حسب قولهم ـ شعب الله المختار! الذين ينتمون إلى موسى عليه السلام بن عمران بن قاهان بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم من زوجه سارة[3] الزوجة الأصلية الأولى حسب تعبيرهم.

فبدأت الأهواء والمصالح والعنصرية تلعب برؤوسهم وهذا ليس أمراً غريباً أن يكذّبوا دعوته ويحاربوه فقد كذّبوا قبله رسلاً كثيرة، بعثهم الله منهم وفيهم، وهذا ديدن اليهود كما قال القرآن الكريم: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[4].

واشتدت عداوة اليهود للنبي محمد (ص) واتباعه يوماً بعد آخر حتى قال فيهم القرآن الكريم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾[5] مع العلم أن هذا النبي الذي يكذبونه موجود في كتبهم

(١) الأعلام، الزركلي، ج، ص٢١٨.
(٢) تاريخ مختصر الدول، ص١٣، ابن العبري.
(٣) المصدر السابق.
(٤) سورة النِّسَاء: ١٥٥.
(٥) سورة المَائدة: ٨٢.

السماوية: ﴿...الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾[1] وأيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾[2].

ومع هذا نرى مواقفهم الخيانية وغدرهم ونقضهم للعهود والمواثيق التي أبداها لهم ـ النبي المرتقب في الجزيرة ـ والاحترام وحفظ حقوقهم الدينية حيث جاء من ضمن ما أملاه الرسول (ص) في صحيفة المواثيق المدنية في حفظ وحدة المدينة هو «الإقرار بالحرية الدينية لليهود، كونهم من أهل الكتاب، شرط أن يتعهدوا بعدم التآمر على المسلمين أو التحالف مع أعدائهم»[3] لكنهم سرعان ما نقضوا هذا الميثاق وتآمروا على النبي والمسلمين، وصبر عليهم الرسول ﷺ فترة على مضض وحقناً لدمائهم، لكنهم استغلوا هذا وتمادوا في تحرّشهم بالمسلمين والدس والتحريض ضدهم والتصدي لهم والنيل من الرسول ﷺ، وطلب منهم ﷺ أن يكفّوا عن سلوكهم وأن يلتزموا بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم حين دخوله المدينة، فلم يزدهم ذلك إلّا عتواً وتمادياً في ايذاء المسلمين ونشر الفساد في المدينة وغيرها... وهناك من المصاديق الكثيرة لمواقفهم الخيانية المخزية والمشينة تجاه المسلمين والنبي يمكن الرجوع إليها في كتب التاريخ الإسلامي كالطبري والمسعودي واليعقوبي وغيرها...

اللعن الإلهي الدائم عليهم:

من عدل الله تعالى وحكمته أن خلق الجن والإنس ليعبدوه وأرسل لهم الأنبياء والرسل لتبليغهم تعاليم السماء والسير السوي والطريق المستقيم

---

(١) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٢) سورة الصف: ٦.

(٣) انظر الطبري، بنود الصحيفة وسيرة المصطفى هاشم معروف الحسيني والنشاط السري اليهودي للمؤلف غازي محمد فريج، ص٨١.

وبشر المؤمنين بالثواب وتوعد المنحرفين بالعقاب، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[2].

ولو عدنا للتاريخ الديني لبني إسرائيل، لنجد السواد الأعظم منهم لم يؤمنوا بالله والرسل والأنبياء ولجّوا وكفروا ونقضوا العهود تلو العهود وقست قلوبهم حتى نالوا غضباً إلهياً دائماً بما كسبت أيديهم... وعُدُّوا أمةً ملعونة إلى يوم الدين..

والحقيقة أن الله تعالى ـ العادل المطلق ـ لا يظلم أحداً ولا يغضب على قوم دون سبب ﴿...وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[3].

ويمكن ذكر بعض أسباب غضب الله واللعن الدائم عليهم وهي:

١ ـ نقضهم المواثيق، وعدم الثبات على عهدٍ عاهدوه.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾[4].

٢ ـ تكذيبهم وقتلهم الأنبياء.

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾[5].

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[6].

---

(١) سورة النور: ٥٥.
(٢) سورة آل عِمرَان: ٥٦.
(٣) سورة العنكبوت: ٤٠.
(٤) سورة المائدة: ١٣.
(٥) سورة المائدة: ٧٠.
(٦) سورة البَقَرَة: ٦١.

٣ ـ تحريفهم الكتب السماوية المنْزلة:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾[1].

٤ ـ اتخاذ دينهم لهواً ولعباً وهزواً وإيمانهم بما ينسجم ومصالحهم، وما لا ينسجم مع مصالحهم وأهوائهم ضربوه عرض الجدار، قال تعالى:

﴿...أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2].

٥ ـ اتصافهم بأسلوبي اللبس والكتمان، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[3].

٦ ـ إفسادهم في الأرض، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾[4].

٧ ـ محاربتهم للنبي محمد ﷺ لا لشيء إلّا حسداً لأنه ليس من بني إسرائيل، فباؤوا بغضب على غضب. قال تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾[5] وقال تعالى أيضاً: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[6].

---

(١) سورة المائدة: ٦٨.
(٢) سورة البقرة: ٨٥.
(٣) سورة البقَرَة: ٤٢.
(٤) سورة الإسراء: ٤.
(٥) سورة البقَرَة: ٩٠.
(٦) سورة البقَرَة: ٨٩.

٨ ـ إشعالهم للحروب، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[١].

ونستطيع أيضاً أن نثبت غضب الله تعالى عليهم وتشتيتهم في الأرض وطردهم من الأرض المقدسة، من توراتهم نفسها. أي (من فمك أدينك).. فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير...

جاء في التوراة: «إن بيت إسرائيل لما سكنوا أرضهم نجسوها بطريقهم وبأفعالهم، كانت طريقهم أمامي كنجاسة الطامث، فسكبت غضبي عليهم لأجل الدم الذي سفكوه على الأرض، وبأصنامهم نجسوها فبددتهم في الأمم، فَتَذَرّوا في الأراضي، كطريقهم وأفعالهم، دُنتهم. فلما جاءوا إلى الأمم حيث جاءوا. نجسوا اسمي القدوس، إذ قالوا لهم: هؤلاء شعب الرب،... الخ»[٢].

جذورهم في العداء المعاصر:

اعتبر اليهود أنفسهم أبناء الله وشعبه المختار، فكتبت أيديهم وتدخلت أهواؤهم فيما أملوه في التوراة والزبور المحرفتين، وفي تعاليم التلمود مما يدل على عنصريتهم وتعاليهم على شعوب العالم أجمع فقد جاء في توراتهم: «لأنك شعب مقدس للرب إلهك وإياك اصطفى الرب إلهك أن تكون أمة خاصة من جميع الأمم التي على الأرض»[٣] ومن تعاليم التلمود: «إن نطفة غير اليهودي كنطفة باقي الحيوانات»[٤].

فلذلك كانت المفاجأة الكبرى أن يبعث النبي المنتظر من غير بني إسرائيل، بل كان بعيداً عن أذهانهم ظهور نبي من العرب الوثنيين الأميين الغارقين في أسباب الجهل والكفر ـ حسب تعبيرهم في كتبهم المحرفة ـ.

---

(١) سورة المائدة: ٦٤.

(٢) حزقيال، الإصحاح ٣٦، الرقم ١٦.

(٣) سفر تثنية الاشتراع، الرقم ٦، ٧.

(٤) من تعاليم التلمود.

ومن يستقرىء أسفار العهد القديم، يرى بوضوح النزعة الدينية والقومية التي رسمتها عقولهم وخطتها أيديهم عبر تاريخهم، تندبهم وتدعوهم بالعودة إلى أراضيهم المقدسة!! التي لا تضاهيها أرض في الدنيا وكل أراضي العالم (نجسة) ـ حسب زعمهم ـ وتدعوهم تلك النزعة إلى شرب الدماء «لا تنام حتى تأكل فريسة وتشرب دم قتلى»[1].

ولا زال بنو إسرائيل ـ بمساعدة الصهيونية ـ غارقين في أوهام توحي إليهم بتفردهم بالأصل الإنساني، وأن الأجناس الأخرى تعود إلى نطف حيوانية! وطفحت فيهم نزعتهم الأسطورية وتحريفهم المتعمد إلى بث روح خرافية في أبنائهم لتزرع في وعيهم ولا وعيهم أن الإله إنما هو لما سكن أرض الميعاد، وحسب، وإن من سكن وراء هذه الأرض من بني إسرائيل فلا إله له، إذ قد طرده الإله من حوزته!

إنها الأسطورة التي أسست لهذا الاحتلال الصهيوني ولكل مشاريع الاستيطان والتوسع، ولاسيما مشروعهم الأخير في جعل القدس عاصمة لهم، رغم إدارة الجامعة الدولية..

ففي سفر (كتوبوت) جاء: «إن من يقيم خارج أرض إسرائيل هو بمنْزلة إنسان بدون إله».

ويقول الرباني أليعازر: «إن المقيم داخل أرض إسرائيل يعيش بلا خطايا» وقول الرباني عنان: «من يُدفن في أرض إسرائيل كأنه يدفن تحت المذبح» وغيرها من الأقاويل والأساطير والأوهام الكاذبة لإغراء المغفلين من اليهود للرحيل إلى أرض فلسطين لاحتلالها ولجمع شتات اليهود المغضوب عليهم والذين لفظتهم كل شعوب العالم نتيجة خباثتهم وأفعالهم وعند دخولهم الأرض المقدسة سوغوا لأنفسهم إراقة الدماء

---

(١) سفر العبد.

وقتل الأبرياء وعمل الموبقات والفواحش، مع هذا تبشرهم توراتهم، مهما فعلوا في أرضهم لا تحسب خطايا ولا ذنوباً بل تشجعهم في ذلك.

وبدأ في عصرنا الراهن، البحث عن تلك الجذور والأسس والأصول لتبرير مطامعهم التوسعية التي تزداد يوماً بعد يوم ولم يكتفوا بفلسطين وحدها بل تعدت أطماعهم البلاد الإسلامية المجاورة، بزعمهم أن الرب وعدهم السيادة على العالمين لأنهم أبناؤه وشعبه!! تدعمهم في هذا الادعاء قوى الشر والطغيان ودول الاستعمار الحديث، وتساندهم الصهيونية العالمية بحجج دينية وتاريخية مزعومة واهية لتغطية الأطماع التوسعية، وتمدهم الولايات المتحدة بالأموال والسلاح، ويدعمهم المغفلون والجهلاء ممن لا ضمير له ولا ذمة ولا دين من العملاء وغيرهم، متجاهلين أرض الكنعانيين الذين سكنوها منذ حوالى (٣٥٠٠ق.م) ولهم أمجاد فيها وارتباطات وطموحات، فبأي منطق يجري التصرف بحق شعب لصالح شعب آخر، بمجرد أنه عاش فترة محدودة من خلال غزو عسكري أو احتلال على أرضه؟.

تكرار الحديث عن بني إسرائيل في القرآن

الحقيقة التي لا جدال فيها أن القرآن كتاب هدي ورحمة للناس، وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور الحياة الصافية النقية الخالية من الخلل والجهل، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1].

أما ما جاء في القرآن من مادة علمية وتاريخية وفكرية وغيرها فهي لغرض دعم الهدف الأساسي وهو الهداية، ولذلك وظّفَ القرآن الكريم مختلف العلوم والشواهد وبمختلف الأساليب في سبيل تحقق الهدف الكبير (الهداية).

---

(١) سورة إبراهيم: ١.

فأتى بالشواهد المختلفة من التاريخ والواقع الاجتماعي والفكر الصحيح والمنحرف وما إلى ذلك من أجل تحقيق الهدف..

ولم يكن ذكر بني إسرائيل في القرآن الكريم وتكرار قصتهم مع موسى عليه السلام، إلّا مصداقاً من مصاديق العبرة، فهي خير عبرة لمن اعتبر في اللجاجةِ والطبع الغليظ الذي استقر في نفوسهم، والاستكبار والنزعة العنصرية التي أصبحت جزءاً من سلوكياتهم جيلاً بعد جيل وما إلى ذلك مما ذكره القرآن الكريم عنهم..

ويمكن تعليل ورودهم بهذه الكثرة دون غيرهم من الأقوام، للتشابه الموجود بينهم وبين قوم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مجال عنادهم وأذاهم للنبي الأكرم..

ويمكن عرض صورتهم الغليظة هذه للتخفيف مما يعانيه نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من أذى قريش وشدتهم، فهم إذا ما قيسوا بقوم موسى عليه السلام تطيب نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويهون أمر قومه عليه، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[1].

فالبشاعة والشراسة التي لاقاها النبي موسى عليه السلام لعلها أشد وأقوى من أفعال قوم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبذلك يكون القرآن الكريم قد لعب دوراً كبيراً في طمأنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإعلامه أن الدعوة ماضية إلى غايتها رغم الصعوبات التي تواجهها..

ويقول بعض المفسرين: إنّ الله تعالى كرر «قصة موسى عليه السلام مع فرعون لأن حكاية موسى عليه السلام منذ انعقاد نطفته إلى آخر حياته كلها عبر ونصح وإنذار وتبشير وتسلية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين وفيها آيات دالة على علم الله تعالى وقدرته وحكمته وعلى تحمل موسى عليه السلام من قومه الذين هم أشد حمقاً من جميع الأمم»[2].

---

(١) سورة هود: ١٢٠.

(٢) الكاشف، مغنية، مج٥، ص٢٠٦.

فالغرض إذن يكمن في عرض صفات بني إسرائيل (اليهود) (قوم موسى) وطرح نموذجاً مما بلغ إليه من التعنت في عدم الامتثال لأغلب أوامر الله تعالى، ومطاولتهم ومماطلتهم في تنفيذ ما يأمرهم به النبي موسى عليه السلام، والعاقبة التي آلوا إليها من التيه والغضب الدائم عليهم واللعن الإلهي إلى يوم يبعثون..

الخاتمة

وفي نهاية المطاف وبعد جولة سريعة في تاريخ بني إسرائيل ورحلتهم الى بلاد النيل وما تمخضت من علاقات واحداث تاريخية.

بعد هذه الجولة القصيرة والسريعة، اقتربنا ـ ولو قليلاً ـ من الحقيقة، حقيقة بني إسرائيل (أولاد النبي يعقوب عليه السلام وتمييزهم عن الإسرائيليين المعاصرين أو ما يُسمّون (بصهاينة العصر) وممارساتهم بحق التاريخ والانسانية.

فمن هم الإسرائيليون المعاصرون؟ أليسوا هم جماعات متفرقة وشتاتاً مهشماً جاءوا من هنا وهناك ومن كل حدب وصوب لم يجمع بينهم جامع إلّا النزعة الاستعمارية التي زرعها في نفوسهم الوعد البلفوري وغيره لجمع شتاتهم في أرضٍ مقدسة أباحوا دماء أهلها بالقتل والتشريد وسوّغ لهم التلمود وتعاليمه وأفكار صهيونية احتلال بلد مسلم بعيدين عنه تاريخاً وفكراً وعقيدة..

كيف يمكن لهؤلاء الشتات أن ينتموا إلى نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام أو إلى إسرائيل (النبي يعقوب عليه السلام) أو أبنائه أو الكليم موسى عليه السلام؟

نحن نؤمن أنَّ أي نبي لا يمكن أن يكون أتباعه والموالون له إلّا مؤمنين بالله، مسلمين له تعالى ولخُلق الدين الحنيف.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1].

---

(١) سورة آل عِمرَان: ١٩.

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[١]

والإسلام هو الطاعة لأوامر الله والانتهاء لما نهى عنه وحقن دماء خلقه من الأبرياء الآمنين لا الاعتداء عليهم وإباحة دمائهم..

---

(١) سورة آل عِمرَان: ٨٥.

مراجع ومصادر الكتاب

١ ـ **القرآن الكريم**.

٢ ـ **العهد القديم (التوراة)**.

٣ ـ **العهد الجديد (الأناجيل)**.

كتب التفسير للقرآن الكريم

٤ ـ **الأمثل**، مكارم الشيرازي.

٥ ـ **التفسير الكبير**، الفخر الرازي.

٦ ـ **الكاشف**، محمد جواد مغنية.

٧ ـ **الكشّاف**، جار الله الزمخشري.

٨ ـ **مجمع البيان**، الطبرسي.

٩ ـ **المنار**، سيد قطب.

١٠ ـ **الميزان**، محمد حسين الطباطبائي.

الكتب العربية

١١ ـ **إبراهيم أبو الأنبياء**، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت صيدا.

١٢ ـ **إخناتون رائد الثورة الثقافية**، فؤاد محمد شبل، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤م.

١٣ ـ **أساطير العالم القديم**، (جامعة الهيئة المصرية العامة).

١٤ ـ **أنبياء عاشوا في مصر**، فتحي فوزي، مركز الأهرام للترجمة والنشر.

١٥ ـ **تاريخ مختصر الدول**، ابن العبري، ت: ٦٨٥هـ.
١٦ ـ **تاريخ اليهود**، أحمد عثمان.
١٧ ـ **التعريفات**، الجرجاني، دار الصفدي، دمشق، سوريا.
١٨ ـ **تكوين الصهيونية**، خالد القشطيني، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٨٦م.
١٩ ـ **التلمود والصهيونية**، د.أسعد رزوق، بيروت، لبنان.
٢٠ ـ **الحضارات**، لبيب عبد الساتر، دار المشرق ـ بيروت ـ لبنان.
٢١ ـ **حقائق وأباطيل**، محمد فوزي، دار الصفدي ـ دمشق ـ سوريا.
٢٢ ـ **الديانة والفنون**، جامعة الهيئة المصرية العامة.
٢٣ ـ **زوال إسرائيل حتمية قرآنية**، أسعد بيوض التميمي منشورات أوبن برس المحدودة، لندن، عام ١٩٨٤م.
٢٤ ـ **سقوط الامبراطورية الإسرائيلية**، د. جورجي كنعان/ الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
٢٥ ـ **سعد السعود**، ابن طاوس، قم، إيران.
٢٦ ـ **شرح الزيارة الجامعة**، عبد الله شبر، قم، إيران.
٢٧ ـ **صهيونية الخزر**، وصراع الحضارات، وليد محمد علي، دار التضامن، بيروت.
٢٨ ـ **الفلك والتنجيم**، عبد الأمير المؤمن، الدار الثقافية، مصر.
٢٩ ـ **قصص الأنبياء**، عبد الوهاب النجار، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٠ ـ **مروج الذهب**، المسعودي، تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام. دار الفكر.
٣١ ـ **المصباح المنير**، الفيومي، منشورات دار الهجرة ـ إيران ـ قم.
٣٢ ـ **مصر وكنعان**، وإسرائيل في العصور القديمة، دونالد ريدفرود، ترجمة بيومي قنديل عام ٢٠٠٠م.

٣٣ ـ **الملل والنحل**، الشهرستاني، منشورات الشريف الرضي، قم، إيران.
٣٤ ـ **معجم الحضارات المصرية القديمة**، ترجمة أحمد سلامة وسيد توفيق، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦م.
٣٥ ـ **مع الأنبياء**، عفيف عبد الفتاح طبارة، انتشارات الشريف الرضي ـ قم.
٣٦ ـ **من هو اليهودي**، د. عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، الطبعة الثانية ٢٠٠١م.
٣٧ ـ **مناقب آل أبي طالب**، ابن شهرآشوب، ايران، قم.
٣٨ ـ **موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد علي التهاوني، ج١.
٣٩ ـ **الموسوعة العربية الميسرة**، إشراف محمد شفيق غربال، الطبعة الثانية، دار الشعب القاهرة، عام ١٩٧٢م.
٤٠ ـ **موسوعة المورد**، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت.
٤١ ـ **المنجد**، لويس معلوف، دار الشروق، بيروت، لبنان.
٤٢ ـ **معجم الحضارات السامية**، هنري س.عبودي، جروس برس، طرابلس ـ لبنان.
٤٣ ـ **النشاط السرّي اليهودي في الفكر والممارسة**، غازي فريج،
٤٤ ـ **اليهود واليهودية**، د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

الكتب المترجمة إلى العربية

٤٥ ـ **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية**، روجيه غارودي، تقديم الاستاذ محمد حسنين هيكل، دار الشروق، الطبعة الرابعة عام ٢٠٠٠م.
٤٦ ـ **انتصار الحضارة**، تاريخ الشرق القديم، جيمس هنري برستر، ت: د.أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٤٧ ـ **تاريخ الحضارات العام**، موسوعة، منشوارات عويدات ـ بيروت.
٤٨ ـ **التوراة والإنجيل والقرآن**، موريس بوكاي.
٤٩ ـ **دائرة المعارف الإسلامية**، باب الألف، الباء، الحاء، دار المعرفة.
٥٠ ـ **الصهيونية غير اليهودية**، ريجينا الشريف، ترجمة: أحمد عبد الله عبد العزيز، عالم المعرفة عام١٩٨٥م.
٥١ ـ **قصة الحضارة**، ول وايرئيل ديورانت، دار الفكر.
٥٢ ـ **معجم الحضارة المصرية**، ترجمة أحمد سلامة وسيد توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٦م.
٥٣ ـ **موسوعة تاريخ مصر**، ترجمة حسن كمال دار الشعب ـ القاهرة ١٩٩٣م.
٥٤ ـ **موسوعة علم الآثار**، كليني دانيال، ت:ليون يونس، ط: دائرة الاعلام بغداد سلسلة المأمون.

جرائد ومجلات عربية

٥٥ ـ أكتوبر، الصادرة عام ١٩٧٦م، مصر.
٥٦ ـ الأهرام، الصادرة عام ١٩٧٧، مصر.
٥٧ ـ الشرق الأوسط، الصادرة عام ١٩٧٦، مصر.
٥٨ ـ مجلة العربي، العدد٣٤٣، الصادرة عام ١٩٧٨م، الكويت.
٥٩ ـ مجلة الفيصل، العددان ٢١٠ و ٢٥٨ الصادرة عام ١٩٩٨م السعودية.
٦٠ ـ الهلال، العدد ٥، الصادرة عام ١٩٧٥م، مصر.
٦١ ـ كيهان العربي، العدد ٣٣٧٨، ١٩٩٥م ٢٣ أيار.

الفهرس

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

❖ ماجدة حسين المؤمن الغريفي

❖ مواليد النجف الأشرف (العراق) عام ١٩٦١م.

❖ باحثة إسلامية متخصصة في التاريخ والأسرة

❖ ماجستير في الشريعة، وبكالوريوس في علم النفس

❖ مارست التدريس في الجامعات الدينية منذ عام ١٩٩٥

❖ لها عدد من المؤلفات والبحوث المنشورة، منها:

ـ الحج عبر الحضارات والأمم

ـ القيمومة: سلطة أم مسؤولية شرعية؟

ـ متى تتبدل نظرة الغرب للمرأة؟

ـ دور المرأة الفاعل في الأسرة والمجتمع

ـ الشهيدة بنت الهدى: الواقع والآمال

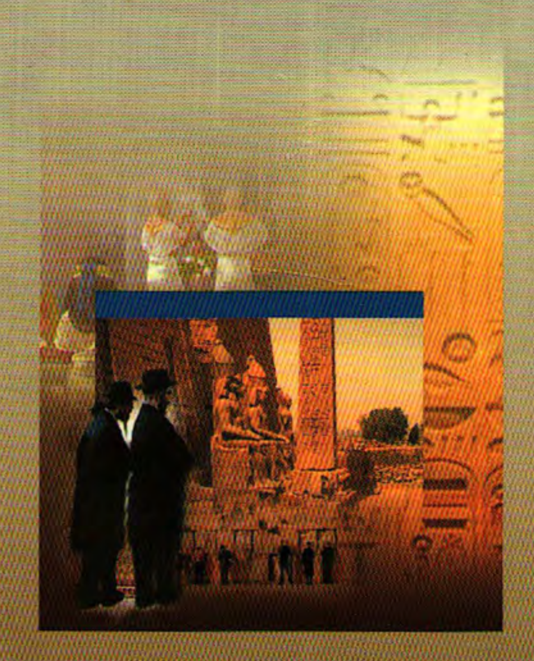
ـ نزعة القتل والإرهاب عند اليهود

ـ الدور الإصلاحي للنهضة الحسينية

ـ الروح والعقل والنفس

ـ الحج في الإسلام

E: almomen 144 @hotmail.com



بنو إسرائيل
والحضارة المصرية

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ ـ ٨٩٦٣٢٩/٠٣ ـ فاكس: ٥٤١١٩٩/٠١
ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com
URL: http://www.daralhadi.com

ISBN 9953-484-54-6



9 789953 484549

Designed by R. Sedik